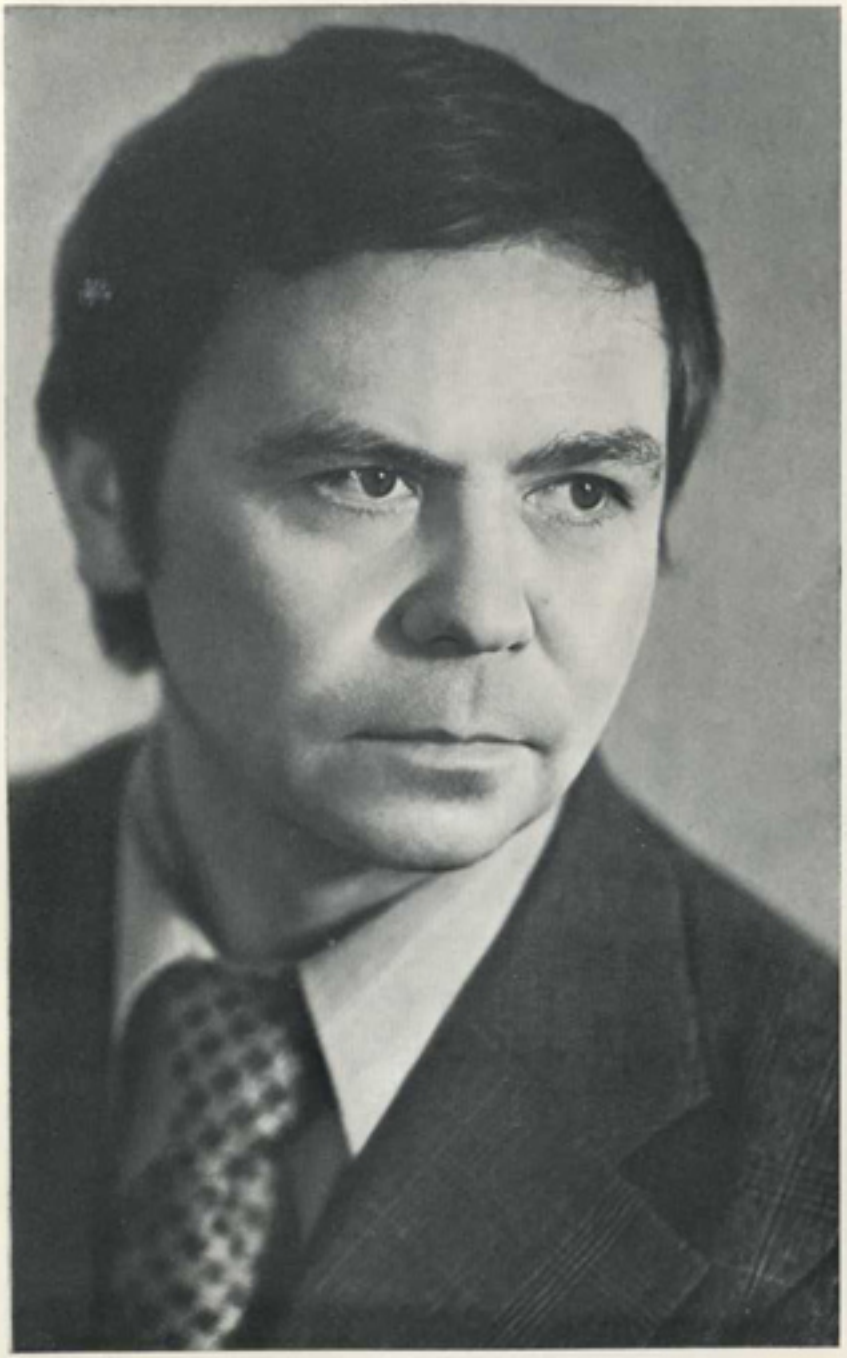

فالنتين راسبوتين

الهارب

ترجمة خيرى الضامن

موسكو
دار التقدم

Валентин Распутин

ЖИВИ И ПОМНИ

На арабском языке

© Издательство «Современник», 1975 г.

© المقدمة لدار التقدم ، ١٩٨٢

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٨٢

طبع فى الاتحاد السوفييتى

$P\frac{70302-311}{014(01)-82}414-82$ 4702010200

فى ادب فالنتين راسبوتين

فالنتين راسبوتين من ابرز الكتاب السوفييت فى السبعينات . ولد عام ١٩٣٧ فى قرية سيبيرية صغيرة على نهر انغارا الشهير الذى ينبع من بحيرة بايكال الاكثر شهرة . كرس الكاتب نتاجه كله للناس البسطاء فى اقليمه المحبب ، وبالدرجة الاولى للفلاحين الذين يرتبطون بكل الوشائج بطبيعته البكر . وعلى كل حال فان مؤلفات الكاتب حتى الآن (وقد باشر بالنشر قبل اكثر من عشرين عاما) مكرسة كليا لحياة الريف السيبيرى . الا ان نتاج فالنتين راسبوتين اشتهر حاليا فى كل مكان من بلاد السوفييت . فقد حظيت قصصه باقبال الملايين من القراء واهتم بها مخرجو اشهر المسارح ومؤلفو السيناريو . وترجمت مؤلفاته الى العديد من اللغات الاجنبية .

ومنذ سنوات يبدى النقاد السوفييت اهتماما كبيرا بتركيز الكاتب على المادة «الريفية» فى سيبيريا ، وبالاهمية العامة للقضايا النابعة من تلك المادة ، وهى الاهمية التى تتجاوز كثيرا اطار ذلك الموضوع .

وبالمناسبة فان هذه الخاصية لا ينفرد بها راسبوتين وحده . فهى تلازم نتاج كوكبة من الكتاب السوفييت فى الستينات والسبعينات ، اولئك الذين يجمعهم مصطلح غير دقيق ولكنه راسخ فى الدراسات النقدية : «النثر الريفى» . هذا المصطلح بحد ذاته لا يرضى الكثيرين . ورغم احتجاج الكتاب والنقاد على محدوديته وعدم دقته فقد ثبت اقدامه عميقا فى ممارسات الحياة الادبية فى الستينات والسبعينات ، حيث شغلت القضايا الخاصة بمصير الفلاح والتناسب بين حياة المدينة والقرية من جديد ، كما حدث مرارا فى تاريخ الادب الروسى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، مكانة بارزة جدا . وبدا اهتمام الكتاب السوفييت بالريف فى

الستينات والسبعينات غير متوقع للوهلة الاولى . ففى بلد صناعى هائل ، فى عصر الاشتراكية المتطورة والثورة العلمية التكنيكية ، فى الوقت الذى تحول فيه القسم الاكبر من سكان البلد الزراعى سابقا الى سكان مدن ، افرد كتاب كثيرون فجاة مكان البطولة الرئيسية تقريبا لعجوز قروية بسيطة ، للمراة الروسية ذات المصير العسير والفؤاد النقى المكشوف على العالم كله ، لخازنة التقاليد الشعبية الازلية . ويرى النقاد ان الاسباب العميقة لهذا الانعطاف تكمن فى سرعة التحولات الاجتماعية الجارية فى الاتحاد السوفييتى . وعندما يضطر كثير من الناس ، فى غضون الزمن المخصص لحياة جيل واحد ، الى التكيف لظروف حياة جديدة تماما ويفقدون الوشائج التى تربطهم بالعالم الذى ولدوا فيه ، بالعالم القريب من الطبيعة البكر ، لا بد وان ينشأ فى مثل هذه المراحل التاريخية العديد من الصدامات الدرامية ، بل وحتى الفاجعة . وليس فى ذلك ما يثير الاستغراب . ان طريق التقدم معقد ومحفوف بالتناقضات احيانا . والقارىء يشعر بالامتنان للادب الذى يوضح ويجسد بالكلمة الشعرية ما يهتم به هو ، المهندس والعالم والعامل المعاصر ، خلف' اولئك الآباء والاجداد الذين قضوا حياتهم بعيدا عن المدن الكبيرة ، وربوه صغيرا فى جو مفعم برياح حقول القمح وانفاس الانهار البكر وعطور الغابات الناعسة . لقد جسد «النثر الريفى» تلك التغيرات التاريخية التى شهدتها القرية السوفييتية بنتيجة التحولات العلمية والتقنية والاجتماعية التى شملتها . وادى هذا الادب بكل حرص واهتمام واجب الابن فى صيانة وتوديع ذكرى عالم القرية الروسية القديمة التى تعرضت لتغيرات هائلة فى غضون بضعة عقود . ويتصدر كوكبة «ادباء الريف» كتاب معروفون من امثال فكتور استافييف وفاسيلى بيلوف وفاسيلى شوكشين وفيودور ابراموف وسرغى زاليغين ويفغينى نوسوف . . . ولكل من هؤلاء الكتاب موقفه الاصيل من القضايا العامة ، ولكنهم جميعا تمكنوا فى الوقت اللازم من الالتفات مرة اخرى الى الريف الروسى والقاء نظرة على همومه ومشاغله من ذروة تاريخية جديدة فى الادب السوفييتى . ويعزى نجاح «النثر الريفى» الى التوفيق بين المتابعة اليومية الملموسة لحياة الشغيلة البسطاء فى القرى والمدن وبين القضايا

الازلية الجذرية لرسالة الانسان واعتماده على الطبيعة وعلى سبل التقدم الاجتماعى وتناقضاته .

تعود لفالنتين راسبوتين مكانة خاصة وبارزة جدا بين ممثلى «النثر الريفى» السوفييتى المشهورين والمعترف بهم عن جدارة واستحقاق فى الستينات والسبعينات . ويخيل الينا انه ما من ناقد سوفييتى معاصر مهتم بالنثر السوفييتى الحديث الا وكتب فى السنوات العشر الاخيرة عن فالنتين راسبوتين وحاول ان يبدى رايه فى ادبه . ويتصور كل من هؤلاء النقاد بانه هو نفسه الذى يتمكن من فك لغز الشهرة الفريدة التى يتمتع بها فالنتين راسبوتين . فما هو ذلك اللغز يا ترى ؟

الجواب على هذا السؤال ، بصيغة عامة ، فى منتهى البساطة . انه يكمن فى الشاعرية المدهشة والاكتمال الفنى لمؤلفات الكاتب . فعندما تقرا قصصه تظن وتعتقد بانك عرفت عن ابطالها كل شىء بالتمام والكمال ، وتخرج من تلك القراءة باعتقاد راسخ بانك عرفت كل ما ينبغى ان تعرفه عنهم ، ولا يخامرك ادنى شك بان الكاتب لم يهمل شيئا او لم يذكره بالشكل المطلوب . فهو يتحدث عن اشياء واحداث فى الوجود البشرى – كالحياة والموت والضمير الانسانى والخيانة الفتاكة ومسؤولية الانسان الكبيرة حيال الاحياء – لا يجوز التقصير فى الكلام عنها كما لا يمكن عرض صيغ متعددة فضفاضة لها ، اذ ان هذا وذاك ليسا من طبيعة تلك الاشياء وتلك الاحداث .

تثير مؤلفات فالنتين راسبوتين الانتباه بتوفيقها غير المعتاد بين بساطة الحبكة والموضوع والشخوص العاديين حسب الظاهر وبين عمق المغزى الفلسفى لقصص الكاتب واقاصيصه . وقبل ان نتحدث عن اصالة موهبة راسبوتين يجدر بنا ان نقدم للقارىء فكرة ، وان باعرض الخطوط ، عن حبكة اكثر مؤلفاته انتشارا .

تتحدث قصة «نقود لماريا» (١٩٦٧) ، وهى اول عمل كبير لفت انظار جمهور واسع من القراء وعاد بالشهرة على الكاتب ، عن مصيبة ألمت ببائعة حانوت ريفى . فهذه المراة الساذجة النزيهة اقترفت ، بسبب من طيبة قلبها ، خطا نجم عنه نقص كبير فى حسابات الحانوت ، وذلك الخطا يهددها ، وهى ام لاربعة اطفال ، بالسجن . ويحاول زوج ماريا اقتراض نقود من الجيران والاقارب كى يسدد

المبلغ فينقذ زوجته . وعلى خلفية هذا الحادث العادى البسيط ترسم ريشة الكاتب تشابكا معقدا لمختلف المصائر والعلاقات البشرية وظروف حياة الناس فى القرية والمدينة اللتين يتوجه اليهما انسان يكاد يستولى عليه اليأس وهو ينشد المعونة . لا يتهم راسبوتين احدا ، ولا يوجه الى القارىء بالطبع ارشادات تربوية . بيد ان كل من يقرأ القصة يتصور نفسه عفويا وكانه يحل محل اولئك الذين اصيبوا بنكبة واولئك الذين تتوفر لديهم الامكانية لمساعدة الانسان فى محنته ، فيجرب ضميره ويمتحنه .

اما قصة «المهلة الاخيرة» (١٩٧٠) فحبكتها ابسط . بلغ نبأ قرب وفاة آنا الطاعنة فى السن الى ابنائها الكهول فتقاطروا من مختلف المدن على القرية لتوديع امهم فى ساعاتها الاخيرة . يمر امام انظار القارىء شريط لمصائر عادية تماما لاناس مختلفين . الشىء الوحيد المشترك بينهم هو انهم انفصلوا من زمان بعيد عن نمط الحياة الريفى القديم ولا يريدون ، بل ولا يستطيعون العودة اليه ، فلا يفهمون العالم الروحى لامهم الفلاحة العجوز ، ذلك العالم الغريب عليهم . بيد ان الكاتب يصور هذا العالم بحب وعمق شاعرى يجعلان القارىء يودع العجوز آنا بحرقة والم مدركا ان حياته تفقد ، مع هذه «العجائز القديمة» ، شاعريتها التى لا يمكن التعويض عنها .

آخر قصة نشرها راسبوتين حتى كتابة هذه السطور (١٩٨١) هى «وداعا يا ماتيورا» (١٩٧٦) . وكان يريد لها ان تغدو بحثا تسجيليا عن اختفاء قريته ومسقط رأسه من على وجه البسيطة تحت ضغط الحضارة الذى لا يرحم . فان مياه انغارا الحبيب يجب ان تغرق الى الابد قريته بنتيجة انشاء محطة كهرمائية . ان هذه القضية العادية فى العصر الحاضر ، حيث ينتقل الناس من قرية تعودوا عليها الى بلدة عصرية تتوفر فيها اسباب الراحة ، قد اكتسبت لدى راسبوتين طابعا تعميميا لتوديع شاعرى للطبيعة العذراء ولنمط الحياة العريق ولعادات الاجداد وتقاليدهم . وتغتنى واقعية الكاتب فى هذه القصة بسمات جديدة حيث تستوعب عناصر من خيال الفولكلور الشعبى اندمجت هنا بالتحليل النفسانى الرهيف جدا . ومن جديد يقدر القارىء قيم الماضى ويحب الطبيعة دون ان يتلقى اية ارشادات او وصفات تربوية من الكاتب .

حبكات قصص راسبوتين فاجعة بسيطة كما هو واضح . ومعيار قيمة الشخصية الانسانية فى مؤلفاته ليس هو نجاحها الظاهر ومنجزاتها فى الحياة المعيشية ، بل قدرة الانسان على الحفاظ على كرامته فى احلك الظروف حتى فى مواجهة الموت . واروع شخوص قصص راسبوتين واكثرها جاذبية الفلاحات البسيطات اللواتى يؤدين ببسالة واجبهن الدنيوى حتى النهاية . ومن هؤلاء آنا العجوز الطاعنة فى السن بطلة «المهلة الاخيرة» ، وناستيونا الشابة بطلة قصة «الهارب» (١٩٧٤) .

تحتل قصة «الهارب» (الترجمة الدقيقة لعنوانها بالروسية : «تذكر ما دمت حيا» – Live And Remember) مكانة خاصة فى نتاج فالنتين راسبوتين . وهى تحظى باكبر اقبال لدى القراء السوفييت . وتقديرا لهذه القصة بالذات منح الكاتب فى عام ١٩٧٧ جائزة الدولة للآداب . ان التوتر الدرامى الفاجع فى حبكة هذه القصة هو الذى ساعد على انتشارها على نطاق واسع . و«الهارب» هى قصة راسبوتين الوحيدة التى تتحدث عن الماضى . احداثها تعود الى سنوات الحرب الوطنية العظمى عندما خاض الشعب السوفييتى طوال اربعة اعوام (١٩٤١–١٩٤٥) كفاحا باسلا ضد الفاشية الالمانية . ان المآثر البطولية التى اجترحها المواطنون السوفييت والتضحيات التى اقدموا عليها ، وسجلها الادب السوفييتى فى صور رائعة ، لا تعد ولا تحصى . الا ان راسبوتين اختار لقصته حادثة تشذ عن ذلك السياق : جندى تخور قواه النفسية امام اعباء الحرب الطويلة الامد ومخاطرها فيهرب فى طريقه من المستشفى قبيل ان تضع الحرب اوزارها ويتوجه نحو قريته . ويختبئ هذا الجندى السابق الخارج على القانون فى منطقة مهجورة ليس بعيدا عن مسقط رأسه . ولا احد يعرف بسره الفظيع سوى زوجته الشابة التى تزوره فى مخبأه وتساعده فى تذليل آلام الجوع والوحدة وتأنيب الضمير . الا ان الزوجة الشابة لم تتحمل ذلك السر المشين المرعب فتنتحر ، وهى حامل ، حيث تغرق فى مياه انغارا . لقد حول راسبوتين هذه الحادثة المأساوية جدا الى تعميم فنى رفيع يكشف لكل انسان عن اجرامية الانانية البشرية الفتاكة وعن مأساة الخروج على المجتمع . ان قصة «الهارب» تجمع بين الدقة والصدق فى تصوير نفسية الشخوص

المتميزة واصالة الحياة فى الريف السيبيرى وبين الكشف عن المغزى الفلسفى العميق للقضايا الانسانية العامة . وقد وجد القـــراء السوفييت فى بطلة هذه القصة نموذجا للكمال والنقاوة .

الا ان قصة «الهارب» لا تقتصر على ناستيونا ومصيرهـــا المأساوى ، فهى تتناول الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشية ، وما تعنيه تلك الحرب بالنسبة للمواطنين السوفييت . ولعل من افضل صفحات القصة تلك التى تتحدث عن مآثر ارياف سيبيريا ابـــان الحرب وعن النساء اللواتى بقين بدون ازواج والاطفال الذين ظلوا بدون آباء وعن العمل فى التعاونية الزراعية وفى الغابات ، وعـن اشعارات الوفاة وعن الجنود المشوهين القليلين الذين ظلوا عـــلى قيد الحياة وعادوا من الجبهة وعن النبأ العظيم الذى هز القرية ، نبأ انتهاء الحرب ، وعن الاحتفال بعيد النصر .

مؤلفات فالنتين راسبوتين تجمع جمعا عضويا بين الدقة الواقعية والعمق السيكولوجى وبين التشدد الاخلاقى الرفيع . وذلك هو ما يضع راسبوتين فى صف الورثة المستحقين المخلصين لاعـــلام الواقعية العظام فى الادب الروسى الكلاسيكى وفى مقدمتهم ليـــف تولستوى وفيودور دوستويفسكى . ان قارئ راسبوتين يتحسس بامتنان وبدون اى خطأ صلة مؤلفاته بالتقاليد الادبية الروسية ، مع ان هذه الصلة لا تتسم اطلاقا بطابع التقليد الظاهرى او التشابه الممجوج او الصدى الغريب السافر . وهى ليست اقتباسا او تأثرا ، انها صلة قربى حميمة نشأت من تغلغل هذا الفنـــان المعاصر فى المنابع العميقة لحياة الشعب ، تلك المنابع التى ارتوى منها نتاج اسلافه العظام .

ان راسبوتين الواقعى فى تصوير طباع ابطاله وملابســـات حياتهم يسعى الى توسيع واغناء الامكانيات الشاعرية لمنهج الواقعية . وهو يجمع بجرأة فى قصته الاخيرة «وداعا يا ماتيورا» بين الوصف الدقيق للحياة المعيشية والاسطورة ، بين الصدق الحياتى والخيال ، ويوشى السرد بالرموز الشاعرية . وتكتسب مؤلفات الكاتب باطراد مغزى انسانيا عاما واسعا ، وهو امر هام ومفهوم ، على ما نعتقد ، لدى الناس من مختلف القوميات ومن مختلف المستويات الثقافية . فان راسبوتين لا يزال يختار ابطاله من بين الشغيلة السوفييت

البسطاء المهتمين بحاجات وجودهم غير البسيط . الا ان الكاتـب يكشف بعمق متزايد عن التفاعل المعقد بين حياة الانسان المعاصر وعمليات الطبيعة ، وتبعية بعضها للبعض الآخر ، تلك التبعية التى ندركها الآن ، فى ثمانينات القرن العشرين ، بحدة خاصة . ان قدرة راسبوتين على الكشف عن شاعرية وجمال العالم الارضى بالكلمات تساعد القراء على تعميق احساسهم بانهم جزء لا يتجزأ من هذا العالم وانهم حراسه الواعون المدركون لمسؤوليتهم . ان خاصية نتـــاج راسبوتين هذه تضفى عليه اهمية ملحة شاملة .

وهناك سبب آخر لجاذبية ادب راسبوتين العميقة لا بد مـــن الاشارة اليه . ونعنى به لغته الفريدة ، لغة راسبوتين ، والتى هى فى الوقت ذاته اللغة الروسية المعروفة بطابعها القومى العميـــق الجذور . ومما يؤسف له ان خاصية قصص واقاصيص راسبوتين هذه ابعد ما تكون عن متناول القارئ الاجنبى . ومن الصعب تجسيد الخصائص الاسلوبية لمؤلفات فالنتين راسبوتين باللغة العربيـــة بكل ما فيها من غنى وكمال وتفرد . فان راسبوتين محلل نافـــذ البصيرة للعمليات الاجتماعية الراهنة ، وقد جعل اللغة الشاعرية لكتبه تتشبع بالتلاوين القديمة الخلابة للهجة الشعبية التى يتكلم بها الجيل الاقدم ، والصبغة الزاهية الحية للهجة الريفية المعاصرة ، والبلاغة الفنية المدهشة والايقاع الغنائى الرخيم .

ان القارئ السوفييتى يعتبر فالنتين راسبوتين اليوم امل الادب الروسى المعاصر ووريثا شرعيا للادب الروسى الكلاسيكى بما يتميز به من وعى بالمسؤولية الوطنية وموهبة نزيهة للتعبير عن الحقيقة التى يحتاجها الجميع .

اجاب فالنتين راسبوتين على سؤال احد الصحفيين عن الغايـــة النهائية التى يتوخاها الكاتب من ابداعه فقال : «العمل ، وان بقدر ضئيل ، على تحقيق الهندسة الصائبة للروح البشرية . . . وفـــى المقام الاول : تهذيب المشاعر» .

يكاترينا ستاريكوفا

الهـــارب

١

كان شتاء عام ١٩٤٥ ، وهو الاخير من اعوام الحرب ، «دافئا» على غير عادته فى هذه الانحاء . الا ان الصقيع اشتد ، كما ينبغى له ان يشتد اثناء اعياد التعميد ، فتجاوز الاربعين درجة مئوية تحت الصفر . تحجر نثار الثلج فى ايام معدودات وتساقط من على الاشجار التى بدت جامدة مواتا . وراحت الثلوج التى تلفع الارض تتفتت بصرير وصريف تحت الاقدام . وغدا التنفس عسيرا فى هواء الصباح المتكسر كالزجاج . ثم خف الصقيع من جديد بعض الشىء ، وخف مرة اخرى فتلاحمت قشرة ثلجية انبسطت على الاماكن المكشوفة .

فى تلك الاثناء حدثت سرقة فى حمام عائلة غوسكوف القائم فى البستان السفلى عند ضفة انغارا قريبا من المياه . فقد اختفت فاس ميخيتش ، وهى فاس قديمة جيدة الصنع . واذا اقتضى الامر اخفاء شىء عن انظار الغرباء كانت هى اول ما يخبئونه تحت خشبة سائبة من خشب الارضية جنب المدفاة الحجرية . ويتذكر العجوز ميخيتش جيدا انه دس الفاس تحت الخشبة بالذات حالما فرغ من فرم التبغ يوم امس . ولكنه لم يجدها فى مكانها بعد يوم واحد من ذلك . فتش عنها فى كل مكان فلم يعثر لها على اثر . وعندما قلب كل ارجاء الحمام بحثا عنها اتضح له ان الفاس ليست الشىء الوحيد الضائع ، فالشخص الذى سرقها انتشل اكثر من نصف اوراق التبغ المحلى من الرف ، واخذ عدة الاسكى القديمة من مدخل الحمام . وعند ذاك ادرك العجوز ان اللص قدم من منطقة نائية وانه لن يرى فاسه بعد الآن ، فلو كان اللص من ابناء القرية لما سرق خشبتى الاسكى ايضا .

سمعت ناستيونا نبأ السرقة فى المساء حالما عادت من العمل . وخلال النهار لم يقر لميخيتش قرار ، فاين يجد مثل هذه الفأس ورحى الحرب تدور ؟ لن يجد اية فأس بالطبع ، ناهيك عن فأسه الخفيفة كالدمية والحادة كالسكين . استمعت ناستيونا الى حميها يتشكى ويتأوه ، ففكرت متعبة : لماذا يولول بسبب حديدة تافهة اذا كانت كل الامور مقلوبة رأسا على عقب ؟ وعلى السرير ، عندما استقر البدن فى هدوء قبيل الكرى ، اعتصر هاجس قلب ناستيونا على حين غرة : اى غريب يمكن ان يفكر برفع الخشبة من الارضية ؟ كادت تختنق بهذه الفكرة التى داهمتها عفويا ، فعافت جفونها النوم وظلت لامد طويل راقدة فى الظلمة بعينين مفتحتين . كانت تخشى التحرك فى الفراش كيلا تفضح سر اللغز الفظيع الذى حزرته ، فراحت تبعده عنها تارة ، وتقترب من ملامسه الرقيقة المتقطعة تارة اخرى .

فى تلك الليلة لم تنم ناستيونا بما فيه الكفاية ، وعند الفجر عزمت على الذهاب الى الحمام لتتأكد بنفسها . لم تذهب الى هناك بالدرب الممهد فى الثلج امام الحظيرة ، بل هبطت الى نهر انغارا من الزقاق العام واستدارت نحو اليمين حيث لاح سقف الحمام من وراء السياج المطل على الضفة العالية . توقفت للحظة فى الاسفل ، ثم ارتقت الدرجات المتجلدة بحذر وتسللت السياج الى الجانب الثانى كيلا يسمع صرير بوابته ووقفت مترددة قرب الحمام خائفة من دخوله فورا ، وبعد ذلك مدت يدها لتفتح بابه الواطئ بهدوء . الا ان الباب كان ملتصقا بفعل التجمد ، فاضطرت ناستيونا الى سحبه بكل قواها . كلا ، ليس هناك احد ، ولا يمكن لاحد ان يكون هناك . فالحمام مظلم . والنافذة الصغيرة المطلة على النهر ، فى الجهة الغربية ، بالكاد يتسرب منها ضوء شاحب موات . جلست ناستيونا على المصطبة قرب النافذة وراحت تتشمم هواء الحمام ، كما يفعل الحيوان ، بغية العثور على روائح جديدة غير معتادة تعرفها هى من زمان بعيد ، ولكنها لم تجد شيئا غير الرائحة المرة الحادة للعفونة المتجمدة . ولامت نفسها قائلة : «غبية . اننى افكر فى خرافات» . ونهضت دون ان تعرف على وجه التحديد ما الذى جاء بها الى هنا وما الذى كانت تريد ان تعثر عليه .

كانت ناستيونا فى النهار تنقل القش من البيدر الى باحة

التعاونية الزراعية ، وكلما تهبط من التلة تتطلع الى الحمام كالمسحورة . فتغضب على نفسها وتؤنبها ، ولكنها ، رغم ذلك ، تحدق من جديد فى الحمام الذى تحول الى بقعة قاتمة شائكة . راحت تنتزع القش من تحت الثلوج بمذراة حديدية وتكومه على الزحافة ، فشعرت ، وهى المرأة الصبور على كل عمل ، بارهاق بالغ بعد نقل القش للمرة الثالثة . ولعل سهاد البارحة زاد من تعبها . وفى المساء هوت على السرير ، كالجثة الهامدة ، حالما تناولت طعامها . ولعلها رأت فى المنام شيئا ما ، او انها ادركته بذهنها الصافى بعد النوم . وعلى اى حال فهى تعرف الآن ماذا ينبغى لها ان تفعل . انتقت اكبر قطعة من الرغيف فى العنبر ولفتها بقماش نظيف وحملتها سرا الى الحمام . تركت الرغيف على المصطبة فى الركن الامامى . وجلست برهة تتأمل وتفكر فيما اذا كانت قد فقدت رشدها ام لا ، ثم انصرفت بعد ان اغلقت الباب بتنهدة خفية مستعطفة .

فى صبيحة اليوم التالى وما بعده تأكدت ناستيونا من ان احدا لم يمس الرغيف ، فاستبدلته برغيف آخر طازج ، ووضعته هناك فى مكان ملحوظ . لم تعد تأمل فى شىء اطلاقا ، ولكن هاجسا غريبا عنيدا استولى على فؤادها وارغمها على البحث عن خاتمة قصة الفأس . فليس بوسع شخص غريب ان يحزر بوجود المستودع السرى تحت تلك الخشبة بالذات . ها هى الخشبة تستقر فى مكانها الى جانب الخشبات الاخرى ، ولا تهتز حتى لو رقصت عليها . ام ان احدا كان يتلصص ؟ الرغيف هو مفتاح اللغز . وعليه ان يكشف عن هوية ذلك الشخص . فمن الصعب على المرء ان يضبط نفسه امام الرغيف فى هذه الازمان .

بعد يومين اختفى الرغيف . ارتعبت ناستيونا عندما لم تجده فى مكانه . تهاوت على المصطبة خائرة متنهدة وراحت تهز رأسها قائلة : كلا ، مستحيل . ربما جاءت حماتى او ميخيتش فشاهدا الرغيف واخذاه . فليس هناك تفسير آخر . جثت ناستيونا على ركبتيها فرات فتات الخبز على الارضية . كلا ، انه شخص آخر ، غير حماتها وحميها . فقد عثرت ناستيونا على عقب سجارة فى رماد المدفأة البارد .

منذ تلك اللحظة انقلب كل شىء فى دخيلتها : فما الذى

سيحدث ؟ انها تدبر شؤون المنزل وتتردد على العمل فى التعاونية وتظهر امام الآخرين وكان شيئا لم يحدث . ولكنها تتلفت طوال الوقت وتخاف من اى صوت غريب . لم يعد بمقدورها ان تنتظر المجهول . وفى السبت صممت ناستيونا على تسخين الحمام . حاولت سيميونوفنا اقناعها بالعدول عن ذلك ، فالصقيع شديد . الا ان ناستيونا اصرت قائلة بانها ستنقل الماء وتسخن الحمام بنفسها ولا يبقى عليهم الا الاستحمام .

بوسعها ان تسخن الحمام بسرعة ، فالقضية بسيطة ، ولكنها لم تستعجل فى ذلك عمدا . فقد اعدت الحطب نصفين ، نصفا من خشب الصنوبر ونصفا من خشب البتولا البطئ الاحتراق ، وسخنت المدفأة فى وقت متأخر اكثر من المعتاد . كان الجو باردا ، فالصقيع فى بداية الانحسار ، الا ان السماء صافية ولا رياح هناك . عندما ارتقت ناستيونا ضفة انغارا حاملة الماء راحت تتطلع كل مرة دون ارادتها الى الدخان المتصاعد من مدخنة الحمام : فان عموده الاسود بسبب حطب البتولا البطئ الاحتراق يتصاعد مستقيما بدون رياح ويغدو مرئيا من بعيد . سخنت برميلا مليئا اكثر من الحاجة وغسلت الارضية والدكة وضيقت فتحة المدخنة وتوجهت فى الغسق لدعوة العجوزين للاستحمام وطلبت منهما ان يحضرا الكيروسين للمصباح .

كانت ، كما فى الاحلام ، تتحرك بخفة دون ان تشعر بالتعب والارهاق خلال النهار ، ولكنها فعلت كل شيء بالشكل الذى ارادته . انتظرت حتى استحم العجوزان وعادا ، وجمعت البستها ، فسألتها سيميونوفنا : مع من ستستحمين ؟ اجابت كاذبة : مع نادكا . اعتادت ناستيونا ان تصطحب احدى الجارات الى الحمام . فالتطلع الى جسدها العارى المهمل يثير الالم والمرارة ، حتى ان عينيها تغرورقان بالدموع . ولكن يتعين عليها اليوم ان تستغنى عن صاحبتها . فى ظلمة الليل المبكر بلغت ناستيونا الحمام . غطت النافذة بخرقة من الداخل وخلعت ملابسها كى تستحم على عجل ، لان الساعة التى حزرتها ينبغى ان تحل بعد ذلك فى اغلب الظن .

اغتسلت وعادت الى المنزل فصففت شعرها امام المرآة على ضوء المصباح وقالت للعجوزين انها ذاهبة لزيارة نادكا التى ادعت انها استحمت معها . عرجت ناستيونا على نادكا حقا ولكن لامد قصير

وبدون اى قصد ، لمجرد اثبات الوجود . كانت مستعجلة فى العودة الى الحمام . اقتربت من الباب خلسة ، كما يفعل اللصوص ، وراحت تنصت علها تجد احدا فى الداخل ، فهى تخشى من انها تأخرت . ثم دخلت الحمام بحذر . كان لا يزال دافئا ، فجلست ناستيونا على العتبة كى تتخلص من سخونته . واذا كان سيظهر احد فلديها متسع من الوقت للنهوض والانزواء ، اما الآن فلم يبق عليها الا الانتظار .

تهادت من القرية آخر الاصوات الخافتة لنباح الكلاب ، ثم خيم السكون . وبين الحين والآخر كان جليد انغارا يتحطم برنين عابر مكتوم ، وكان الحمام يتأوه وهو يبرد رويدا رويدا . جلست ناستيونا فى ظلام دامس فلا تكاد ترى حتى النافذة الصغيرة ، واحست ، شاردة البال ، بانها كالوحش الصغير التعيس . فما الذى يفعله الانسان هنا ليلا ؟ حاولت ان تفكر فى شيء او ان تتذكر شيئا ، ولكنها لم تفلح : فما كان شيئا بسيطا بين الناس غدا امرا مستحيلا هنا .

فيما بعد انتقلت من العتبة الى المصطبة لان الهواء البارد اشتد من جهة الباب .

ويبدو انها غفت قليلا ، فلم تسمع الخطوات . انفتح الباب فجاة ودخل شيء ما الى الحمام ومر بها ولامسها بخفيف وخشخشة . قفزت ناستيونا وصاحت بصوت خنقه الرعب :

— يا الهى ! من هناك ؟

توقفت الكتلة الكبيرة السوداء للحظة عند الباب ثم هرعت الى ناستيونا :

— اسكتى يا ناستيونا ، هذا انا ، اسكتى .

نبحت كلاب القرية ثم سكتت .

٢

اتامانوفكا واقعة على الضفة اليمنى لنهر انغارا . وليس من اليسير اعتبارها قرية ، فهى لا تحتوى على اكثر من ثلاثين منزلا . ورغم اسمها الرنان فهى منعزلة اصابها الخور تدريجيا وعلى نحو غير ملحوظ منذ عهد ما قبل الحرب . فهناك خمسة منازل — عامرة

وليست مهدمة – تقف مهجورة بنوافذها المغلقة والمغلفة ، كيفما اتفق ، بالاخشاب . لا داعى للبحث عن سبب تدهور القرى ابان الحرب ، فالسبب واحد . الا ان الناس بداوا يهجرون اتامانوفكا قبل ذلك ، وخصوصا الشباب الذين لم يتمكنوا من بناء اسرة . كانت تستهويهم مراكز السكن الكبيرة الاكثر صخبا والاوفر وعودا فيما يخص المستقبل . اما اتامانوفكا فلم يكن لها مستقبل . نشأت على الهامش ونسبّت الى اقرب قرية فى جهتها ، وهى قرية كاردا التى يوجد فيها مجلس ادارى ريفى ، الا ان هذه القرية «القريبة» تبعد عنها باكثر من ٢٠ كيلومترا . صحيح ان قرية ريبنايا الواقعة على الضفة الاخرى من النهر اقرب الى اتامانوفكا ، الا ان ريبنايا كانت على الدوام تقيم علاقات اوثق مع جيرانها الاسفل ، فهناك مجلس ادارى ريفى وحوانيت ورئاسة ، وفى ذلك الاتجاه يقع مركز الناحية الذى يراجعونه فى كل صغيرة وكبيرة . ولا يتوجه احد بالقوارب الى اتامانوفكا الا فى احايين نادرة . كانت البواخر التى تحمل الانباء تمر بها مر الكرام ، وكانت امور واحداث كثيرة تمر بها دون ان تعرج عليها هى اليتيمة الكئيبة القابعة على الضفة . وحتى خبر اندلاع الحرب بلغها متاخرا ، فى اليوم التالى .

ونقول للحقيقة والواقع ان مصيرها لم يكن مغمورا على الدوام كما هو عليه الآن . فقد ورثت اتامانوفكا اسمها عن اسم آخر اكثر رنينا وتخويفا ، وهو رازبوينيكوفو . فى الازمان الغابرة كان رجالها لا يستنكفون عن ممارسة مهنة هادئة مربحة هى «تفتيش» الباحثين عن الذهب القادمين من مناطق نهر لينا . فموقع القرية من افضل المواقع لهذا الغرض : سلسلة الجبال تقترب هنا من نهر انغارا فلا يمكن تجنب المرور بالقرية ، ولا بد لك من الظهور على الطريق شئت ام ابيت . وفى اضيق منطقة قرب الجدول كان ابناء القرية الشجعان يتربصون بابناء لينا المثقلين بالذهب . وظلت شهرة قطاع الطرق لاصقة بالقرية امدا طويلا . وانتقل اسم «رازبوينيكوفو» * من الاشاعات الشفوية الى الاوراق الرسمية فخيل لاحد الاداريين فى الناحية ، قبل قيام الحكم السوفييتى ، ان هذا

---

* قرية «قطاع الطرق» . المترجم .

الاسم شنيع جدا فاستبدله باسم «اتامانوفكا» * الذى لا يخدش الاسماع ولكنه يحافظ على المعنى نفسه . وبالمناسبة فالسكان المحليون غير موافقين على هذه التسمية لسبب ما . فحتى فى ايامنا هذه ، بعد مضى سنين عديدة ، يكرر الشيوخ من كاردا ومن ريبنايا ومن القرى الاخرى قولا واحدا وكانما اتفقوا عليه حرفيا :

– كل اهل القرية من قطاع الطرق ، فلماذا يحصرون الجريمة فى عصابة ما ؟

حملت الاقدار ناستيونا الى اتامانوفكا من اعالى انغارا . ففى عام ١٩٣٣ ، عام المجاعة ، دفنت الصبية امها فى مسقط راسها باحدى القرى على مقربة من اركوتسك . ولكى تتخلص ناستيونا ، وهى فى ربيعها السادس عشر ، من الموت جوعا اخذت اختها الصغرى كاتكا التى كانت فى الثامنة من العمر وهبطت معها الى اسافل النهر ، حيث تفيد الاشاعات ان الجوع اقل . ابوها قتل قبل ذلك ، فى العام الاول للقلاقل المرتبطة باشاعة التعاونيات الزراعية . ويقال انه قتل بالصدفة ، اذ ان الذى قتله كان يصوب على شخص آخر . ولكنهم لم يعثروا على اثر للقاتل . هكذا تيتمت البنتان . قضت ناستيونا وكاتكا الصيف كله تتنقلان من قرية الى قرية تكسبان طعام العشاء او تقتاتان على الصدقة التى يتفضل بها البعض عليهما من اجل الصغيرة الجميلة . ولولا كاتكا الصغيرة لهلكت ناستيونا فى اغلب الظن . فقد كانت ناستيونا شبحا اكثر مما هى انسان : نحيفة طويلة تتدلى يداها ورجلاها وراسها بشكل اخرق . وقد تجمد الالم على وجهها . لم تكن تتحرك وتعرض خدماتها وتستجدى الا من اجل كاتكا التى غدت ناستيونا بمثابة الام لها .

قبيل حلول الخريف وصلت الشقيقتان بشق الانفس الى قرية ريوتينا التى تتذكر ناستيونا ان عمتها تعيش فيها . تذمرت العمة بعض الشىء ، ولكنها تقبلت البنتين . وبعد ان اخذت ناستيونا قسطا من الراحة التحقت بالتعاونية الزراعية ، وارسلت كاتكا الى المدرسة . غدت الامور حتى ذلك الحين اسهل من السابق . فقد اثمرت البساتين ونضج القمح . ليس من الصعب علاج المجاعة اذا

---

* قرية «العصابات» . المترجم .

توفر ما تعالج به . قبيل حلول الشتاء بدأت صحة ناستيونـــا بالتحسن تدريجيا . وفى الموسم التالى كان المحصـــول وفيرا الى درجة يعاب المرء فيها اذا لم ياكل حتى الشبع . وامحت الغضون على محيا ناستيونا واكتنز بدنها شيئا فشيئـــا وتوردت وجنتاهـــا واستبسلت نظراتها . وتحولت الفزاعة الى عروس لا احلى منها . وهناك ، فى ريوتينا ، التقاها ، بعد عامين ، اندرى غوسكـوف ، ذلك الفتى الغريب الذى يتحلى بالكثير من الهمة والبسالة . كان يعمل فى نقل الوقود على الاكلاك من صهاريج فى مكان قريب مـن تلك القرية . وسرعان ما اتفقا . ثم ان ناستيونا قد ملت العيش فى خدمة عمتها ، حيث تكد وتكدح من اجل عائلة غريبة عليها . اوصل اندرى براميل الوقود الى محطة الجرارات وعاد فى الحال على متن الباخرة واصطحب ناستيونا الى قريته اتامانوفكا .

اقدمت ناستيونا على الزواج كما يندفع السباح الى المـاء دون تامل او تفكير : فالزواج شىء لا بد منه ، ولا يستغنى عنه الا القليلون ، فما الداعى للمماطلة ؟ لم تكن تتصور جيدا ما ينتظرها فى العائلة الجديدة والقرية الغريبة . اما الذى حدث فهو انهـــا انتقلت من خدمة الى خدمة مع فارق واحد هو ان الحوش غيـــر الحوش والاستثمارة اكبر والمعاملة اكثر تشـــددا . لدى اسرة غوسكوف بقرتان ونعاج وخنازير ودواجن . المنزل كبير يعيشون فيه ثلاثتهم ، وجاءت ناستيونا فصارت رابعة . وانهالت على كتفيها كل تلك الاعباء . كانت سيميونوفنا تنتظر منذ زمان كنة تخفـف عليها تلك الاعباء ، وعندما تحقق ما انتظرته مرضت فتورمـــت قدماها وغدا السير عسيرا عليها فصارت تتمايل من جنب لآخـــر كالوزة . بيد انها ظلت هى ربة البيت . كانت طوال حياتها تدير هذه العجلة ، اما الآن فقد خيل اليها ان اليدين اللتين حلتا محـــل يديها كسولتان تعوزهما المهارة لا لشىء الا لانهما ليستا يديها . وادركت ناستيونا ان طباع حماتها ليست مما ترتاح اليه النفس ، فهى تارة تتذمر وتولول فلا تطيق اى اعتراض واى تبرير ، وتارة تنتفخ اوداجها غضبا فلا تنبس ببنت شفة . يتعين على المـــرء ان يمتلك ، مثل ناستيونا ، صبرا عجيبا كيلا يتشاجر معها . ناستيونا ، عادة ، تلوذ بالصمت ، تعلمت ذلك فى صيف التشرد عندما جابت

مع كاتكا قرى وادى انغارا وكان بوسع اى شخص ان ينهرها دونما سبب . ولو كانت هى من السكان المحليين ، من اهل اتامانوفكا ، ولو كان لها هنا اقارب يدافعون عنها ويحمونها عند الاقتضاء لتلقت معاملة اخرى . الا انها فتاة يتيمة مشردة لا يعلم احد من ايـــن جاءت ، ولم تجلب معها من متاع الدنيا الا الفستان الذى ترتديه . ولكى تظهر امام الملأ بمظهر لائق تعين تجهيزها بالثياب فى الحال فكان ذلك امرا عسيرا على سيميونوفنا ، وقد زاد فى الطين بلة فى تلك الازمان العصيبة .

بيد ان سيميونوفنا تعودت على ناستيونا بمر السنين وصارت اقل تذمرا واعترفت بانها رزقت بكنة مطواع جادة فى العمـــل . ناستيونا تعمل فى التعاونية وتدير لوحدها تقريبا كل شؤون المنزل الكبير . وما على الرجلين الا ان يعدا الحطب ويوفرا العشب الجاف علفا للشتاء . ولو افترضنا ان سقف المنزل هوى لرفعاه ، امـا احضار دلو من ماء النهر ، على سبيل المثـــال ، او تنظيف مربط الماشية فذلك امر يعتبر معيبا للرجل وغير لائق به . ولم تكن سيميونوفنا بقدميها المريضتين لتستطيع فعل شىء يذكر ، ولـذا غدت ناستيونا لولبا متحركا لا يمكن الاستغناء عنه ، وهذا ما جعل الحماة تتساهل معها رغما عنها . ولكن امرا واحدا ما كانت لتتسامح به مع ناستيونا ، وهو عجزها عن انجاب الاطفال . لم تكـــن سيميونوفنا تلومها ، لانها تعلم ان هذه المسالة بالنسبة لايـــة امراة اكثر ايلاما من اى شىء آخر . ولكنها اخفت غيظها ، لاسيما وان اندرى ظل بمثابة الابن البكر لها ولزوجهـــا ميخيتش اذ ان البنتين اللتين ولدتهما قبله لم تبقيا على قيد الحياة .

انعدام الاطفال هو الذى ارغم ناستيونا على تحمل كل شىء . فقد سمعت منذ الطفولة ان المراة العاقر هى نصف امراة . ولكنها لم تكن تتوقع انها تعانى من هذا العيب فاقدمت على الزواج بسهولـة عارفة بمصير النساء وفرحة لاكبر تبدل فى حياتها ، مع انها اسفت قليلا فيما بعد ، كما يحدث ذلك عادة ، لان امد الفتوة لم يطـل بها كثيرا . كان اندرى يحن اليها ولا يقسو عليها ، وفى الفتـــرة الاولى لم يفكرا فى انجاب الاطفال . كانا يعيشان معا ويتمتعـــان بالوصال لا غير . وفيما بعد ظهر بشكل غير ملحوظ قلق لا يعرف

مصدره ، ولعل سببه هو الخوف من الاخلال بالنظام الازلى لهموم الحياة العائلية . فالذى كانا يتحاشيانه ويخشيانه بادئ ذى بدء صار الآن موضع ترقب وانتظار وشكوك : هل تحبل ام لا ؟ مرت شهور فلم يتغير شيء . واخذ الترقب يتحول الى جزع ثم الى فزع . وخلال ما لا يزيد عن عام تحول موقف اندرى من ناستيونا تحولا تاما ، فصار فظا غليظا ينهال عليها بالملامة الشديدة لاتفه الاسباب ، وفيما بعد لجأ الى الضرب . وكانت ناستيونا تتحمل . فقد تعودت المرأة الروسية الاصيلة ان تبنى عشها مرة واحدة وتتحمل كل ما ينجم عنه . زد على ذلك ان ناستيونا تعتبر نفسها مذنبة فيما آلت اليه . ذات مرة فقط عندما قال لها اندرى ، وهو يلومها ، شيئا لا يطاق اجابته من شدة الغيظ ان السبب غير معلوم ، فهى لا تدرى هل هى السبب ام هو ، فهى لم تجرب رجالا غيره . وعند ذاك ضربها ضربا مبرحا .

صحيح انهما عاشا العام الاخير قبيل الحرب بيسر وكانما بدآ من جديد يتعودان على بعضهما البعض مدركين ماذا ينتظر احدهما من الآخر وملتزمين بالقاعدة القديمة : ما دمتما قد تزوجتما فلا مناص من العيش معا . لم يكن اندرى يلاطف ناستيونا الا ما ندر ، ولكنه قلل من التطاول عليها ، فكانت هى مسرورة لذلك . انهما لا يزالان شابين يافعين ، وسوف يكون كل شيء على ما يرام بمرور الزمن . ولعل الامور كانت ستؤدى الى ذلك ، لولا الحرب التى اندلعت وحطمت آمالا اكبر من تلك الآمال .

استدعى اندرى الى الجيش منذ الايام الاولى للحرب . فبكت ناستيونا وانتحبت طويلا ثم تحلت بالصبر . فهى ليست وحيدة فى المصيبة . والمصيبة اعظم على اللواتى بقين مع اطفالهن . خيل اليها ان عدم وجود الاطفال قد هداها وافادها لاول مرة خلال سنوات زواجها . عبثا كانت تحمل غيظا على مصيرها ، فهو مصير حكيم استشف من زمان بعيد تلك الكارثة التى احدقت الآن بالناس ودبر الامور مسبقا على نحو يساعدها فى تحمل هذه الكارثة لوحدها . وفيما بعد ستنجب الاطفال عندما يطيب الزمان ، فلا يزال فى الوقت متسع . ويا ليت اندرى يعود . عاشت على هذا الامل طوال الحرب ،

عاشت عليه فى تلك الحقبة المرعبة التى لا يعرف احد فيها ما سيعود به الغد .

حالف النجاح اندرى طويلا فى القتال . ولكن اخباره ضاعت فجاة فى صيف ١٩٤٤ . وبعد شهرين وصلت منه رسالة بعثها من المستشفى فى نوفوسيبيرسك وافاد فيها انه اصيب بجرح وانه سيمنح بعد شفائه اجازة لبضعة ايام يقضيها عند الاهل . وكان هذا الوعد هو الذى جعل ناستيونا تمتنع عن السفر لزيارة زوجها فى نوفوسيبيرسك بعد ان عزمت عليه فى بادئ الامر . فاذا منحوه اجازة من الافضل الالتقاء فى المنزل ، وهذا ما علقا املهما عليه . الا ان اندرى كان على خطا . فقد كتب فى اواخر الخريف بايجاز وغضب بانه لن يتمكن من المجئ ، اذ انه سيرسل الى الجبهة مجددا حال مغادرته المستشفى .

ثم ضاعت اخباره من جديد .

قبيل اعياد الميلاد وصل الى اتامانوفكا كونوفالوف رئيس المجلس الادارى فى كاردا ومعه بورداك رجل الميليشيا للناحية ذو الوجه المنمش . عندما بلغا نهر انغارا وجها الحصان الذى يجر زحافتهما نحو منزل غوسكوف مباشرة . ولم تكن ناستيونا موجودة آنذاك . فبادر بورداك ميخيتش سائلا بلهجة صارمة كما فى التحقيق :

– ما الذى تعرفه عن ابنك ؟

عرضوا على بورداك آخر رسالة وصلت من اندرى فقراها وسلمها الى كونوفالوف ليقراها ثم دسها فى جيبه .

– الم يخبركم شيئا عن نفسه غير ذلك ؟

– كلا – قال ميخيتش مرتبكا وتمالك اعصابه اخيرا فسأل : – ماذا حدث له ؟ اين هو ؟

– هذا ما نريد معرفته . لقد ضاع ابنكم اندرى غوسكوف . وحالما تعرفون عنه شيئا خبرونا . مفهوم ؟

– مفهوم .

لم يفهم ميخيتش شيئا . كما لم تفهم سيميونوفنا وناستيونا شيئا .

وفى صقيع اعياد التعميد اختفت الفأس من المخبأ فى ارضية حمام آل غوسكوف .

– اسكتى يا ناستيونا ، هذا انا ، اسكتى .

احتضنتها يدان قويتان غليظتان من كتفيها وضغطتاهـــا الى المصطبة . ندت انة من ناستيونا بسبب الالم والرعب . كان صوته ابح كحشرجة صدئة ، ولكنه بقى محافظا على نامة عرفته منهـــا ناستيونا .

– اندرى ، هذا انت ؟ ! يا الهى ! من اين جئت ؟ !

– من هناك . اسكتى . هل قلت لاحد بانى هنا ؟

– ابدا . فانا نفسى ما كنت اعرف .

لم تر وجهه فى الظلمة . غير ان شيئا كبيرا اشعث بدا امامها ككتلة سوداء مائعة المعالم فى الضوء الخافت المنبعث من زوايـــا ستارة النافذة . انفاسه صائتة متلاحقة ، وصدره يرتفع وينخفض وكانه بعد شوط من ركض سريع . واحست ناستيونا هى الاخرى بضيق الانفاس ، فقد انهال عليها هذا اللقاء بصورة مباغتة لـــم تتوقعها ، وكان واضحا من اللحظات الاولى ومن الكلمات الاولى انه لقاء مسروق فظيع .

ابعد يديه اخيرا وتراجع قليلا . وسال بصوت متقطع مرتاب :

– هل بحثوا عنى ؟

– جاء رجل الميليشيا مؤخرا ومعه كونوفالوف من كاردا ، وتحدثا مع ابيك .

– هل حزر ابى وامى بشانى ؟

– كلا . ابوك يظن ان شخصا غريبا سرق الفاس .

– وانت حزرت ، اليس كذلك ؟

لم يمهلها حتى تجيب فسالها من جديد :

– انت احضرت الرغيف ؟

– نعم .

لزم الصمت قليلا ثم قال :

– ها قد التقينا يا ناستيونا . اقول التقينا – كرر بتحد وكانما ينتظر بفارغ الصبر ما ستقول – لا اصدق بانى اقف قرب امراتـى العزيزة . ليس من صالحى ان التقى باحد هنا ، ولكننى لن اتمكن

من قضاء الشتاء لوحدى . لقد اغريتينى بالخبز – عصر كتفيها مـــن جديد فاحست بالالم – هل تفهمين لماذا جئت الى هنا ؟ تفهمين ام لا ؟

– افهم .

– كيف اذن ؟

– لا ادرى – هزت ناستيونا راسها عاجزة . – لا ادرى يـــا اندرى ، فلا تسالنى .

– لا تسالنى . . . – تلاحقت انفاسه واضطربت من جديد – اسمعى ما اقوله لك يا ناستيونا . يجب ان لا يعرف اى انسـان بانى هنا . واذا اخبرت احدا فساقتلك . ساقتلك فليس لدى ما افقده . تذكرى ذلك . وسوف اعثر عليك اينما تكونين . فقبضتى صارت شديدة ولن اخطىء فى التصويب .

– يا الهى ! ماذا تقول ؟!

– لا اريد تخويفك ، ولكن تذكرى ما قلت . ولن اكـــرر القول . ليس لدى ملجا الآن ، وساضطر الى البقاء هنا ، حواليك . فقد جئت اليك ، اليك وليس الى ابى وامى . ويجب ان لا يعرف احد بوجودى ، لا ابى ولا امى . . . لم اكن موجودا ولا اثر لى . ضاعت اخبارى ، قتلونى على احد الطرق ، احرقونى ، رموا جثتى . انا الآن بين يديك ومصيرى متوقف عليك وحدك ، فاذا كنت لا تريدين تلويث يديك بهذه القضية قولى ذلك فى الحال .

– لماذا تعذبنى ؟ – قالت بأنين – فهل انا غريبة عليـــك ؟ الست زوجتك ؟

كانت ناستيونا فى حالة من الارتباك الشديد . فكل ما قالته وراته وسمعته الآن حدث فى ذهول عميق مكبوت تتجمد فيـــه وتتخدر كل المشاعر والاحاسيس ويعيش فيه الانسان حياة غريبة عليه ، حياة طارئة فرضت عليه فرضا . وفى مثل هذه الحالات يحل الرعب والالم والدهشة والانتباه والاشراق فيما بعد . وقبل ان يستعيد الانسان رشده ويدرك هول ما حدث يقوم على خدمتـــه وحمايته جهاز متين واع يكاد يخلو من المشاعر . كانت ناستيونـا تجيب ولكنها ، وهى خائرة القوى ضعيفة الذاكرة فى هذه اللحظات ، لا تدرك كيف تستطيع الاكتفاء بهذه الكلمات الممجوجة التى لا تعبر

عن شيء بعد ثلاثة اعوام ونصف من الفراق حيث كان كل يوم يهدده بالموت وبعد هذه المشكلة التى انهالت عليهما الآن قاطعة حبل تلك الحقبة المريرة ؟ ولم تكن تفهم لماذا هى جالسة بلا حراك فى الوقت الذى يتعين عليها ، فى اغلب الظن ، ان تقوم بشيء ما ، كان تعانق لاول مرة زوجها الذى كانت تحلم بلقائه كل ليلة . يتعين عليها ذلك . . . الا انها ظلت جالسة كما فى الحلم ، حيث يرى المرء نفسه عن كثب ولا يتمكن من السيطرة على تصرفاته ولا يفعل غير ان ينتظر ما سيحدث . ثم ان هذا اللقاء السرى اليائس فى الحمام فى ظلمة الليل ، دون ان يرى احدهما وجه الآخر ، ولا يستشف ملامحه ، كما يفعل المكفوفون ، الا بهمس مرير لا واع تقريبا وبحذر ورعب – هذا اللقاء العاجز تجاوز حدود الحقيقة والواقع وبدا وكانه من نسج خيال هذيانى ثقيل سيتبدد حالما يبزغ بصيص نور . وليس من المعقول ان يبقى هذا اللقاء حتى الغد او بعد غد او الى الابد ولا ان يسفر عن لقاءات اخرى بنفس هذا القدر من التعاسة والايلام .

مسد شعر ناستيونا بيد ثقيلة مرتعشة . وتلك اول لمسة تشبه الملاطفة . ارتجفت ناستيونا وانكمشت ، وظلت جاهلة بما يجب ان تفعل او تقول . سحب يده وسألها :

– خبريني على الاقل كيف احوالكم ؟

– كنا فى انتظارك .

– لم يطل انتظاركم . لم يطل . ها هو بطل الحرب قد وصل فتلقفيه يا زوجة وتباهى به وافتخرى وادعى الضيوف .

لم يكن هناك داع لمواصلة هذا الحوار . فالمصائب التى انهالت عليهما ، دفعة واحدة ، وشليلة المجاهيل المتشابكة غير المحلولة التى انتصبت امامهما ، هائلة الى درجة تثير الرعب من اية جهة يتناولانها منها . لزما الصمت طويلا ، ثم تذكرت ناستيونا فاقترحت عليه :

– الا تريد ان تستحم ؟

– حبذا – وافق على عجل حتى بدا وكانه سر للاقتراح – لقد سخنت الحمام من اجلى ، انا اعرف . من اجلى ، اليس كذلك ؟

– من اجلك .

– لم اعد اتذكر متى استحممت آخر مرة .

ابتعد عنها واتجه الى المدفاة ، ثم طبطب على الماء فى البرميل ، فقالت دون قصد :

– برد الماء ولا بد .

– لا بأس به .

سمعت ناستيونا كيف عثر ، بالذاكرة ، على المشجب الخشبى قرب الباب فعلق عليه معطفه وخلع جزمته اللباد قرب العتبة ثم خلع ملابسه . واقترب البدن الملتوى الذى لا يرى الا بالكاد من ناستيونا وقال :

– انهضى يا ناستيونا . فلن اتمكن من الاغتسال لوحدى . ساعدينى فى تدليك ظهرى .

سحبها من المصطبة الى الارضية . وفاحت من لحيته التى غرزها فى وجه ناستيونا رائحة الضان فاشاحت بوجهها جانبا دون قصد . حدث كل شيء بسرعة كبيرة فلم تنتبه ناستيونا الا ووجدت نفسها مشعثة مبهوتة ، وقد جلست على المصطبة كالسابق قرب النافذة الموصدة ، وعلى المصطبة الاخرى راح هذا الشخص الذى تكاد لا تعرفه والذى غدا زوجا لها من جديد يغتسل ويتمخط بحذر . ولم تشعر بشيء ، لا بالسلوى ولا بالمرارة ، لا شيء سوى دهشة ضعيفة بعيدة الصدى وخجل مبهم لا تدرى الى مَ تعزوه .

اغتسل واخذ يرتدى ملابسه . فقالت ناستيونا حاملة نفسها على الكلام فى محاولة للتخلص من الشعور بالاغتراب :

– كان يجب ان احضر بياضات على الاقل .

فرد هو قائلا :

– فلتذهب البياضات الى الشيطان . ساخبرك الآن ما احتاج اليه قبل غيره . استريحى غدا ، وبعد غد احضرى بندقيتى طالما لم تنهشنى الوحوش بعد . هل هى سليمة ؟

– سليمة .

– احضريها من كل بد ، واحضرى ثقابا وملحا وقدرا صغيرا للطبخ . فكرى انت فيما هو ضرورى لى . وخذى بارودا للخراطيش من والدى بحيث لا يلاحظ شيئا .

– وماذا ساقول له بخصوص البندقية ؟

– لا ادرى . قولى ما تشائين . فكرى فى حيلة ما . . . وتذكرى من جديد : يجب ان لا يعرف بامرى احد . اطلاقا . لم اكن موجودا ولست موجودا الآن . ولا احد غيرك يعرف بالقضية . . . يتعين عليك ان تطعمينى ولو قليلا . عندما تحضرين البندقية ساحصل على اللحم ، ولكن الرغيف لا يمكن صيده . سأجىء بعد غد فى مثل هذا الوقت او بعده بقليل . ولا تحضرى قبل الاوان ، خذى حذرك كيلا يراقبك احد . يجب ان تنتبهى من الآن فصاعدا .

تحدث بهدوء وبصوت اكثر لينا بعد الاستحمام ، ومع ذلك ظل ينم عن الجزع والقلق .

– تدفأت واغتسلت وحالفنى الحظ بلقاء امراتى العزيزة . وحان موعد الذهاب .

– الى اين انت ذاهب ؟ – سالته ناستيونا فاجاب مدمدما :

– الى اين . . . الى مكان ما . الى اشقائى الاعزاء ، الى ذئاب الغاب . فلا تنسى بعد غد .

– لن انسى .

– انتظرينى هنا ، وبعد ذلك سنتفق بخصوص المستقبل . اذن ، فانا ذاهب ، انتظرى قليلا ، ولا تخرجى من هنا فى الحال .

ارتدى معطفه وصمت ، ثم سألها على حين غرة من العتبة :

– هل انت مسرورة لانى جئت حيا ؟

– مسرورة .

– يعنى انك لم تنسى من انا بالنسبة لك ؟

– كلا .

– من ؟

– زوجى .

– هكذا اذن : زوجك – كرر مؤكدا على هذه اللفظة وخرج .

وفى الحال انتبهت على نفسها دون ان تدرك شيئا : هل صحيح انه زوجى ؟ اليس هو الشيطان ؟ وهل يمكن رؤية شىء فى الظلام ؟ فالشياطين ، كما يقول الناس ، يمكن ان يتحولوا بشكل لا يميزه المرء حتى فى وضح النهار . رسمت على صدرها شارة الصليب كيفما اتفق ، فهى لا تجيد رسم هذه الشارة ، وهمست مبتهلة

بكلمات صلاة منسية تذكرتها من الطفولة . وراودتها فكرة : اليس من الافضل لو كان ذلك هو الشيطان حقا ؟ وتجمد فؤادها لهذه الفكرة التى تفوح منها رائحة الخيانة .

٤

اندرى غوسكوف يدرك ان المصير قاده الى طريق مسدود . لا يزال امامه درب قصير جدا ، على ما يبدو ، وبعده سيرتطم بالجدار ، وليس بالامكان العودة . . . فلا امل فى ذلك مطلقا . كان انعدام طريق العودة بالنسبة لاندرى قد خلصه من التأملات النافلة والتفكير العقيم . فهو مضطر الى العيش بشعار : فليكن ما يكون .

فى هذه الايام الاولى التى عاشها فى البقاع القريبة من مسقط راسه كان اشد ما يؤلمه هو الذكريات : كيف توجه من هنا الى الجبهة قبل ثلاث سنوات ونصف . تماثلت امام انظاره كل الاحداث طوال حوالى اسبوعين من وصول اول نبأ عن اندلاع الحرب حتى وصوله هو الى اركوتسك حيث جرى تشكيل الفرقة التى خدم فيها . تماثلت تلك الاحداث بشكلها الحى الساطع لدرجة جعلته يكاد يفقد رشده لقربها وكانما جرت يوم امس . احتفظت ذاكرته حتى بالمشاعر التى انتابته آنذاك وتكاد تتكرر الآن : فهو اليوم ، يشعر ، كما شعر آنذاك ، بالانصعاق والعجز عن تصور ما سيحدث ، وبتزعزع ما وصل اليه ، وبالغيظ والوحدة والمرارة ، وبنفس ذلك الرعب المتجهم البارد الذى يلاحقه . امور كثيرة ، حتى الحالات النفسية العابرة ، شبيهة بما كان آنذاك ، ولكن بفارق هائل جدا هو ان ذلك كله بدا الآن بالمقلوب ، بباطنه الذى اكده الوضع الحالى ايضا . ها هو الآن هناك حيث بدأ مسيرته ، ولكن على الضفة اليسرى من النهر وليس الضفة اليمنى . حينذاك كان الفصل صيفا ، اما الآن فهو فى الشتاء القارس . حينذاك توجه الى الجبهة ، اما الآن فهو عائد منها ، حينذاك توجه مع الكثيرين ، اما الآن فقد عاد وحيدا بدربه المنفرد الخاص . لقد اقدم مصيره على خطوة مستميتة فاعاده الى مكانه القديم ، ولكن الموت يواجهه الآن بقضه وقضيضه كالسابق ، بيد انه جاء اليه هذه المرة من الخلف كيلا يفلت منه

ابدا . صار يعيش الآن على العموم حياة منفلتة مقلوبة راسا على عقب ، فلا يعرف باى اتجاه ستتجه كل خطوة من خطاه . ويبدو ان حياته هذه لن تخلف اية ذكريات .

كان رجال اتامانوفكا السبعة الذين جندوا فى الوجبة الاولى ، وبينهم غوسكوف ، قد غادروا القرية على خمس عربات خفيفة ، فقد رافقهم عدد من المودعين يعادل عددهم تقريبا . الا ان اندرى ودع اهله فى منزلهم ، فلا داعى لاطالة سكب الدموع والعويل وليس من الحكمة ان يؤذى نفسه عبثا . اذا دعت الضرورة الى بتر شىء فيجب بتره فى الحال . كان يتمنى ان توافيه المنون فى الحال ايضا عندما يحين الموعد (وليس ذلك الموعد ببعيد) دون ان يتشبث بقشة الامل . عانق امه واباه وناستيونا عند الباب وقفز الى العربة واستحث الحصان . عندما اسرعت العربة ضبط نفسه ولم يلتفت . وحين تجاوز المراعى حيث لم تعد اتامانوفكا مرئية سحب العنان وانتظر الباقين كى يتوجهوا بقافلة واحدة .

فى كاردا انتقلوا الى الباخرة التى وصلوها قبيل ان تقلع فهبطت بهم مع التيار الى مركز الناحية ، وبعد يوم واحد سارت الباخرة نفسها فى طريق العودة باتجاه اركوتسك وهى تقل الفريق الذى تجمع من كل ارجاء الناحية . فى الصباح الباكر مروا باتامانوفكا . كانوا ينتظرون المرور بها فلم يغمض لهم جفن . وعلى مسافة ليست قريبة منها راحوا يصيحون ويطلقون اصواتا متنافرة دون ان يفهموا ماذا يصيحون ولماذا يصيحون . الا ان اندرى تطلع الى القرية صامتا ، وبشىء من الغيظ ، فهو الآن مستعد لتحميل القرية ، وليس الحرب ، ذنب اضطراره الى مغادرتها . حقق الرجال هدفهم مع ذلك . فقد هرع اناس الى الضفة وراحوا يصيحون جوابا عليهم ويلوحون بالمناديل والقبعات بيد ان الباخرة بعيدة عن الضفة ، وليس بالامكان معرفة احد او سماع ما يقول . خيل لاندرى انه راى بينهم ناستيونا . لم يكن واثقا من ذلك ، ولكنه غضب : ما الداعى لهذه المهزلة التى لا نفع فيها ؟ توادعنا وقلنا لبعضنا البعض كل ما ينبغى ان يقال ، وكفى . فالحرب لا مرد لها . بيد انه لو كان يعرف حقا ان الشخص الذى اعتبره بمثابة ناستيونا هو ناستيونا بالفعل لربما هان عليه الامر ، غير ان الغضب انتابه

بالذات لانه لم يكن متاكدا من ذلك . كان الغيظ العفوى على كل ما بقى فى المكان الذى انتزعوه منه والذى يتعين عليه القتال من اجله قد ظل ملازما له امدا طويلا ، وهو الذى حمله آنذاك على قطع الوعد الذى تذكره طوال تلك السنين ووفى به الآن غير متعمد . لم يعد هو ، بالطبع ، وفاءا بذلك الوعد ، كلا . بيد ان هذا الوعد ، بعد ان تحقق الآن ، لم يكن يبدو مجرد وعد فارغ منذ البداية ، فقد لاحت فيه قوة مغرية حقيقية هبت لنجدة غوسكوف فى محنته .

سارت الباخرة بعكس التيار ثلاثة ايام بلياليها . وكان ركابها صاخبين انساقوا كليا وراء المرح المرير وهم يدركون جيدا ان هذه الايام هى آخر الايام الطليقة بعيدا عن الخطر . ظل اندرى منزويا ، فهو لم يتعود شرب الفودكا . كان يقف على متن السفينة متجمدا وهو يتطلع طويلا الى الامام . الصيف فى عزه والشمس الساطعة تجوب السماء طوال النهار ، والنهر ينسحب مخلفا رنينا فى الهواء . الباخرة تغذ السير جنب الشواطئ والقرى والجزر المعروفة التى تبتعد رويدا رويدا حتى تختفى . قلب غوسكوف ينكمش ألما وهو يفكر بانه ربما يرى ذلك كله آخر مرة . أليس من الافضل ان يهبط الى الداخل ويلتحق بالآخرين ؟ فليس هو المتألم الوحيد . لعل من الافضل ان ياوى للنوم متوسدا كيسه فيغرق فى النسيان والضياع الى ان توقظه الاوامر . الا انه لم يبرح مكانه فظل يعذب نفسه بالأسى والكآبة ، فينهش فؤاده ويأسف عليه ، وظل يتطلع ويفكر ويتعذب . كلما اطال التطلع كلما صار يدرك بوضوح لا يرحم كيف تجرى مياه انغارا بهدوء ولاابالية ودون اى اكتراث به ، وكيف تنسحب الضفاف التى قضى كل سنوات العمر فيها دون ان تلتفت اليه ، انها تنسحب منزلقة الى حياة اخرى والى اناس آخرين ، الى الذين سيحلون محله . واحس بالغيظ يخنقه : لماذا عاجلتنى المصائب بهذه السرعة ؟ ما كاد يشد الرحال ويتحرك الا وطوى النسيان وصمت القبور كل ما كان عليه وما كان ينوى ان يصير اليه : افلا يعنى ذلك ان قدرك هو الموت ؟ فلتذهب للقائه . وما انت بالنسبة لنا الا انسان هالك . هل صحيح انى انسان هالك ؟ رفض هذه الفكرة متقززا ووعد بصوت مسموع وبعناد شرير ثائر :

– كلا ، ساعيش . لن تدفنونى مبكرا . وسترون بانفسكم اننى ساعيش . ستبقون انتم طبعا ولن يحدث لكم شيء ، فسترون .

فى الجبهة فارقه هذا الامل . فقد اصيب بجرح فى المعارك الاولى . ومن حسن الحظ ان الجرح طفيف ، فقد اخترقت الرصاصة عضلة ساقه اليسرى فعاد الى وحدته بعد شهر وهو يعرج قليلا . كانت فكرة الخلاص آنذاك خالية من اى معنى . ولم يكن هو الوحيد الذى اخفى تلك الفكرة فى اعماق دخيلته حتى انه لم يعد يعرف على الدوام ما اذا هى موجودة لديه ام لا ، كى يحميها ولا يعرضها للخطر . ما اكثر حالات الموت التى شهدها حواليه . انها كثيرة لدرجة جعلته يعتقد ان موته هو محتم ، فان لم يقع اليوم ، سيقع غدا ، وان لم يقع غدا فسيقع بعد غد ، عندما يحين دوره . ان حياة السلم هنا ، فى الحرب ، اذا حالف الحظ شخصا بالتمتع بها ، لا بد وان تبدو حياة ابدية . فمن الغريب ان يفكر المرء بانها يمكن ان تستمر عاما بعد عام ، لعقود من السنين كما لدى الاشجار او الصخور : فللزمن هنا ابعاد اخرى ومقاييس اخرى .

حالف الحظ اندرى غوسكوف امدا طويلا . وذات مرة فقط قبل ان يغادر الجبهة اخفق فى الصيانة فوقع تحت قصف القنابل واصيب بهزة شديدة . ادت موجة الانفجار الى صممه فظل اسبوعا تقريبا لا يسمع شيئا على الاطلاق ، ثم استعاد سمعه بالتدريج . وخلفت تلك الهزة ذكريات مضحكة مبكية : استولت عليه ، هو الاصم ، فى المستوصف ، شهية فظيعة . كان ، كذئب جائع ، يريد طعاما فى كل دقيقة . وقد واجه مختلف المتاعب بين الحين والآخر بحثا عن الطعام . فهو لا يسمع نفسه ويعتقد بان الآخرين ايضا لا يسمعونه . وغدا ذلك سببا فى فضيحته عندما راح يتسلل الى المطبخ كى يحصل على ما يؤكل . وعندما يطلب وجبة اضافية كانوا يجيبونه بمختلف الاجوبة التى تضحك سائر المرضى ، اما هو فلا يسمع منها شيئا .

فى غضون ثلاث سنوات تمكن غوسكوف من القتال فى كتيبة التزلج بالاسكى وفى سرية للاستطلاعات وفى بطارية للهوتزر . وتسنى له ان يجتاز كل المحن : هجمات الدبابات واقتحام مواقع الرشاشات الالمانية وحملات الاسكى الليلية وتصيد الاسرى المرهق

الذى يستغرق وقتا طويلا وجهدا كبيرا . لم يتعود غوسكوف على الحرب وما كان بوسعه ان يتعود عليها . كان يحسد الذين يتقحمون المعركة بنفس الاطمئنان والبساطة اللذين تعودوا عليهما اثناء الذهاب الى العمل اليومى . ولكنه حاول هو ايضا ، وعلى قدر الامكان ، التكيف للحرب ، فليس لديه مخرج آخر . لم يكن يسبق الآخرين ، ولكنه لم يختف وراء ظهورهم . فهذا شيء لا بد وان يراه الجندى ولا بد ان يرد عليه فى الحال . ثم انه لا مجال للمراوغة والتحايل عموما اثناء «الاستطلاع» حيث تهجم مجموعة من خمسة او ستة اشخاص على خندق المانى ، ففى هذه الحال اما النصر واما الموت ، واذا تلكأ المرء وحاول ن يحافظ على حياته فانه يهلك نفسه ويهلك جميع رفاقه . كان الاستطلاعيون يعتبرون غوسكوف رفيقا امينا ، فاكثرهم استبسالا ياخذونه معهم كمقاتل اضافى لحماية بعضهم البعض . حارب كالآخرين لا افضل ولا اسوأ منهم . وكان الجنود يقدرون فيه قوته البدنية ، فهو قصير القامة مفتول العضلات قوى البنية . انه يحمل الاسير المصاب او العنيد على ظهره ويوصله الى الخنادق السوفييتية دون تردد . خدم غوسكوف فى ارجاء مختلفة من الجبهة . ففى كتيبة التزلج قاتل فى ضواحى موسكو شتاءا ، واثناء الربيع قاتل فى السرية الاستطلاعية بمنطقة سمولينسك ، وقاتلت بطاريته فى ستالينغراد بعد الهزة التى اصيب بها . وتحسنت الاحوال هنا فى المدفعية البعيدة المدى بعد الشروع بالهجوم .

فى شتاء ١٩٤٣ لاحت بوادر نهاية الحرب . وكان الامل فى البقاء على قيد الحياة يزداد كلما اقتربت الحرب من نهايتها . لم يعد ذلك الامل خفيا خجولا ، بل صار صريحا مقلقا . فما اعظم ما تحمله اولئك الذين قاتلوا وصمدوا منذ الايام الاولى للحرب . بودهم ان يؤمنوا بان تسامحا خاصا يجب ان يفرده المصير لهم وبان الموت يجب ان يتراجع عنهم طالما تمكنوا من اتقاء شره حتى الآن . وهنا ، فى الحرب ، خيل اليهم انه توجد برهة تجريبية للخلاص : ما دمت لم تمت بعد فعش اذن . وفى بعض الاحيان ، فى لحظات اليسر والهدوء تراود غوسكوف ثقة سعيدة بانه لن يحدث له مكروه بعد الآن ، وانه سيسير ، كما هو الآن ، رويدا رويدا دون جهد كبير

حتى يصل بعد المعاناة الى ذلك اليوم الاخير الذى دفع ثمنه عشرات الاضعاف ، ذلك اليوم الذى تضع الحرب فيه اوزارها ويتوجهون هم الى ديارهم . بيد ان تلك اللحظات الوضاءة المشمسة كانت تتلاشى ، وعند ذاك يتسلل الرعب على نحو غير ملحوظ : فالآلاف المؤلفة من الذين يدارون نفس هذا الامل كانوا يستشهدون على مراى منه يوما بعد يوم وهو يدرك بانهم سيظلون يستشهدون حتى آخر ساعة من الحرب . فمن اين يجيئون اذا لم يكن من الاحياء ، منه ومن غيره ؟ فهل هناك امل يا ترى ؟ انساق غوسكوف للرعب والهلع ولم يعد يرى املا بالنجاة ، فراح يفكر بحذر فى امكانية اصابته بجرح – طفيف طبعا – من اجل ان يكسب الوقت لا غير .

بيد ان غوسكوف اصيب بجرح غير طفيف اطلاقا فى صيف عام ١٩٤٤ عندما ظهرت الدبابات الالمانية مباشرة امام بطاريته المغلفة استعدادا للانتقال الى مكان آخر . ظل مغميا عليه طوال يوم كامل تقريبا . وعندما استعاد وعيه وتأكد من انه سيبقى على قيد الحياة هدأ وعلل النفس بان واجبه الحربى انتهى . فليحارب الآخرون الآن . كفاية . لقد ادى ما عليه واكثر . ولن يشفى فى القريب العاجل ، وفيما بعد ، عندما سينهض على قدميه لا بد وان يحصل على اجازة . تلك هى الخاتمة ، سواء كانت سيئة او حسنة . لا فرق . المهم انه حى يرزق .

رقد اندرى غوسكوف فى مستشفى نوفوسيبيرسك زهاء ثلاثة اشهر . لم يلتئم جرح صدره طويلا بعد ان انتشلوا منه الشظايا مرتين . وبعث له اهله طردا ثم آخر لتقوية بدنه . ورجته ناستيونا ان يسمح لها بزيارته ، ولكنه فكر بان لا داعى للسفر وانفاق تكاليفه . فهو سيصل بنفسه قريبا . وايده جيرانه ، جنود الردهة ، فى فكرته هذه فعززوا ثقته . فالجرحى يعرفون مسبقا من الذى سيتوجه الى البيت نهائيا بعد المستشفى ، ومن الذى سيحصل على اجازة قصيرة ، ومن سيعود الى الجبهة . وافادت حساباتهم بان غوسكوف سيحصل على اجازة لمدة عشرة ايام فى اقل تقدير . فانتظروا . انتظرى يا ناستيونا ! ولم يعد يصدق الآن بانه كان يهينها لاتفه الاسباب . فلا يوجد فى العالم كله شخص افضل منها . سيعود وسيعيشان اروع عيشة . وسيحل بعد الحرب عالم

آخر للجميع ، للجميع ، ولهما على الخصوص . لم يكونا يفهمان شيئا قبل الحرب ، عاشا دون ان يقدرا ويحبا بعضهما البعض . فهل يجوز ذلك ؟ !

بيد انه صعق فى تشرين الثانى ، عندما اقترب موعد الخروج من المستشفى ، ذلك الموعد الذى انتظره بفارغ الصبر وكان يلعق جراحه من اجله . فقد امروه بالالتحاق بالوحدة ، بالوحدة وليس بالذهاب الى البيت . كان واثقا من انه سيتوجه الى البيت حتى عجز عن فهم الاوامر وتصور بان هناك خطأ ، فراح يراجع الاطباء ويجادلهم وينفعل ويصيح . ولم يكن احد يريد الانصات اليه . كانوا يقولون بلهجة قاطعة : بوسعك ان تحارب . اخرجوه من المستشفى بعد ان ارتدى ملابسه وسلموه هوية الجيش وبطاقة الارزاق ، وكانهم يقولون : هيا ، يا اندرى غوسكوف ، إلحق ببطاريتك ، فالحرب لم تنته بعد .

واستمرت الحرب .

كان يخشى الذهاب الى الجبهة . ولكن هذا الخوف اقل من الغضب والغيظ على كل ما يجعله يعود الى الجبهة من جديد دون ان يزور اهله . فقد استعد بكليته ، بكل جوارحه بكل فكرة من افكاره ، للقاء اهله ، للقاء ابيه وامه وناستيونا . عاش من اجل ذلك ، وشفى وتعافى وتنفس من اجل ذلك ، وما كان يعرف شيئا غيره . فليس من الجائز الاستدارة باقصى السرعة ، ذلك يودى بالمرء الى التهلكة . وليس بامكان المرء ان يتجاوز نفسه . كيف يجوز له ان يعود من جديد الى الرصاص ، الى الموت ، فى حين انه موجود فى ارضه ، فى سيبيريا ؟ ! فهل فى ذلك شىء من الصواب او العدل ؟ انه بحاجة الى يوم واحد لا اكثر كى يزور اهله ويطفئ غليله ، وبعدئذ سيكون مستعدا من جديد لتحمل الاعباء .

ثم انه لم يسمح لناستيونا بزيارته ، يا له من احمق ! لو كان يعلم بالنتيجة مسبقا لدعاها بهذه المناسبة ، ولرآها فهونت عليه . ولودعته ولكان فى وداعها مزيد من الامل . فمصير الانسان يكاد يمتلك عينين تريان عند السفر ما اذا كان هناك شخص ينتظر وتجب العودة اليه ام لا . الا ان كل الامور سارت عكس ما يتمنى .

واذا استمر الحال على هذا المنوال فلن يطول به حبل البقـــاء ، وسوف يردى قتيلا فى اول معركة .

صار يعتقد ان المسؤولين فى المستشفى يمثلون ارادة غيبية قاسية لا تتمكن القوى البشرية من السيطرة عليها ، كما لا يمكن ، مثلا ، درء الزوبعة او ايقاف تساقط البرد . فقد قرر احد الالهة ، وهو الاله الاكبر ، دون تمحيص او تمييز ، واضطر سائر الآلهة على الموافقة . ولكن اندرى انسان من لحم ودم فلماذا لم يراعـوا هذه الحقيقة ؟ صحيح ان احدا لم يعده بشىء ، فقد خـدع نفسه بنفسه . ولكن اولئك المسؤولين منحوا جنودا غيره اجازات . فهو يعلم انهم منحوا البعض اجازات ورأى ذلك بنفسه ، فكيـف لا ينخدع ؟ !

هل يتوجب عليه حقا ان يعود الى الجبهة ؟ اهله قريبون مـن هنا ، قريبون جدا . فليتوجه اليهم ، وليكن ما يكون . عليـه ان ياخذ بنفسه ما انتزع منه . خالف البعض الاوامر ولم يتعرضـوا للعقاب . لقد سمع بحالات من هذا النوع . فلماذا يتعرض هـو للعقاب ؟ واذا كان سيعاقب فهذا ما يستحقه . فهل هو انسـان حديدى . حارب اكثر من ثلاثة اعوام . فالى متى يمكنه ان يحارب ؟

فى المحطة فوت قطارا ، ثم فوت قطـارا آخر . . . افكاره مشوشة متشابكة ، وهو لا يعرف ما العمل . وانتابه الغيظ لدرجة اكبر لانه لم يتمكن من التصميم على شىء وضيع الوقت سـدى . عندما وقف فى الطابور لاستلام الارزاق بالبطاقة تحدث مع جندى دبابات مرح قصير القامة يرتدى خوذة ويستند الى عكازين وساقه اليمنى معقوفة ومضمدة بلفافات سميكة . كان جندى الدبابات متوجها الى مدينة تشيتا شرقا . فسأل من غوسكوف :

– وانت الى اين مسافر ؟

اجاب غوسكوف دون سابق تفكير :

– الى اركوتسك .

فقال جندى الدبابات مسرورا :

– سنسافر معا باتجاه واحد .

ساعد غوسكوف رفيقه فى الصعود الى عربة القطار المتجه الى الشرق وقفز هو الى العربة ايضا فى آخر لحظة . فليكن ما يكون .

واذا قبضوا عليه سيدعى بانه مسافر الى كراسنويارسك فقط ، ومنها الى اركوتسك حيث ينوى العودة بعد يومين او ثلاثة . وسوف يتخلص من العقاب ، فليس فى ذلك جريمة لا تغتفر . فى بعض الاحيان ، عندما يفكر غوسكوف فى تصرفه هذا ، كان يريد لهم ان يقبضوا عليه ويعيدوه . ولكن الحظ يحالف البعض فى مثل هـذه الحالات ، فلم يوقفه احد . القطارات غاصة بالناس كالسابق واغلبهم من العسكريين المتعجرفين الذين ليس من السهل الاقتراب منهم .

بيد ان غوسكوف عندما وصل الى اركوتسك بعد ثلاثة ايـام ارتعب حقا . فاذا واصل السير لن يكفيه يوم او يومان . فالوقت شتاء . اما العودة من منتصف الطريق فهى غير واردة ، والا فلماذا اقدم على ذلك وعذب نفسه وجازف ؟ ولماذا الح واصر ؟ وما الذى اراد ان يثبته ؟ ثم الم يفت اوان العودة ؟ تذكر غوسكوف الاعدام رميا بالرصاص الذى شاهده فى ربيع عام ١٩٤٢ حالما التحـق بالاستطلاعات . فى فسحة واسعة كالحقل اصطف فوج واخرج منه اثنان ، احدهما رجل فى زهاء الاربعين بيد مضمدة ، وقد جرح نفسه بنفسه ، والآخر لا يزال فى ريعان الصبا . وكان هذا قد صمم هو ايضا على الهرب الى اهله ، الى قريته التى تبعد ، كما قيل ، زهاء خمسين كيلومترا . خمسـون كيلومترا لا غير . اما هـو غوسكوف ، فما ابعد المسافة التى قطعها ! كلا ، لن يتسامحـوا معه . حتى كتيبة الجزاء لا تكفى . فهو ليس صبيا ، وعليـه ان يفهم عاقبة ما اقدم عليه .

تذكر ايضا الحقد والاشمئزاز اللذين نظر بهما الجنود الى ذلك الذى جرح نفسه . كانوا آسفين للغلام ، اما هو فلا . وكـرروا قائلين : «حقير ! اراد ان يخدع الجميع» .

ولكن ما هى ميزة غوسكوف على الآخرين ؟ هل هو افضل منهم ؟ لماذا يتوجب عليهم ان يقاتلوا فى حين يرتحل هو ذهابا وايابا ؟ هكذا سيفكرون ، وهذا ما سيجرمونه به . فالانسان فى الحرب ليس حرا فى التصرف بنفسه ، اما هو فقد تصرف . وواضـح ان احدا لن يتسامح معه على تصرفه هذا .

فى اركوتسك ، عندما كان يجوب محطة القطار متحيرا ، صادف امراة ماكرة واسعة العينين وافقت على استضافته فاصطحبتـه الى

احدى الضواحى بعيدا عن المدينة . وادركت بحدس داخلى ان الجندى لا يدرى اين يولى وجهه فبعثته فى الصباح الى امراة خرساء اسمها تانيا ، وهى ليست فى مقتبل العمر ولكنها نظيفة انيقة . صرف النهار كله عند تانيا فى ذهول ورعب ، وكان ينوى النهوض والتوجه الى جهة ما ، ولكنه صرف عندها يوما آخر ، ثم حط الرحيل هناك على العموم معتقدا بان من الافضل له ان ينتظر حتى تضيع آثاره نهائيا عند اهله وفى الجبهة .

كانت تانيا الخرساء تعيش فى منزل صغير على طرف الضاحية . وتعمل كناسة فى المستشفى ، حيث تتردد عليه مرتين فى اليوم — صباحا ومساءا وتحضر قطعا من الرغيف ملفوفة فى منشفة ، وعصيدة او مرقا فى علبة زجاجية . ومن حسن الحظ انها لا تحتاج الى اية تفسيرات ، بل ولا الى الكلام عموما . لقد حالفه الحظ فى لقاء مريح وموفق الى حد مدهش مع امراة حرمتها الاقدار من موهبة الكلام . فليس لدى اندرى ما يقوله حتى لنفسه . فى بعض الاحيان يستولى عليه النسيان فلا يفهم السبب من وجوده فى هذا المنزل وما الذى جاء به الى هنا ، ثم يرى فجاة وبمنتهى الوضوح كل خطوة خطاها نحو القطار وكل ساعة قضاها فيه فيحز ذلك فى نفسه ويحطمها تحطيما . كان لا يزال عاجزا عن التخلص من هول ما حدث ، فتارة يظل جالسا بلا حراك امدا طويلا يحدق بنظرة خاوية فى نقطة ما ، وتارة يفقد سيطرته على اعصابه فيجوب الغرفة فى محاولة لقطع دابر الالم الذى داهمه . المنزل الصغير يهتز من خطاه الثقيلة ، اما هو فيجوب الغرفة من ركن الى ركن دون ان يقر له قرار . وذات مرة مل من نفسه فجاة وكرهها مدركا جيدا ان المشاكل الناجمة عن الحالة التى وقع فيها لا عد لها ولا حصر .

ظل هذا الشعور ، او على الاصح هذا الهاجس ، هذا الموقف من نفسه ، ملازما له لا يبرحه امدا طويلا .

كانت تانيا امراة رقيقة عطوفا للغاية . وهى لا تعانى من بكمها ولا تكن غيظا على الناس ولا تتحاشاهم . لم يلاحظ غوسكوف طوال مكوثه عندها انها كانت متجهمة يوما او متذمرة . لم يكن المرح يعلو محياها ، بل الاطمئنان والطيبة . فهى مستعدة للابتسام فى اية لحظة . وخيل لغوسكوف ان بكمها ثواب لها وليس جزاءا . ومنذ

اللحظة الاولى لم يتخلص غوسكوف من تصوره بانها تعرف كل شىء عنه . تعرف كل شىء وتاسف له . وخيل اليه كذلك انه حل على تانيا ليس بارادته ، بل قادته اليها يد موجهة آمرة . ولكن لاى سبب ؟ الاجل مساعدته ام لاجل هلاكه بحذر وبالتدريج ؟

تانيا تعود من العمل فتخرج علبتيها وصرتيها وتجلس قبالة غوسكوف تنظر اليه بنهم وبحب استطلاع وتراقب بارتياح كيف يتناول طعامه . وبعد الطعام يشكرها بان يطبطب بخفة على كتفها كما لو كانت رجلا . فتشعر بالسعادة والفرحة لهذه الملاطفة الخشنة وتتلقف يده فتضغطها على وجنتها ثم تومئ له بشىء ولكنه لا يفهم . انها تتحدث معه بلغة الاصابع متحمسة مستعجلة ، ولكنه يهز راسه ويشيح بنظرته عنها . وعند ذاك تسعى الى ارضائه فتترك محاولة الكلام بالاصابع وتمد له يديها معتذرة .

وبمرور الزمن تمكنت تانيا من جعل غوسكوف يتفهم الكثير من اشارات اصابعها . علمته ذلك بنفس القدر من الحب والصبر اللذين يجرى بهما تعليم الطفل الكلام . بيد انه لم يشعر بالارتياح لهذه الابجدية البكماء ، فصار يتحاشاها على قدر الامكان . لم يكن ينوى البقاء هنا امدا طويلا . وفى الليل عندما تلتصق به تانيا يعتقد جادا بانه يسمع همسها الخائر المشجع ، يسمع نفس الكلمات التى تندفع من حناجر جميع النساء فى مثل هذه الحالات . فيلوذ بالصمت والسكون منتظرا متفحصا ، ثم يتاكد من انه مخطئ فى هواجسه ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع التخلص من تصور خبيث يقول له ان تانيا تتظاهر بانها خرساء .

ثم انه هو شخصيا ، لا احد يعلم الآن من هو شخصيا . لقد تحول كل شىء فيه وانقلب وتعلق فى الفراغ . ارتحل لامد قصير فحط الرحال لامد لا نهاية له ، كان يفكر بناستيونا فوجد نفسه فى احضان تانيا . اما ما تبقى فالتفكير فيه مرعب فظيع . فما من احد يتجرع مرارة عواقبه ، وما من توبة تغنى عن العقاب .

بعد شهر لم يعد يطيق البقاء هنا . فهو مستعد لتقبل الموت على ان لا يبقى هنا . وفى الهزيع الاخير من احدى الامسيات ، عندما كانت تانيا تمارس كنس المستشفى ، هرب منها . ولم يكن امامه طريق للعودة ، فلا طريق هناك الا صوب الديار .

عندما غادر اركوتسك كان حذرا للغاية . فلم يسمح لنفسه بالظهور فى القرى نهارا كيلا يصادف احدا . فهو ينتظر ويصرف النهار فى الارياف والاكواخ الشتوية المهجورة ويبادر الاعشاب المجففة ، ويتفحص كل شخص من بعيد ويخشاه ويسب ويشتم بصوت مكتوم ، ويتجمد ويلعن نفسه . اما فى الليل حيث يعم الهدوء فيطلق العنان لنفسه ويطلق ساقيه للريح . ومن حسن الحظ ان الليل لا يزال طويلا والنهار قصير .

واخيرا ، وصل فى احدى ليالى التعميد الى اتامانوفكا ، توقف عند طرفها العلوى والقى بنظرة مرهقة متعبة على سطوح المنازل البيضاء المنتصبة على صفين . لم يتحسس اية مشاعر من لقائه بقريته ومسقط راسه ، فهو عاجز عن الاحساس بشىء . ظل واقفا برهة قصيرة ، ثم هبط الى نهر انغارا وسار على جليده دون ان يرى القرية الراقدة على ضفته العالية حتى وصل الى حمام منزله . وحالما دخل الحمام واغلق الباب هوى على الارضية وظل امدا طويلا راقدا بلا حراك كجثة هامدة .

وعند الفجر كان يجرجر ساقيه الى الشاطئ الثانى من انغارا وعلى كتفه خشبتا الاسكى ومن حزامه تتدلى الفاس .

وجد اندرى غوسكوف مخبأ له فى كوخ شتوى قديم قرب جدول فى مقاطعة اندرييفسكويه . نظف الفرن الحجرى الذى لم تمسه يد من زمان بعيد واعد شايا فى الزمزمية وتدفأ لاول مرة بعد ايام عديدة من الحياة السائبة كحياة الذئاب . بعد نصف ساعة اخذ بدنه يرتعش بشدة فاحس من يديه ورجليه انه يهتز ولا يقر له قرار . فلربما استوعب بدنه فى الحال قدرا كبيرا من الدفء بعد برد طويل ، ولربما بدت آثار التوتر العصبى والانتظار المتواصل لهذه اللحظة التى يتمكن فيها اخيرا من الارتخاء والاستجمام دون ان تحملق عيناه وتنتصب اذناه حذرا فى كل لحظة .

اختار هذا الكوخ بالذات منذ ان كان فى اركوتسك يطيل التفكير فى المأوى الذى يلجأ اليه قرب اتامانوفكا . فليس هناك

افضل منه موقعا ، حيث يتواجد فى منخفض عميق يلتف وراء الهضبة فلا يرى منه الدخان مهما احرق من احطاب . زد على ذلك ان الجدول قريب على بعد خطوات منه ، فيمكنه ان يصل الى مخبأه على جليد الجدول دون ان يخلف اثرا لقدميه .

ليس فى الامر حيلة . فهو مضطر الآن للتفكير بذلك قبل غيره . المكان مريح ، بالطبع ، لانه وراء نهر انغارا ، فما كان احد فى السنوات السابقة يعرج عليه ، فكيف يفكر احد بالوصول اليه الآن ؟! وحتى مراقب العوامات ليس لديه ما يفعله وراء الجزيرة ، فالبواخر تسير عادة فى الفرع الايمن الواسع .

حقول ومزارع اهل اتامانوفكا واقعة منذ القدم على ضفتهم ، فهى هناك تفيض عن حاجتهم . واماكن القنص وصيد الاسماك وغيرها من الصنائع متواجدة ايضا على مقربة منهم ، فهم يعتبرون الاراضى المنبسطة حتى نهر لينا اغنى من غيرها بالوحوش واللوز والثمار ، ولذا ما كانوا يعبرون النهر الا فيما ندر . ولكنهم يحشون اعشاب الجزيرة المقابلة للقرية ويجمعون ثمارها فى الوقت ذاته .

الا ان نازحا اسمه اندرى سيفى وصل مع ابنيه الى اتامانوفكا من اواسط روسيا قبل الحرب اليابانية الروسية . تفحص تلك البقاع وفكر كثيرا ، ثم اختار بقعة لاستثمارته وراء النهر ، مما اثار دهشة الفلاحين المحليين . انشأ لنفسه منزلا ، كسائر الناس ، فى القرية نفسها ، اما الاراضى البكر لاجل الفلاحة فقد اختارها هنا . ولم يكن بحاجة الى اجتثاث قرم وجذور كثيرة ، فالفسحات والمساحات الصالحة للزراعة متوفرة بالقدر الكافى .

بنى كوخين شتويين من جذوع الاشجار احدهما عند الجدول قرب المروج والثانى على مرتفع يبعد زهاء كيلومترين عن الاول ، ونظم استثمارته افضل تنظيم .

ومنذ ذلك الحين صارت هذه البقاع تسمى بمنطقة اندرييفسكويه تيمنا باندرى سيفى .

توفى سيفى فى بداية عهد اشاعة التعاونيات الزراعية ، ولم يعد احد ابنيه من الحرب الاولى مع المانيا ، اما الآخر فقد صودرت املاكه فى عام ١٩٣٠ مع من صودرت اموالهم من برجوازية الريف

ونفى مع عائلته الى مكان ما . ولذا فلم تتعمق اصول النازح اندرى سيفى فى الاراضى الجديدة .

هجرت التعاونية الزراعية حقوله كما كان متوقعا . فهل من المجدى ارسال الكادحين فى الربيع والصيف والخريف الى تلك البقاع الخالية من اجل بضعة هكتارات ؟ وهل من المجدى ارسال المباذر والحاصدات لهذا الغرض عبر النهر وتشغيل عبارة ؟ حقا ، فهل من المجدى ذلك ؟

وها هو اندرى غوسكوف يذكر بكلمة طيبة المرحوم اندرى سيفى الذى ترك له مأوى مريحا ومأمونا من جميع الوجوه .

واذا طال امد بقائه هنا فان الكوخ السفلى يصلح حتى الصيف فقط ، ثم يتعين عليه الانتقال الى الكوخ العلوى او الى مكان آخر اذا عنّ لصياد سمك او لأى شخص مغامر ان يعرج عليه .

وعزم فى الحال على التوجه غدا الى الكوخ العلوى فى جولة تفقدية . الاسكى تحت تصرفه . وعليه ان يتوجه الى الامام على جليد الجدول ثم يقوم بدورة على الاسكى فيصل الكوخ من الطرف الآخر . فاذا كان المرء يريد ان يعيش يتعين عليه ان يدبر اموره بشكل ما ويتفقد ما لديه وما سيبدأ به حياته الجديدة . حبذا لو حصل على بندقية . ولا بد له من الالتقاء بناستيونا ، فليس لديه غيرها . وسوف يروح فى داهية ان هو بقى لوحده .

فكر فى ذلك كله بفتور وخف ارتعاش بدنه فدس المزيد من الحطب فى الفرن ورقد على التخت وطوى الليل بالنهار فى نوم عميق حتى صباح اليوم التالى .

٥

فى المساء بدأ الاكتتاب على سندات الدولة لدعم المجهود الحربى فى وقت مبكر جدا هذا العام . اقتنت ناستيونا سندات بالفى روبل . وذلك مبلغ لم يكتتب بمثله احد فى القرية سوى اينوكينتى ايفانوفيتش . بيد ان اينوكينتى ايفانوفيتش ، كما يعلم الجميع ، يمتلك نقودا لا تعد ولا تحصى ، ولذا سماه اهل القرية بابى جيب . اما ناستيونا فلم تكن حتى لتتصور كيف ستدفع هذا

المبلغ الكبير . مرض ميخيتش او ادعى بانه مريض فحضرت ناستيونا اجتماع الاكتتاب بدلا عنه ، فى حين ان احدا لم يعلن مسبقا عن الغرض من الاجتماع . وها هى الورطة قد حدثت . امتدحها المفوض واستغرب الحاضرون من تصرفها ، اما هى فقد ارتعبت من شجاعتها . ولكن سبق السيف العذل . فالكلمة ليست عصفورا ، واذا انفلتت فلن تمسك بها . لم يكن هناك مجال للتراجع . وسمعت ناستيونا من دخيلتها صوتا متفهما هداها وقال لها : حسنا فعلت . وما دامت قد تبرعت فلديها دافع يحثها على ذلك ، ولم تتصرف اعتباطا . لعلها كانت تريد فدية زوجها بسندات دعم المجهود الحربى . يبدو انها لم تفكر به فى تلك اللحظة ، ولكن الا يستطيع احد غيرها ان يفكر على هذا النحو .

حالما دخلت المنزل وتفوهت بكلمة عن الاكتتاب بادرها ميخيتش سائلا :

— بكم ؟

— بالفين .

رفع رأسه عن العمل الذى انهمك فيه وهو جالس على المصطبة وسأل دون ان يصدق ما سمع :

— لماذا تمزحين معى يا بنية ؟

— انا لا امزح . . .

— ماذا ؟ هل جننت ؟ ام ان عندك الفين ، آ ؟ ربما تخبئينها ، آ ؟

— كلا .

— بم كنت تفكرين اذن ؟ من اين تنوين الحصول على تلك النقود ؟ ربما تريدين ان تبيعينى او تبيعينها — واوما الى سيميونوفنا الراقدة على دكة الفرن الحجرى — لن يأخذنا احد ولو مجانا .

— قالوا هذا آخر اكتتاب . من اجل النصر .

— من اجل النصر . . .

تململت سيميونوفنا على دكة الفرن واشرأبت بعنقها متسائلة :

— ماذا تقول ؟

— تقول اننا صرنا اغنياء فجأة . واننا جمعنا نقودا كثيرة ، كثيرة جدا ولا ندرى ماذا نفعل بها .

انزوت ناستيونا فى ركنها المعزول بستارة قطنية والذى كان بمثابة غرفة نوم لها مع اندرى ، حيث لا يزال سريرها موجودا . كانت تعرف ان ميخيتش يشتاط غضبا ثم يهدأ ، اما حماتها فعندما تفهم المشكلة ستثور لامد طويل ، اذ ان طاقتها فى هذا المجال تكفيها لشهر او اكثر . فليذهبا الى الشيطان . ستدفع هى تلك النقود بشكل ما ، وستفكر بحل فيما بعد . ثم ان هذا الاجتماع ليس الاخير . . . ولكنها حصلت بفضل الاكتتاب على حق السفر الى كاردا غدا . وصارت تلك النقود بمثابة ورقة رابحة لها ، فبدونها ما كانت لتستطيع ، طبعا ، ان تحصل على هذه الفرصة .

كانت تقديراتها صائبة . فبعد الاجتماع رات نسطور ، رئيس التعاونية ، راضيا عن الاكتتاب ، حيث كانت القرية على مستوى المبلغ المطلوب منها ، وتوجهت نحوه بابتسامة سعيدة وقالت بشىء من الاحترام والتزلف :

– يا نسطور ايليتش ، من الذى سيوصل الرفيق المفوض غدا ؟

تطلع اليها نسطور بنظرة خبيثة متفهمة وخاطب المفوض قائلا :

– يا رفيق ! فتاتنا الطليعية اعربت عن رغبتها بمرافقتك غدا الى كاردا . فهل لديك مانع ؟

اقترب المفوض ، وهو رجل قمىء مدعوك اللباس وكانه جهاز مستهلك . وعلى راسه نتف متناثرة من الشعر هنا وهناك . تمتم وهو يتطلع الى عينى ناستيونا :

– اى رجل يمكن ان يكون لديه مانع ؟ واقول صراحة اننى لم اكن حتى لاحلم بمثل هذه الرفقة .

طبطب نسطور على كتفه كما لو كان صديقا حميما وقال غامزا بعينه لناستيونا :

– ارجوك اطلق سراحها بعد ذلك لتعود الينا ، فالعمل كثير ولا احد عندنا .

غدا ستتوجه الى كاردا . ويتعين عليها ان تخبر ميخيتش بهذا النبأ . ولكن من الافضل تاجيله الى صباح الغد ، فاليوم يكفيه

نبأ الالفين . يا الهى ، اية حياة بدات الآن ؟ وماذا سيحدث لهما ؟ ! ماذا سيحدث ؟ !

. . . فى الليلة التى اتفقا عليها فى اللقاء الاول احضرت ناستيونا البندقية لاندرى . وعثرت على الخراطيش ايضا ، لكن ميخيتش لم يكن يمتلك بارودا ، وكل ما وجدته لا يكفى لخرطوشتين او ثلاث . وهذا قليل ، بالطبع ، كما قال اندرى ، ولكنها خشيت من استعارة البارود من اهل القرية ، فهم لا بد وان يخبروا حماها فى الحال ، وستثور ثائرته . القرية صغيرة والكل يعرفون من الذى طلب ملحا يوم امس من جاره ومن استعار رغيفا قبل ان يخبز خبزه . انتزعت ناستيونا خفية ، ودون علم ميخيتش ، البندقية المغطاة بالالبسة من على جدار العنبر ، واذا عرف بذلك فالله وحده يعلم بما سيحدث . انها ، الآن ، لا تريد حتى مجرد التفكير بذلك .

هذه المرة ، فى الحمام ، كان اندرى يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه فى المرة الاولى . فلم يحاول تخويفها ، ولم ينتفض بسبب اى صوت يسمعه ، بل جلس صامتا ذاهلا منسحقا ، جلس ولم يتمكن من ان يقول شيئا . شعرت ناستيونا باسف شديد عليه حتى كادت تنتحب . وحينما هم بالانصراف كشف لها عن مكنون صدره :

– عندما تجدين فرصة تعالى الى فى اندرييفسكويه . فانا فى الكوخ السفلى . – ورجاها بصوت مرتجف : – تعالى ، يا ناستيونا ، انا انتظرك . ولكن بشرط ان لا يراك احد .

قدموا للمفوض حصانهم الممتاز كاركا الذى يستخدمه عادة نسطور نفسه . شدت ناستيونا زحافة رئيس التعاونية الى الحصان ووضعت فيها شيئا من القش الجاف واقتادت كاركا نحو منزل نسطور الذى قضى فيه المفوض ليلته . كانوا قد جلسوا لتناول الفطور ، فتوجهت ناستيونا الى منزلها كى تستعد للسفر فى الحال ولا تعود الى المنزل مرة اخرى .

فى الصباح ، عندما استيقظوا من النوم ، بدا وكان ميخيتش قد فرح لتمكن ناستيونا من السفر . فقد نفد الكيروسين فى المنزل واحضر ميخيتش خلسة مرتين قليلا منه فى قنينة من اسطبل الخيل

الذى يعمل فيه ، وذهبت ناستيونا مرة الى نادكا حاملة المصباح من اجل ملئه بالكيروسين . ثم ان من اللازم اقتناء الثقاب والملح . وهناك امل بالحصول على الصابون ، ولكنه امل ضعيف ، فالناس لم يروا الصابون من زمان بعيد ، وصاروا يغسلون بماء الرماد . فى اتامانوفكا لا يتمكن المرء من شراء شىء منذ عام ١٩٢٠ عندما قذف غافريلا افاناسيفيتش ، وهو احد الانصار ، بالبائعة سيما صاحبة الحانوت فى حفرة فى جليد النهر واغرقها . فصار الناس يتوجهون الى كاردا حتى لشراء اتفه الحاجيات .

ومما افرح ناستيونا على الخصوص ان ميخيتش قال :

– اذهبى ، يا بنتى ، الى حانوت الصيد فربما تجدين بارودا ورصاص رش . فانا لم استخدم بندقيتى من زمان ، ولا بد من الحصول على احتياطى . فقد تعرج غزالة على بستاننا فى الربيع .

احضر من المستودع علبة معدنية للكيروسين وقدم لناستيونا معطفه العتيق من فرو الكلاب الشمالية وسالها :

– هل ستعودين اليوم ام لا ؟

– لا ادرى . حالما افرغ من شراء الحاجيات ساعود .

– لا فرق ، اليوم او غدا . – ثم تذكر بأسى : – لو سافرت من صباح امس لما ابتليتينى بهذين الالفين . هل تتصورين المشكلة ؟ آ ؟ لماذا انت صامتة ؟ كان الافضل لو صمت امس ، او تكلمت بنصف لسانك ، اما اليوم فكان يمكنك الكلام . لا بأس ، اذهبى ، الله معك . وعرجى هناك على المجلس الادارى واستفسرى عن اندرى ، واذهبى ايضا الى البريد . فربما وصلت رسالة او تذكرة .

دمدمت سيميونوفنا مرة اخرى ، والله يعلم اى مرة هى ، من مضجعها على دكة الفرن :

– هل يجوز للمراة ان تشافر لوحدها مع رجل غريب ، وخشوشا فى الوقت الحاضر ؟ – كانت سيميونوفنا تلفظ السين والصاد شينا – يا الهى ، انهن مشتعدات لمعانقة اى كان . فهو لن يركض وراء العربة طوال الطريق ، وشوف يجلش معها فى العربة .

فاعترض ميخيتش قائلا :

– كفاية يا عجوز . لا داعى للهذر . ما دمت نائمة فابقى نائمة . ولا تلفظى كل ما يخطر ببالك . على من تخافين ؟ على ناستيونا ؟

ما اطيب ميخيتش ! لولاه لعانت ناستيونا الامرين فى هذه السنين . فان سيميونوفنا مستعدة حتى لربطها كالبهيمة دون ان تسمح لها بترك العمل وشؤون المنزل اطلاقا . ثم هل هناك من تستطيع المراة ان تتطلع اليه يا ترى اذا كان فى القرية كلها رجل واحد لا غير هو نسطور المصاب بالصرع والذى اعفى من الخدمة فى الجيش بسبب مرضه ؟ زد على ذلك ان امراته تلاحقه ليل نهار ساهرة على «سلامته» . كان ميخيتش بنفسه ينصح ناستيونا بزيارة الصديقات قائلا : اذهبى ، يا بنتى ، الى النساء وتحدثى معهن واضحكى ، فانت شابة ولا داعى لقضاء الوقت بحزن معنا ، مع العجائز .

ما اطيب ميخيتش ! ولكن كل الدلائل تشير الى ان الخلاف سينشب بينها وبينه ايضا . فحالما يبحث عن البندقية ولا يجدها ، وحالما يبحث عن غيرها من الضائعات لن تجد هى ما تجيبه به . ولا يمكن اتهام اللصوص ، فذلك يثير ضجة ويبدأ التحقيق والبحث وتراود البعض تساؤلات : لماذا يسرقون من آل غوسكوف فقط ؟ الا يختبئ ابنهم فى مكان ما «فيسرق» حاجياته لانه يعرف مواقعها ؟ لقد منعها اندرى من اى تلميح اليه امام ابيه . فما اشد ورطتها . احست سيميونوفنا قبل ايام بفقدان الرغيف الذى حملته ناستيونا الى اندرى فى اللقاء الثانى ، فادعت ناستيونا بان نادكا استعارته منها . فما الذى سيحدث فيما بعد ؟

ولذا كانت ناستيونا باشد الحاجة للسفر الى كاردا . اخذت معها ، فى صرة منفصلة ، بلوزا صوفيا منزلى الصنع من اجل مبادلته بالدقيق . كما اخذت الشال الرصاصى الجميل الثمين الذى اشتراه لها اندرى فى العام الاول لزواجهما ، اخذته تحوطا لما اذا كانت ستخفق فى الحصول على الدقيق لقاء البلوز . كانت قد حملت لاندرى دلوا من البطاطس ، ولكنها خشيت ان تاخذ له دقيقا ، لان ما بقى منه فى الصندوق يكاد لا يكفى للعجين مرتين . وجود الدقيق يسهل على زوجها المعيشة حيث سيخبز لنفسه رقائق ويقتات عليها . وستدعى بانها تبادل الالبسة بالدقيق من اجل

ماروسيا التى نزحت اليهم . كاردا قرية كبيرة يمكن للمرء ان يمحو آثاره فيها . ثم ان ناستيونا حصلت على البلوز من ماروسيا حقا على سبيل المبادلة فى الشتاء المنصرم ، ولذا يصعب التفريق بين الحقيقة والكذب . وتعلم قرية كاردا كلها ان ماروسيا تنقذ اطفالها طوال الحرب بمبادلة الالبسة لا غير .

غادروا اتامانوفكا فى وقت متأخر ، حيث ارتفعت الشمس الشفافة المائعة . خف الصقيع من زمان بعد اشتداده اثر زوابع التعميد . وكان الصباح باردا ، ولكن الجو الصحو يميل الى الدفء ، وتشير كل الدلائل الى انه سيكون دافئا بالفعل اثناء النهار . انطلق كاركا من القرية خببا وحافظ على وتيرة عدوه السريع . وراحت العربة الزحافة تنزلق على الدرب الممهد كما على صفحة الجليد ، وكان صرير مرح ينبعث من ضلعى قاعدتها المنزلقة . تعالى ضباب ازرق من الحقول الملفعة بالثلوج ، ولاحت فى الهواء عند الافق خطوط قاتمة مائلة الى البياض . وعلى اشجار البتولا العارية جثمت غربان صامتة وراحت تنظف اجنحتها مادة اياها جانبا كما يفعل الدجاج . كان كل شىء قد تدفأ قليلا وراح يستنشق الهواء بطلاقة ونهم . الربيع بعيد جدا ، ولكن بوادره بدت واعدة تبعث الامل .

القت ناستيونا معطف الفرو عند قدمى المفوض وجثت على ركبتيها فى مقدمة العربة ووجهها الى الامام . الثلج يتطاير من تحت السنابك على وجهها فاغمضت جفونها بعض الشىء دون ان تشيح بوجهها . وكان هذا العدو السريع فى مواجهة الريح ، وهذا النهار المضمخ بانفاس الربيع والذى بدا غريبا فى مثل ذلك الوقت من السنة وكانما اشرق من اجل ناستيونا خصيصا قد اثارا لديها الانفعال ونفاد الصبر والرغبة فى القيام بشىء ما خلافا للجميع وحتى لنفسها . فقد آن اوان التقحم ، ويكفيها انها ربضت طوال هذه المدة كدجاجة فى قفص . لا تخافى يا ناستيونا ، الى الامام يا ناستيونا ! ففرحتك يجب ان تكون الآن فرحة متميزة ، وكآبتك يجب ان تكون بعيدة عن الجميع . لا تجبنى ، وتقحمى وادفعى الحصان الى الامام ولا تتلفتى .

اخذ المفوض يثقل عليها بكلامه ، فراحت تجيبه على مضض . هناك اشخاص كانما لديهم كل ما لدى الرجال ، ولكنهم مجرد كناية عن الرجولة . وهذا واحد منهم . انه لا يجيد غير استكتاب النساء

على سندات الحكومة . وهو عندما يتكلم يلهث ويشرق بكلامه . اما وجهه فكالشرشف المغسول . كلما غسله ترك اثرا فيه ورق حتى كادت الثقوب تتراءى فيه من كثرة ما غسله خلال حياته .

انتهت الحقول واجتازوا الجدول وبدات على جانبى الطريق غابات التنوب العريقة . الهدوء المطبق يخيم على هذا القطاع من الطريق ، فلا ريح ولا صوت غير وقع سنابك الحصان . وفى احيان نادرة يتساقط الثلج من الغصون مثيرا ضبابا كالدخان ، وتهتز قليلا قنن الاشجار المدببة المطلة على الطريق . تلك هى ، لا غير ، نامات الحياة فى هذه الارجاء .

وهنا بالذات ظهرت ، على حين غرة ، بوادر الشجاعة على مفوضنا . كان جالسا بهدوء طوال الوقت ، وها هو ، فجاة ، يحتضن ناستيونا من ساقيها من الخلف ويلقيها على نفسه ويشخر كالخنزير . وفى الحال تملصت ناستيونا منه بشطارة لم تتوقعها والقته من الزحافة على الثلج . ارتعب الحصان فاطلق قوائمه للريح ، ولم تعمد ناستيونا الى التخفيف من عدوه ، فليتريض الرفيق المفوض قليلا وليسخن دمه سيرا على الاقدام . ظلت تعانى من الوحدة ثلاثة اعوام ونصف كخشبة يابسة ، ولكنها لن تقبل بمثل هذا «الرجل» ابدا . فلديها الآن زرج لا مجال للمقارنة بينه وبين هذا . وسوف يطفئ غليلها على اى حال .

ركض المفوض لاهثا دون ان يدرك شيئا ، ولحق بالزحافة . كان يتصور ان رفض ناستيونا نوع من المزاح فتحرش بها من جديد . وتعين عليها ان تضعه فى مكانه . رمشت عيونه ولزم الصمت . وبعد زهاء نصف ساعة تحول تحولا فجائيا وراح يتباهى بزوجته ويتحدث عن اطفاله . هذا روع ناستيونا – حبذا لو تصرف على هذا النحو منذ البداية – واستحثت الحصان .

وصلوا الى كاردا قبل المغيب ، ومن حسن الحظ ان الحانوت كان لا يزال مفتح الابواب ، وحالف الحظ ناستيونا هنا ايضا ، فقد وجدت فيه الكيروسين والبارود ، وهما الشىء الرئيسى الذى يمكنها ان تتحجج به امام ميخيتش وتبرر تاخرها . فستقول لحميها : ان الكيروسين لم يكن موجودا فى اليوم الاول فانتظرت حتى جلبوه . وليس بالامكان الاعتراض على هذا السبب . لم تحصل ناستيونا ،

بالطبع ، على الصابون ، ولكنها اشترت ثقابا وملحا . وتطلعت الى موجودات الحانوت فرات شموعا واشترت خمسا منها . لا احد يدرى من اين جاءت هذه الشموع ؟ من اية كنيسة ؟ فلم تكن ناستيونا تتذكر مطلقا ان حانوت القرية عرض للبيع شموعا فى يوم ما . وها هى الشموع تنتظر حزينة عتيقة ملتوية ومسودة . تنتظر وكأنما عرضت بناء على طلب ناستيونا . ستترك ثلاثا فى البيت ، وستحمل شمعتين الى اندرى ، وسيكون لديه ما ينير عند الاقتضاء ، وسيفرحه ذلك على اى حال .

صدق من قال : واول الغيث قطر ثم ينهمر . فقد حالف الحظ ناستيونا فى مبادلة البلوز بسهولة فى المساء بثمانية كيلوغرامات من الدقيق ، ولم تستدع الحاجة حتى عرض الشال . سرت ناستيونا لذلك حتى نوت العودة والليل على الابواب ، غير انها عدلت عن السفر والحمد لله . قضت ليلتها متململة وهى تسمع من وراء الجدار كيف يقضم كاركا العشب الجاف وكيف ينتفض ويراوح بقوائمه تخلصا من الصقيع . رقدت بعض الوقت دون ان يراودها النوم ثم نهضت بهدوء ، وشدت الحصان الى الزحافة خفية عن صاحبة البيت ، وهى زوجة جندى تعرفها وتوقفت عندها للمبيت ، ووضعت فى الزحافة عشبا للحصان يكفيه ليوم كامل ، وغادرت المكان فلم ينبح فى اثرها كلب ولم يصدر صوت عن القرية الساكنة الغاطة فى النوم .

فيما وراء المنازل الاخيرة استدارت ناستيونا بالحصان الى اليمين ، نحو انغارا . توقف كاركا فى حيرة ، فالطريق باتجاه المنزل يستمر الى امام . غضبت ناستيونا وضربت ظهره بالعنان . وكما هو حالها بالامس استولى عليها نفاد الصبر فصارت ترتعش كمن انتابته حمى شديدة ، وكادت تقفز من الزحافة لتسبق الحصان فى عدوه . اسرع ، اسرع ! ناستيونا تعرف بانه لا يجوز استعجال الحصان عبر النهر ، فيمكن ان يكبو فى شقوق الجليد فتتحطم قائمة له . ومع ذلك استعجلته . انها تريد اجتياز قرية ريبنايا قبل انبلاج الفجر كيلا يراها احد . وكان قلبها يتقافز بين الضلوع فراحت هى تتقافز ايضا استجابة له وتلف وتدور على فروة الكلاب العتيقة المفروشة عند قدميها ، وهى تلوح بالعنان وتصرخ بكلمات

مخيفة غير مفهومة . اسرع ، اسرع . . . فليسرع كل شىء ، ما هو موجود وما هو آت !

ولم تخفف من عدو الحصان وترخى العنان الا بعد ان اجتازت ريبنايا . ولم يبق الا القليل . فتلاشت الحمى دفعة واحدة ، واحتوى فؤادها الفراغ . شعرت بطعم المرارة فى اعماق الصدر وكأنما استنشقت دخانا . ولم تكن ناستيونا تعرف السبب .

ادركت من شحوب الليل ان الفجر سيبزغ قريبا .

الزحافة تسير وناستيونا تفكر : ها قد تعلمت ، يا ناستيونا ، الكذب . . . والسرقة . وما تلك الا البداية ، فماذا سيحدث لك ، يا ناستيونا ، فيما بعد ؟ بيد انها ، رغم ذلك ، لم تشعر بالذنب ، ولم تعترف به ، وكلما ارادته هو ان تتطلع قليلا الى الامام كى ترى ما سينتهى اليه ذلك كله .

كان الفجر قد انبلج عندما اوقفت الحصان واقتادته بالرسن على الجليد الى المنخفض المكشوف من جهة الشاطئ .

٦

– مرحبا ، لقد جئت – قالت ناستيونا وافتر ثغرها عن ابتسامة حذرة .

فاجأته على حين غرة ، اذ انه لم يسمع كيف وصلت وكيف ربطت الحصان بسرعة الى عريش الزحافة وتركته عند الجدول واقتربت من الكوخ بهدوء . كان نائما وقد غطى رأسه بمعطف الفرو القصير . وعندما شرعت ناستيونا بفتح الباب اندفع من التخت الواطئ الذى كان نائما عليه وكان موجة انفجار قد قذفته ، ووقف على قدميه بالكاد . ها هو الآن يقف امام ناستيونا مشعث الشعر كالمعتوه ، غير مصدق بانها هى بالذات . واستولى عليه شعور بغيض مؤسف لانه ارتعب الى هذه الدرجة امامها .

تطلعت فيه ناستيونا بدقة اخيرا : نفس تلك القامة المعوجة والمائلة بعض الشىء الى اليمين ، ونفس الوجه الواسع المفلطح كوجوه الاسيويين وقد غطته لحية كثة سوداء مجعدة . كانت عيناه

العميقتان تنظران اليها بتحد وتشبث ، وعلى الرقبة راح نتوء حنجرته البارز يتحرك متململا كالمكوك . اصابه الهزال الشديد فبدا فارع القامة ، ولكنه غير منسحق ، اذ انه لا يزال محافظا على قـــواه ومتانته ، وكأنه نابض مشدود يكاد ينفجر لاية لمسة . انه شخص عزيز على ناستيونا تعرفه جيدا وتوده ، ولكنه مع ذلك انســان غريب مجهول ، ليس ذلك الذى كانت تعرف ما تقوله له وتسأله عنه وتودعه قبل ثلاثة اعوام ونصف . بادرته قائلة من جديد وقد علت وجهها ابتسامة الاعتذار :

– جئت لارى كيف تعيش هنا . لا تفكر بسوء ، فلم يرنـــى احد . وصلت اليوم من كاردا عندما كنت نائما . احضرت لك بعض الاشياء ربما تحتاجها فى اليوم الاسود .

– كل ايامى سوداء الآن – كانت تلك هى الكلمات الاولى التى نطق بها .

كان يرتدى بنطالا قطنيا مضربـا وجوارب صوفية . لاحظت ناستيونا الآن فقط آثار التجمد على احدى وجنتيه ، فعليها بقعة قاتمة . استعاد وضعه الطبيعى بالتدريج . ارتدى جزمة اللباد وشرع بتسخين الفرن . همت ناستيونا بالتوجه نحو الباب ولكنه اوقفها :

– الى اين انت ؟

– يجب ان احمل حاجياتى الى هنا ، فما الداعى لبقائها فـــى الصقيع ؟

– انتظرى ، سنذهب معا .

تركا على الزحافة علبة الكيروسين فقط ونقلا كل ما تبقى الى الكوخ الدافئ . ثم اقتادا الحصان الى اعالى الجدول وراء المنعطف ، وخلعا عدته وسمحا له بتناول العشب اليابس . فعلا كل ذلـــك صامتين كالغرباء ، مكتفيين بالكلمات الاكثر لزوما من قبيل «خذ» و«اعطنى» . لم تكن ناستيونا تعرف بعد من اى باب تدخل عالمه وماذا تقول له ، اما هو فكان غاضبا لانه لا يزال عاجزا عن تذليل ارتباكه او ربما لم يكن يتجرأ فى الحال على شد الاواصر التى كانت تربط بينهما ، وليس معروفا هل بقى لها اثر ام لا خلال هـــذه السنين .

اثناء الوقت الذى صرفاه فى تدبير امور الحصان تدفأ الكوخ فتعين على ناستيونا ان تخلع البستها الدافئة . جلست لحظة عـــلى التخت المفروش باغصان التنوب ، ثم نهضت فى الحال . فلا بـد من القيام بشىء ، ولا بد من تهدئة نفسها وتهدئته ، والبحث حتى عن اتفه الاسباب لاستعادة الوشائج التى تربط بينهما . اقتربت من الباب حيث كوما حاجياتها واخرجت من الفروة كيس الدقيق الابيض وقالت متباهية :

– اشتريت طحينا لك من كاردا . وسوف تخبز لنفســـك خبزا .

اجاب بايماءة سريعة من رأسه . فقالت ناستيونا بغيظ :

– لماذا تستقبلنى بهذا البرود ولا تتحدث معى ؟ فى حيـــن جئتك باسرع ما استطيع فى الليل وكنت اعتقد بانك ستفـــرح لمجيئى . وربما من الافضل ان اعود .

– لن اسمح لك .

ادركت ناستيونا من لهجته الصارمة وصراحته الغاضبة انه لن يسمح لها بالانصراف اطلاقا . اقتربت منه ولمست رأسه بيدها الخائرة الممدودة المتحسسة كأيدى العميان .

التفت اليها بوجهه الشاحب وقال :

– هل تعتقدين بانى لست مسرورا لمجيئك ؟ اننى مسرور جدا ، يا ناستيونا . ولكن اى سرور هو سرورى ؟ فانا لا اعرف اذا كان لازما لك ام لا ، ولا اعرف ما اذا كان ينبغى اظهاره ام لا .

غرزت ناستيونا رأسها فى صدره :

– يا الهى ! ماذا تقول ؟ اننى لست غريبة عليك . عشنـــا معا اربعة اعوام . ام انك تعتقد بان ذلك قليل ؟

امسك بيديها لحظة ثم افلتهما دون ان يجيب . غير انها احست بان الغضب يفارقه وانه ينصاع لها . ها هو رأسه المتعب يميل جانبا فيستقر على الكتف . وتلك امارة صادقة لا يعرفها احد غيرها ، وهى الدليل على ذوبان الجليد . كانت ناستيونا فى السابق تعرف مزاجه من تلك الامارة . فاذا مال رأسه على الكتف بوسعـــك ان تتحدثى ما تشائين وان تضحكى وتمرحى ، فهو يتسامح فى كل شىء ويؤيدك ويستمر فى المرح طويلا ولا يستقـــر الا على مضض .

اجل ، لقد بقى فيه شيء من اندرى الذى تعرفه سابقا . ارتسمت على شفتيها ابتسامة محترسة مبتورة تنتظر الاسناد والمعاملة بالمثل وقالت :

– اراك للمرة الاولى اليوم فقط . فما اغربك بهذه اللحية .

– لماذا ؟

– انك تشبه . . . – ضحكت وبترت ضحكتها كما بترت ابتسامتها قبل قليل – تشبه شيطان الغاب . ففى الحمام لم افهم هل انت الذى كنت معى ام الشيطان . وفكرت بانى صنت نفسى وشرفى من اجل زوجى ، وها انا ارتبط بالشيطان الرجيم .

– وكيف وجدت الشيطان الرجيم ؟

– لا باس به . لكن زوجى افضل .

– انت داهية . لم تغيظى احدا . احضرى لى فى المرة القادمة موسى وساحلق هذه اللحية المشعثة .

– لماذا ؟

– كيلا اشبه شيطان الغاب – قال ذلك واستدرك فى الحال : – كلا ، لن احلق لحيتى . فلتظل معلقة كيلا اشبه نفسى ، فالافضل ان اكون شبيها بالشيطان .

انتبهت ناستيونا الى نفسها فقالت مرتبكة :

– يا الهى ! كيف نسيت ان اطعم زوجى ؟ فهل جئت من اجل الثرثرة ؟ – لقد نسيت فى ارتباكها ذاك انهما لم يكلما بعضهما البعض فى الواقع – ما اغرب المراة ! ذلك ما يعنيه انه لم يضربنى احد من زمان .

تطلع اليها باهتمام وسال ساخرا :

– تقولين انه لم يضربك احد ؟

– نعم .

– هل تحنين الى الضرب ؟

– كلا ، ولكن لم يكن هناك من يصفى دماغى . طيب . اجلس . انتظر لحظة .

– يجب غلى الشاى على الاقل – تذكر اخيرا .

– اغل ، لماذا تقف جامدا ؟ الا يوجد عندك ماء ؟

اعجبها ان تحس ولو لامد قصير بانها ربة بيت وانها تستطيع

ان تامر وتنهى . فذلك شيء لم يحدث سابقا الا فيما ندر ، وليس معروفا اذا كان سيحدث فى المستقبل ام لا . حملته على القاء المزيد من الحطب فى الفرن وعلى الذهاب الى الجدول لاحضار الماء ، ثم فتحت صرتها على مراى منه واخرجت رغيفا من الجودار وقطعة كبيرة من الشحم . احتفظت سيميونوفنا بهذا الشحم منذ الخريف لاجله هو ، لاجل اندرى ، عندما كانوا ينتظرونه فى الاجازة . الاجازة اخفقت ، ولكنهم ، بسبب من التقاليد والوساوس القديمة ، لم يمسوا الاطعمة التى اعدت لذلك اللقاء ، لان المساس بها قد يفسد اللقاء الذى ظل مرتقبا . وقبل زهاء شهر عثرت ناستيونا بالصدفة على الشحم ملفوفا بقطعة قماش فى الركن الابعد على رف المستودع ، وبالامس اخذت نصف ذلك الشحم . فهو ينفع الذى اختزنوه من اجله . وربما تنتصب فى ركن ما من المستودع قنينة من العرق المنزلى غطاها الغبار ، انها تنتظر عودة اندرى الى دار ابيه ، تنتظر الساعة التى يرفعون فيها نخب صحته .

قبيل الحرب شاهدت ناستيونا ذات مرة فلما سينمائيا (رات تلك الاعجوبة ثلاث مرات لا غير) ، وفى الفلم امراة من سكان المدن لا تعرف كيف ترضى زوجها الذى تهيم فى غرامه ، فراحت تطعمه بيدها كطفل صغير . تذكرت ناستيونا ذلك الآن فصممت فجاة ، وبدافع غريب عليها ، ان تطعم اندرى الشحم بيدها ، ولكنه لم يسمح لها بذلك . شعرت بالحرج وبالفرح فى آن واحد ، وكانما تجاوزت حاجز الخفر والحياء وصار بوسعها ان تواصل السير . تعين عليهما احتساء الشاى من اناء واحد هو غطاء الزمزمية الذى يسلمه احدهما للآخر . وشعرت ناستيونا بالانفعال ايضا لانها تناولت غطاء الزمزمية من يد اندرى وسلمته له من جديد .

اجل ، كل شيء هنا يثير انفعال ناستيونا ويخيفها فى الوقت ذاته : الكوخ المهجور الخالى من انفاس الحياة ، والاخشاب غير المنجورة والمرصوفة كيفما اتفق بمثابة ارضية ، والضلع الخشبى الذى انحنى تحت ثقل السقف ، والجدران المتفحمة المبنية من جذوع متشققة غير مستوية والمغطاة ببيوت العناكب ، والثلج الناصع اللماع فى ضوء الشمس والذى انبسط دون ان تمسه قدم ولاح من وراء النافذة كسد هائل ينحدر من الهضبة ، واندرى الذى

تعرفت على ملامحه فى ضوء النهار ولكنه لم يغد اكثر وضوحا واقل ابهاما بنتيجة ذلك ، وهى ، ناستيونا ، التى لا تدرى كيف ولماذا وجدت نفسها فى هذا الركن المهجور النائى . كانت تغوص فى دخيلتها للحظة فتدهش كل الدهشة لرؤية اندرى امامها ، وعند ذاك تبذل جهدا كبيرا كى تتذكر السبب فى وجوده هنا بالذات . وبعد ان تتذكر السبب يعود كل شىء الى نصابه ، الى ما هو عليه ، ولكن باهتزاز وترجرج ، الامر الذى يستدعى دوما دعم ذلك الوضع كيلا يهوى ويتداعى ، كيلا يضيع ويتلاشى من جديد . فقد بدا كل شىء من نسج الخيال ، بعيدا عن الحقيقة ، او مما يرى فى المنام .

ناستيونا تنتقل من موقف الى آخر ، وكأنها تلعب مع نفسها ، معصوبة العينين ، لعبة : «اين انت ؟ انا هنا» . فى البداية كانت واثقة من ان كل شىء سيكون على ما يرام بمر الزمن ، ولا يحتاج ذلك الا الى الصبر والانتظار ، اما الآن فهى تتصور ما حدث وقد تحول الى هوة سحيقة لا قرار لها ، حتى ان الرعب اخذ بخناقها . بيد انها لم تكشف عن رعبها ، بل تظاهرت بالمرح . ما يخبئه الغد ليس معروفا ، اما اليوم فهو يومها وبوسعها ان تأخذ «عطلة» مقابل كل تلك السنين ، وتطلق العنان لكل ما فى دخيلتها وتمنح نفسها فرصة للراحة .

لم تأكل الا القليل ، كيلا يتقلص ما جلبته لاندرى ، واسترخى بدنها بسبب الدفء فتثاءبت ، ثم قالت بدون مناسبة :

– والداك يعتقدان بانى فى كاردا ، بينما انا عندك . فما اعظم دهشتهما لو عرفا !

لم يجبها اندرى بشىء .

فرشت الفروة على التخت وخلعت جزمتها اللباد ورقدت ناشرة ذراعيها . تطلع اليها اندرى عبر المائدة ، فاغلقت عينيها تحرشا به وسكنت كما لو راودها النعاس . وحالما بدأ يقترب منها قفزت بسرعة وجثت على ركبتيها واشرأبت بعنقها وقالت متمتمة على عجل كما تفعل البنات :

– ابتعد ، لا تزعجنى ، انا لا اعرفك .

– ماذا تقولين ؟

– ابتعد ، لا تزعجنى ، انا لا اعرفك .

– يا للعجب !

دخل اللعبة ، فقفز اليها ، ولكنها تملصت منه ، ونشبت مناوشة كالتى حدثت منذ زمان بعيد ، فى العام الاول لحياتهما الزوجية . وما كان اسفه ما فعلاه . فقد اثارا آنذاك عاصفة حقيقية من الغبار . ولم تكن ناستيونا من المستضعفات ولم تستسلم بسهولة . وفى بعض الاحيان كان يتصبب عرقا قبل ان يتمكن من حملها على اعلان التوبة . ولكنها الآن لم تكن راغبة فى اختبار قوته ، فخفضت يديها ، وفهم هو تلك الاشارة على طريقته الخاصة فاضطرب وانفعل واستعجل كصبى صغير ، وعند ذاك قالت له بحذر كيلا تثير غيظه :

– على مهلك يا اندرى ، لا داعى للعجلة . فان حبى ، كالحصان الهزيل ، عاش امدا طويلا بلا علف . فلا تثقل عليه ، ولا ترغمه .

اطاعها لاول مرة فى حياته وعاملها برقة وحنان كما لم يعاملها ابدا طوال الفترة التى عرفته فيها ، وراح يتكيف لأهوائها ويستشف كل رغبة من رغباتها .

هدأت ناستيونا واسترخت فراودها شعور غريب غير مريح اذ تصورت نفسها ليس مع زوجها بل مع رجل غريب ليس لها حق فيه . بيد ان هذا الشعور سرعان ما تلاشى . وداعب النعاس جفونها عندما خيل اليها للحظة انها تمكنت باعجوبة من ان تتطلع الى نفسها فى المستقبل البعيد عن ذاك النهار ، فرأت اوضاعا تختلف عما هى فيه الآن ، ولكنها هناك ايضا ليست وحيدة ، مع ان ذاكرتها لم تحتفظ بصورته لسبب ما ، وهى لا تدرى ما اذا كان ذلك الشخص هو اندرى ام لا . ربما كان اندرى ، فهى لا تفكر باحد غيره .

ارادت ان تقول له شيئا ، اى شىء طيب صادر عنها هى ، ولكنها لم تجد ما تبدأ منه ، فسألته :

– ارنى جرحك . . .

فتح ازرار قميصه وعرض عليها آثار جرح مائلة الى الحمرة على صدره . فلمستها ناستيونا بحذر وقالت برقة :

– آه يا صغيرى . . . ارادوا ان يقتلوك . . . هل التأم الجرح نهائيا ؟ الا يؤلمك ؟

– حاليا افضل ، غير انه يؤلمنى قليلا ، وخصوصا فى

الطقس السيئ . فكان شيئا يزعجنى طوال الوقت ويتدلى من الصدر . اننى لم اتعود عليه بعد .

قبل ساعة لا اكثر ما كان بوسعها ان تفهم كيف ولماذا وجدت نفسها هنا . اما الآن فهى تتصور بانها لا تعرف اى شيء غير هذه الجدران وانها كانت موجودة بينها على الدوام . وكل ما تستطيع تذكره من حياة اخرى غير حياتها هنا لاح لها بغموض من بعيد على شكل مقتطفات مشوشة من احلام حائرة . فهل صحيح انه يوجد هناك ، فى مكان ما ، اناس آخرون وحرب وموت ونكبات ؟ فمتى حدث ذلك ؟ وهل حدث عموما فى زمان ما ؟ غدا هواء الكوخ مر المذاق ، وراح السكون المطبق الخفى يهدهدها ويحميها من كل الهموم والمشاغل ، ويسكرها بكيانه الحر وبوحدته الطليقة . استقر البدن الهادئ فى حلاوة السكون ورقد صامتا ساهيا دون ان تبدر منه اية رغبة تشير الى وجوده . وسألته بصوت ضعيف سعيد :

– الن تزعل علي اذا غفوت قليلا ؟

– نامى ، نامى .

رفع راسه واسنده الى كوعه كى يراها جيدا ، اما هى فقد غطت فى نوم عميق . ارتخى محياها المستدير المتورد من لفح الزمهرير وانارته ابتسامة طليقة فى المنام . وقد اخشوشن قليلا خلال هذه السنوات ، واختفت منه نهائيا ، وقد بدأت تختفى قبل ان يلتحق بالجبهة ، امارات التطلع التواق ودهشة البنات التى كانت تلازم محياها دوما : اوى ، ما امتع ذلك ! وماذا حدث بعد ؟ ! وسرعان ما انتهت الحكاية المدهشة وكشفت كل الاسرار . واذا ظل هناك شيء ما مدهش لها ، فما هو الا بقية بدت وكانها تلحق بالركب من الماضى ، من ذلك الذى نسى فى الطريق بسبب الاستعجال .

وضعت ناستيونا يديها على صدرها عند ازرار البلوز المفتحة . وراحت اليدان ترتفعان وتنخفضان مع الصدر ، وتكاد الاصابع تتحرك . لاحظ اندرى ان يديها اخشوشنتا وثقلتا ايضا بسبب العمل . وكان ينبعث من تنفسها العميق الهادئ عطر طازج دافئ ولذيذ .

اقترب من ناستيونا والتصق بها فعانقها بحذر ، وسمع دقات قلبها . كان يدق عن كثب وبمنتهى الوضوح ، وكل دقة من نبضه تحمل لاندرى قلقا غامضا ممضا . ويزداد هذا القلق باطراد ، ويزداد اضطرابه لانه لا يعرف مبعث هذا القلق ولا عواقبه . لم يعد قادرا على مواصلة الرقاد فنهض وترك التخت بهدوء وتطلع خلسة ، من وراء الظهر ، الى ناستيونا النائمة . وهمس لسبب غير معلوم : «نامى ، نامى» ، ولكن كل ما كان يريده هو ان تصحو من النوم . فلم يعد يطيق البقاء الى جانبها دون ان يتمكن من سماع صوتها وينصت الى كل ما يمكنها ان تقول وتفعل . فقد تجمد فؤاده وخلا بسرعة ، وانكمش وصار يتعطش الى الحركة والدفء .

خرج الى العراء وكاد يغمض عينيه ، فالضوء الساطع لطمهما بشدة غير متوقعة . وخيل اليه ان الشمس المطلة على الجبل آنذاك انزلقت منه الى هنا . وانتفض الثلج وتطاير شررا ، وامتلأت الظلال الخفيفة بزرقة رقيقة . كان الدفء مفعما برائحة الربيع . ومن طرف سطح الكوخ تدلى اصبع جليدى نحيف راح يمتلئ رويدا رويدا ، وفى الاماكن المكشوفة القليلة الثلج اشرأبت اعناق الشجيرات الشمالية .

تنشق اندرى الهواء بملء رئتيه وكأنه يبتلعه بنهم وتوجه لارواء الحصان ، ثم هبط الى نهر انغارا كى يرى ما اذا كان هناك غريب ، ولكن القلق ظل ملازما له . وخيل اليه انه الآن ، فى هذه اللحظات ، يضيع بسبب من حماقته شيئا هاما للغاية وضروريا له اشد الضرورة ، شيئا لن يعثر عليه فيما بعد .

عاد الى الكوخ ، وكانت ناستيونا لا تزال نائمة . فلم يعرف ماذا يفعل ، والتجأ اليها من جديد ولامس صدرها براسه حتى كاد يختنق من اقترابه الشديد منها فابتعد قليلا . تلمست ناستيونا الناعسة راسه ومسدت شعره فاحس بالارتياح للمستها تلك . اغلق عينيه متحسسا يد الانقاذ ، يد ناستيونا ، على كتفه ، وتصور كيف راح يدور ببطء فى فراغ رقيق رحب – وتصوره هذا يساعده دوما على النوم – وسرعان ما غط فى النوم فعلا .

استيقظا فى وقت واحد . فتحت ناستيونا عينيها وتطلعت اليه ، فانتبه هو منتفضا . وابتسمت ناستيونا له .

انتقلت حزمة الاشعة الشمسية من النافذة الى جهة الباب بعيدا . لقد مال النهار نحو الغروب . وقالت ناستيونا :

– نمت نوما لذيذا . ولا اتذكر متى نمت هكذا فى وضح النهار . كل ذلك لانك معى . اتطلع اليك ولست مصدقة بانك انت هنا . اما فى النوم فقد صدقت ، كما ترى ، وذبت حتى آخر قطرة . كان كل شىء هادئا ، هادئا جدا . . .

خيل اليهما بعد النوم ، وكأنهما يلتقيان من جديد ، فراحا يتطلعان الى بعضهما البعض بدهشة وتوقع . وهمت ناستيونا بالنهوض ، لكنه امسك بها ، فضحكت مسرورة لذلك .

كان يؤجلان الدخول فى صلب الموضوع مع انهما يدركان بانه لا مهرب لهما من الخوض فيه .

٧

– لو تمكنت من العودة الى هناك لبقيت دون رجعة . هذا شىء لا جدال فيه . فكم تحملت ، وكم قاتلت دون ان اختبئ او اتحايل ، ولكن شيئا حدث لى فقلب كل ما فى داخلى وبلّد ذهنى . ذلك لا يجرى عبثا ولا صدفة . ولكن ما فائدة الكلام الآن . حدث ما حدث ، وفات الاوان .

اضطجع بعينين مغمضتين . فتلك وضعية يسهل الكلام فيها . وتكلم بغضب متفجر هائج كما يتفجر الانسان الذى لا يجد من يسلط عليه غضبه . فقالت ناستيونا بصوت مفعم بالألم :

– كيف تجرأت على ذلك ؟ ليس هذا شيئا بسيطا ، فكيف عزمت عليه ؟

– لا ادرى – اجابها بعد لحظة ، واحست ناستيونا بانه لا يتظاهر ولا يكذب – لم اعد اتحمل ، واختنقت انفاسى . اردت ان اراكم مهما كلف الامر . ولو كنت فى الجبهة لما هربت طبعا . اما فى المستشفى فقد خيل الى ان المسافة ليست بعيدة . ولكنها بعيدة ، سار القطار طويلا . . . ولو توجهت الى الوحدة لكانت المسافة اقرب . فانا لم اكن انوى الهرب . ولكنى فكرت بعد ذلك

الى اين يجب ان اعود ؟ الى الموت ؟ الافضل ان اموت هنا . ما فائدة الكلام الآن ! الخنزير لا بد وان يعثر على الوحل ، كما يقال .

– ستنتهى الحرب ، وربما سيسامحونك – قالت ناستيونا غير واثقة .

– كلا . هذا شىء لا يسامح الانسان عليه . فهو ، لو ان ذلك بالامكان ، يستحق الاعدام رميا بالرصاص ، ثم يجبر على النهوض من جديد ، ويعدم رميا بالرصاص ثلاث مرات اخرى ، حتى يكون عبرة لمن يعتبر . مصيرى معروف ، ولا داعى لبذل الجهود من اجل تغييره . عندما توجهت نحوكم كنت افكر بانى سآتى اليكم ، وساتطلع الى ناستيونا واطلب العفو منها لانى حطمت حياتها وآلمتها واهنتها دون مبرر ، فى حين كان يجب ان اعيش كما يرام . حقا ، لماذا لم نعش كما يرام ؟ شاب وشابة قويان يلائمان بعضهما البعض فى كل شىء . ولا يعوزهما الا فرحة الحياة . فما الذى منعهما من التمتع بتلك الفرحة ؟ انه الغطرسة ورغبة التسلط . فيا للحماقة ! كنت ادرك ان ذلك حماقة ، فلست غبيا كل الغباء ، ولدى قليل من الوعى ، ولكنى لم استطع ان اتمالك نفسى . كنا نظن بان الحياة طويلة والوقت يكفى لنعيش ونحب بعضنا البعض فيما بعد . وها هى النتيجة . كنت افكر بان اجىء واقف امام ناستيونا واعتذر منها كيلا اظل وحشا كاسرا فى ذاكرتها والقى نظرة على ابى وامى من بعيد ، ثم ادفن نفسى فى الثلج . والباقى تقوم به الوحوش فتنظف الثلج من بقاياى . وانا لم آمل اطلاقا ولم اتجرأ على ان اكون معك على هذا النحو . فما الذى جعلنى استحق ذلك ؟ يجب علي ان اعبدك لقاء ذلك وحده لو طالت حياتى .

– لا داعى لهذا الكلام – قالت ناستيونا ، ولكنه قاطعها :

– تمهلى . ما دمت قد بدأت فلأكمل كلامى ، وربما لن اتمكن فيما بعد . لست الآن بحاجة الى ان احتفظ بذلك ، فهو لن ينفعنى . وانا الآن اقول ما عندى . نعم . وصلت لمدة قصيرة . هكذا كنت اتصور . وصلت من اجل ان تسامحينى وتودعينى لا اكثر . اما الآن فانا اريد البقاء حتى الصيف . اريد ان ارى اى صيف سيكون . تلك رغبة شديدة لا استطيع التخلص منها اطلاقا . ثم انك انت

منحتيني الدفء ، فما اعظم فرحتي – وشرق بالعا ريقه فلزم الصمت قليلا – انني لا اريد منك الكثير يا ناستيونا . فقد فعلـــت لي الكثير . فاصبري شهورا اخرى ، والتزمي بالحذر ، وساختفي حالما يحين الوقت . فاصبري . تحملت مني الكثير فتحملي هذا ايضا .

فكرت ناستيونا بان من اللازم ان تغتاظ وتزعل ، ولكنها لم تكن راغبة في الكلام . والكلمات لم تنفصل عن العبء المشترك الذي انثقل عليها ومنعها من الحراك ، فلزمت الصمت . وانتظر هو قليلا ثم واصل كلامه :

– لن نتمكن بعد الآن من العيش امام الناس ، ولا ليوم واحد . فتعالي الي عندما تريدين وعندما تشعرين بالعطف علي . اما انا فسابتهل من اجل ان تاتي الي . لا يجوز ان يراني الآخرون حتى في ساعة موتي . وذلك ما سأحققه من كل بد . فانا لا اريد ان اجلب العار عليك وعلى ابي وامي فيما بعد . ولا اريد للناس ان يحزروا كيف اختفيت ولا ان يتشمموا آثاري . لا اريد لهم ان يبتدعوا الاساطير ويشيعوا الاقاويل عني . لا اريد . – نهض قليلا ، ثم جلس على التخت ، وشحب وجهه وامتد عنقه وقال : – وانت ، هـــل تسمعين يـــا ناستيونا ؟ وانت لن تفضحي سري لاحد ولن تقولي باني جئت الى هنا ابدا لا الآن ولا فيما بعد ولا في اي وقت ابدا . والا فساقوم مـن بين الاموات واقطع لسانك .

– ماذا بك يا اندري ؟ ماذا ؟ ! – ارتعبت ناستيونا ونهضت هي الاخرى وجلست قربه حتى تلامس كوعاهما وسمعت انفاسه الثقيلة المدوية كما في الفراغ .

– انني لا اخوفك . فهل يحق لي ان اخوفك يا ناستيونا ؟ انت نافذتي على العالم . ولكن تذكري ، تذكري دوما ، حيا ساكون ام ميتا ، ما الذي يسيئني وما الذي لا يسيئني . وفيما بعد ، عندما ينتهي كل شيء ، ستدبرين حياتك ، وستصححينها ، فلديك وقت كاف . وربما ستكون احوالك جيدة الى درجة ترغبين فيها ، مـــن اجل سعادتك ، ان تنطلقي حرة حتى النهاية وتقولي كل ما في فؤادك ، فلا تتعرضي لموضوعي . انت الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقـــة

امري ، اما الباقون فليفكروا كما يحلـــو لهم . ولن تساعديهم في معرفة الحقيقة .

– ما الذي جعلني ، يا اندري ، استحق ان تتكلم معي على هذه الصورة ؟ – سألته ناستيونا . لقد تحيرت ولا تدري ماذا تقول . اما هذا السؤال النسوي الصرف الذي ينطوي على الرجاء اكثر مما على الغيظ فقد انطلق من صدرها عفويا ورنت فيه نأمة التشكي . بيد ان اندري ، على ما يبدو ، ارتاح له ليهدىء نفسه نهائيا في ظـل المسكنة التي تنبعث من السؤال .

– لست مذنبة في شيء . لا تزعلي ، لا داعي لذلك . فانا اعرف انك ستفهمين . ستفهمين كل شيء كما هو . ولو كنت في حالـــة اخرى لما قلت مثل هذا الكلام ، ولكنني مضطر الآن . فانا نفسي لا ادرك ماذا افعل ولماذا افعل . ويخيل الى انني لست انا الذي اعيش ، بل ان شخصا غريبا تقمص بدني وراح يوجهني . فاذا اردت التوجه الى اليمين قادني الى الشمال ! ولكن لا بأس ، لم يبق للنهاية الا القليل .

– انك تتحدث طوال الوقت بلهجة مخيفة . . .

– لا تخافي . انني لا اخيفك ، بل اخيف نفسي . والحقيقة انه لا داعي لاخافة نفسي . فلن يحصل افظع مما حصل . لقد كشفـــت امامك عن بعض الضعف ، ولكنني قلت كل ما يجـب ان اقـول ، وحذرتك من كل ما يجب تحذيرك منه . واصبحت الامور اهون علي . فبامكانك ان تتكلمي الآن .

– عم اتكلم ؟ . .

– كيف حال امي ؟ هل تتمكن من السير ؟

– في السنة الاخيرة لازمت سريرها على دكة الفرن . ولا تنزل منه الا لتناول الطعام . ولا تسمح لي باعداد العجين ، فهي تعـده بنفسها . ولن اتعلم ابدا ، على ما يبدو ، خبز الرغيف .

– الا يزال والدي يعمل في الاسطبل ؟

– بلى . ولولاه لهلكت جميع الخيول من زمان . فهو الوحيد الذي يسهر عليها . وقد اصابه الضعف هو ايضا . يتعب بسرعة ويلهث كثيرا . ثم انني ازعجته جدا امس الاول .

– كيف ؟

– جرى الاكتتاب على السندات . فسجلت دون تفكير : الفين . وهبت الاميرة ما لا تملك . اما هو فقد صعقه الخبر ، وفرح بالطبع ، وامتدحنى !

ندت عن ناستيونا قهقهة مبتورة ، فتطلعت الى اندرى بنظرة اعتذار .

– لا تتركى العجوزين الآن – قال واحلولك وجهه من جديد وغرق فى تاملاته ، ثم اضاف : – ربما لن تعيش والدتى طويلا ، اليس كذلك ؟ ينبغى ان انتهز الفرصة لرؤيتهما .

– ولكن ماذا بعد ، يا اندرى ؟ – سألت ناستيونا بتهيب ، وقد تجمد فؤادها لسؤالها – فهما ينتظران ويأملان اليوم قبل غد بان تكتب لهما وتخبرهما : اين انت . واذا انتهت الحرب فبم سيفكران ؟ كل املهما هو انت .

– املهما ، املهما . . . – قفز وراح يجوب الكوخ جيئة وذهابا – لا امل لهما . اطلاقا . لقد حدثتك عن ذلك الآن . اما بخصوص مكان وجودى فاقول لك ما يلى : نام معنا فى المستشفى ضابط برتبة كابتن . وبعد انتهاء العلاج سلموه الوثائق اللازمة وبعثوه ، مثلى ، الى الوحدة . وفى اليوم التالى عثر على تلك الوثائق فى صندوق البريد . ولا اثر للضابط . اين هو ؟ الله يعلم . فاما انه قتل طمعا فى بزته ونقوده وارزاقه ، واما انه محا آثاره بنفسه . كان يا ما كان . فمن المسؤول ؟ ليس ذلك الضابط الا شخص من آلاف لا يمكن العثور على اثر لهم . بعضهم فى الجو وبعضهم على الارض ، وبعضهم يسير فى ارجاء الدنيا ، وبعضهم مختبىء او لا يتذكر اين هو واين كان – كل شىء اختلط وتشابك ولا احد يجد راس الشليلة . وانا ايضا : بين الوجود والعدم . موجود وغير موجود . فكرى كيفما تريدين . لم يبق لوالدىّ العجوزين الكثير فى هذه الدنيا . وسنلتقى هناك ، وسنتحدث . فربما لا توجد حرب هناك . اما هنا فللضعيف وللقوى امل واحد : ان يبقى هو ولا احد غيره .

لم تجرأ ناستيونا على الاعتراض ، فلزم اندرى الصمت قليلا ، ثم تكلم بلهجة اكثر هدوءا :

– ليس معروفا ما هو الافضل : ان تعرف المرأة ان ابنها او

زوجها قتيل ام لا تعرف شيئا على الاطلاق . بالنسبة للزوجة ربما ينبغى لها ان تعرف ، كى تدبر حالها وحياتها . فالقضية هنا واضحة : اذا كنت قد مت فلا تحرم زوجتك من الحياة . ولا تقف حجر عثرة فى طريقها . اما بالنسبة للامهات فكم عدد اللواتى يوافقن على الحياة بعصابة على العينين ، فى جهل بمصير ابنائهن ؟ الام تستلم اشعار الوفاة ولا تصدق بان ابنها مات . ويدلونها على مدفنه ، ويكتب لها رفيق ابنها الذى دفنه بيده ، وهى لا تصدق . فليبق لوالدىّ العجوزين ايضا بصيص ما ، وان كان بصيصا عقيما ميتا ، طالما انى لا استطيع ان اعرض عليهما شيئا افضل من ذلك – استدار نحو ناستيونا وقال بلهجة قاطعة : – كفاية . انهضى ، سنشرب الشاى . وستذهبين قريبا . هل ستذهبين ام تبقين ؟

– كيف ابقى ؟

– هل ستجيئين مرة اخرى ؟

– بالتاكيد ، يا اندرى ، بالتاكيد ، فانا اعرف الطريق الآن .

– لا تاتى اذا كنت لا تريدين المجىء . فلا داعى للاكراه . اما انا فساتحمل ، وسيكفينى لقاء اليوم لامد طويل .

وتذكرت ناستيونا فهتفت قائلة :

– اوى ، احضرت لك بارودا . وكدت آخذه معى الى البيت – قفزت من التخت برشاقة وانتشلت من الكومة فى الركن كيسين من القماش فيهما البارود ورصاص الرش . – خذ نصف الكمية والباقى سأسلمه لابيك ، فقد طلب منى ان اشترى له .

– النصف يكفينى وزيادة – قال فرحا وانشغل بفتح الكيسين . – سأعيش اذن . ولن اخشى الآن حتى من الشيطان . لقد وهبتينى كل شىء ، يا ناستيونا ، يا زوجتى الرائعة ! – احتضنها ورفعها قليلا ، فصرخت متملصة ، ولكنه وضعها بحذر فى الحال ، وقال مخاطبا نفسه بكآبة قاسية : – يجب العيش مع هذه المرأة امام الملأ وليس الاختفاء فى جحور الارض .

– ارعبتنى جدا – قالت ناستيونا مضطربة دون ان تسمع ما همس به لنفسه – هبط قلبى فى صدرى . لم اعد اتذكر ان احدا احتضننى بهذا الشكل .

– تعالى مرة اخرى وساعوّدك .

– بودى ان اجىء كل يوم .
– فما المانع اذن ؟
آن اوان لملمة اطراف هذا اللقاء المختلس الذى استطال ليوم كامل . هبط الغسق وفاحت من ارجاء الكوخ رائحة العفن وتدلى ضلع السقف الخشبى المنحنى وبدا اكثر قربا واشد خطرا ، وغدا كل شىء لزجا مقلقا بعيدا عن الامان . وبردت حدة الحوار .
احتسيا الشاى على عجل . وحمل اندرى ناستيونا على ان تاكل ، فراحت تمضغ الخبز مع الشحم دون التذاذ . كانت قد ارتدت ملابسها عندما مد اليها صامتا يده وفيها شىء مستدير لماع عليه نقاط براقة كالعيون الصغيرة . فهتفت ناستيونا بدهشة خافتة :
– اوى ، ما هذه الاعجوبة ؟
– خذى ، يا ناستيونا ، هذه الساعة . لقد انتزعتها بنفسى من ضابط المانى ، حى وليس قتيلا . وهى لم تعد تلزمنى بعد الآن ، اما انت فستنفعك . عندما تبيعينها اطلبى ثمنا عاليا ، فهى ساعة جيدة مصنوعة فى سويسرا . ولا تقبلى باقل من الفين .
– يا الهى ، لمسها باليد مخيف .
– خذى ، فليس عندى ما اعطيه لك غيرها .
رافقها حتى الطريق الرئيسى عبر النهر وعانقها فى الزحافة ، ثم هدا للحظة ، وساط الحصان ، وقفز على الثلج . ظل واقفا دون حراك لامد طويل حتى اختفت البقعة القاتمة المبتعدة . ظل متجمدا بوجه متحجر وتفكير مبتور توقف عند : هكذا اذن . . .

. . . بكت ناستيونا طوال الطريق . استولى عليها الحزن واعتصر قلبها ، ولم تفهم على الفور لماذا استولى عليها بهذه الشدة . فالالم لم يختمر لديها ولم ينضج فلا يدلها على ما ينبغى ان تفعله له . اذ ان كل شىء فى دخيلتها مشوب بقلق حاد يعتصر الفؤاد . وتضيق انفاسها وتتقد من الداخل كانما تجرعت قدحا من الشاى ذوب فيه قدر متساو من السكر والملح . فللسكر مفعول وللملح مفعول آخر ، وحالما تشعر بطعم الحلاوة تختنق بالملوحة الشديدة وتنساب المرارة فى البدن كله حتى العظام .
طوال السنوات التى ارتبطت فيها ناستيونا بالقرية والمنزل

والعمل كانت تعرف مقامها وتصون نفسها لانها هى ايضا عروة يستند اليها كيان ما ويترابط بفضلها فى كل متكامل . وعلى حين غرة ضعفت الحبال والعرى دفعة واحدة . لم تتقطع ، بل ضعفت وتراخت . افعلى ما تشائين بحرية وبكل ما لديك من طاقة واذهبى حيثما تريدين . ولكن الى اين تذهب ؟ وماذا تفعل ؟ لقد تعودت على حبلها وهو لا يؤلم رقبتها ، ولكنها لا تستطيع ان تذهب بعيدا حتى اذا صممت على ذلك . فليس هناك جهة تذهب اليها . فكيف لا تتحير ولا ترتبك ؟ كلا ، يبدو انها لن تتخلص من تلك الحبال ، وينبغى سحبها وانتظار ما سيحدث . فلن تستطيع الهرب من مصيرها . ويتعين عليها الآن ان تدور فى نفس الحلقة ، ولكن عن كثب وعلى انفراد . يتعين عليها ان ترى كيف يعيش الآخرون ، وتعيش على انفراد ، سرا . عليها ان تتلفت وتلتزم الحذر وتتحدث همسا ، بنصف لسانها . عليها ان تعمل ضعف ما عملت وتنام نصف ما نامت . عليها ان تتحايل وتتملص وتكذب وتعرف مسبقا ما تؤول اليه الامور .
والسبب فى ذلك هو ان زوجها حافظ على حياته وعاد قبل الميعاد .
الانسان غير معصوم من الخطايا ، والا فهو ليس بانسان . ولكن ليست الخطايا كهذه . لن يحتمل اندرى هذا الذنب ، واضح انه لن يحتمله ، ولن يتجاوزه مهما طالت الايام . فالذنب اقوى منه . وهل يجوز الآن تركه وحيدا فى مواجهة المصيبة ؟ لربما كانت هى ايضا مذنبة فى وجوده هنا . مذنبة دون ذنب . أليست هى ، قبل غيرها ، السبب فى مجيئه ؟ أليست هى التى كان يخشى الموت دون ان يراها ويقول لها كلمته الاخيرة ؟ لم يكشف سره لابيه وامه ، بل كشفه لها . وربما ابعد اجل الموت قليلا من اجل ان يكون معها ليس الا . فكيف لها ان تتخلى عنه الآن ؟ لا يستطيع ذلك الا من لا قلب له ومن يستبدل فؤاده بميزان حديدى يزن ما هو نافع وما هو ضار . فى مثل هذه الاحوال لا يتخلى الانسان عن الغريب حتى وان كان غارقا فى الذنوب ، فكيف به اذا كان قريبا حبيبا ؟ . . ولو لم يوحدهما الله لوحدتهما الحياة كى يشد بعضهما ازر بعض مهما حدث ، ومهما وقع من مصائب ونكبات .

الاحياء يقاتلون هناك ، وهو هنا . يا الهى ، علمنى ماذا افعل .

خيمت كآبة حالكة على فؤاد ناستيونا الواسع الخاوى كمنزل افرغ من اثاثه . وبوسعها الآن ان تتصرف على هذا النحو او على غير هذا النحو . انها ترتعش من برودة هذا الخواء الذى يغويها ويستهويها بعد ان عرى كل الزوايا والاركان ، حيث ترجّع كل فكرة صدى متسائلا مدويا .

٨

فى النهار يحاول اندرى غوسكوف الا يبقى فى الكوخ . من المستبعد ان يجىء احد الى هنا ، ومع ذلك فهو يتوخى منتهى الحيطة ، فيدس حاجياته البسيطة تحت التخت ويجمع الاغصان بكومة واحدة فى ركن على الفرن ، ويمحو آثاره بدقة كل مرة ، ويحمل بندقيته على متنه ، ويتوجه الى اعالى الجدول بالاسكى على الجليد . وهو عادة لا يجوب الجهة اليمنى القريبة من ريبنايا ، بل يستدير الى الشمال حيث لا توجد بقعة مأهولة على مسافة تتجاوز ثلاثين كيلومترا .

المجال ضيق داخل الغابة ، والثلج هش ، اما فى الفسحات الواسعة بين الاشجار فكان غوسكوف يتزلج على الطبقة العليا من الثلج كما على الجليد ، فرحا لحركته السريعة الطليقة المحلقة التى تنطوى على خداع مرح لذيذ : الى الامام ، الى رحاب الحرية ، الى الاماكن البعيدة ، حيث لا داعى للخوف والاختباء ، وحيث يعيش كل كائن بما جبل عليه وبما منحته الحياة .

غابات التايغا ملفعة بالثلوج – الثلوج المكدسة اكواما والرابضة والموزعة باشكال الابر والاشواك والساقطة من الغصون . لم تستيقظ التايغا بعد فهى لا تزال مثقلة بافكارها المبهمة ، بيد ان اشجار الصنوبر قومت اغصانها ورفعتها الى اعلى ، وغدت البتولا العارية المياسة رقيقة تستجيب لنظرات العيون ، وفاحت روائح اللحاء الداخلية الصمغية الدباغية . وادى الطقس الجيد طوال اسبوع الى توسيع الهوة بين الصبغتين المركزتين البيضاء والسوداء اللتين

تكادان تكونان الصبغتين الوحيدتين فى الشتاء حيث بدت اشجار التنوب والحور الرجراج سوداء بقدر واحد على خلفية بيضاء ناصعة ، وارتسمت بمزيد من الوضوح والجلاء ملامح كل جذع وغصن . ولم تعد الرياح ، اذا هبت ، تثير سحبا ثلجية لا فى المناطق المرتفعة ولا فى المناطق المنخفضة ، فالثلج رقد على الارض والتصق بها حيثما يتعين عليه ان يذوب فيما بعد . وسيتساقط ثلج آخر من الجو طبعا ، سيتساقط مرارا ، ولكن من اجل التبجح ليس الا . وسيلتصق الثلج الجديد بالثلج القديم على الفور . ومن جوانب الجذوع المسجاة المكشوفة بدأت الرطوبة تنز .

سار غوسكوف طويلا على المنحدر المكسو بالاشجار حتى وصل الى المنخفض التالى الذى انزلق عليه الى نهر انغارا . النهر يستدير هنا الى اليمين ، ويتسع الشاطىء بسبب الترسب المتواصل عاما بعد عام . هذا الشاطىء غنى بالثمار والاعشاب والفطر . ويقال ان قرية تترية نشأت هنا فى غابر الزمان ، لكن احدا لا يعرف لماذا شد التتر الرحال من المكان الذى اعجبهم على نهر الغير ، واحرقوا المبانى وارتحلوا . ولا يعرف احد ما اذا كان الامر على هذا النحو ام لا ، ولكن من الواضح ان يد الانسان عملت هنا فى قديم الزمان . فقد قطعت الاشجار واعدت الحقول للزراعة والمروج لحش الاعشاب .

سار غوسكوف من جديد على الشاطىء ، كان يتزلج ، ولا يسير ، على قشرة الثلج المتصلبة صاعدا الى اعالى النهر .

هنا يتعين عليه الاختفاء ايضا عن انظار الآخرين ، ولكن الخوف اقل ، فهذه الاراضى لا صاحب لها . عندها تنتهى حدود ناحية ولا تبدأ حدود ناحية ثانية . والناس المقسمون اداريا لا يعرفون الكثير عن بعضهم البعض . واذا سمعوا من جهتين مختلفتين اطلاق رصاص فهم ينسبونه الى جهتين مختلفتين : الذين فى الاعالى يتصورون اطلاق الرصاص صادرا من الذين فى الاسفل ، وهؤلاء يتصورونه صادرا من اولئك . وهنا ، هنا فقط ، يسمح غوسكوف لنفسه بالصيد .

فى غضون يومين كان يراقب المعز البرية من الشاطىء ، ورأى مرتين كيف اجتازت النهر عبر الجزيرة الصخرية . وفى المرة الثالثة

انتقل الى الجزيرة ونصب كمينا على الراس السفلى القليل الانحدار الذى تمر به المعز ويرى منه كلا شاطئى النهر بمنتهى الوضوح : الشاطىء الايسر اقرب والشاطىء الايمن ابعد . المكان من هذه الناحية مناسب وواقع ضمن مجال الرؤية ، ولكنه مكشوف جدا للريح الجنوبية التى لا ترحم . وتخلصا من الريح توجه غوسكوف الى الصخور المكدسة وسط الجزيرة كشواهد قبور هائلة ، فراى فجاة ، وراء شق فى الصخور ، فجوة عميقة تشبه مغارة مائلة الى جانب ، وفيها آثار موقد قديم . تفقدها غوسكوف وتنحنح مدهوشا ثم ضحك بصوت مسموع : فلم يكن حتى ليحلم بمثل هذه اللقية . وصار يعتقد بان هذا الماوى سينفعه ، دون ان يعلم لاى غرض وكيف .

اشعل نارا وتدفا . وفى تلك الاثناء صمم على عدم العودة الى الكوخ اذا لم يحالفه التوفيق اليوم ، وسوف يبيت ليلته هنا . فما الداعى لاطلاق الساقين بين طرفين غير متقاربين ! لديه الآن ماوى ، واى ماوى ، فى الجزيرة ايضا . الجو بارد فى الليل طبعا ، ولكن النار موجودة ، فلا باس . ولعل احدا اختبأ هنا فى زمن ما ، عن انظار الناس او لسوء الطقس . وفى اغلب الظن عن انظار الناس . فما الذى يدفع المرء للمجىء الى هذا المكان ؟ ما اكثر الرماد الاسود المتحجر فى هذا الموقد ! فهو ليس بنتاج ليلة واحدة . لا بد ان ذلك الشخص اختبأ هنا منذ زمان . ولعل سوء الطقس ، سوء الاحوال ، سوء الطالع قد لازمه طويلا .

كيف لم يفكر اندرى سابقا فى الوصول الى الجزيرة الصخرية ؟ انها قريبة ، ومع ذلك لم يفكر فيها . كم مرة اجتاز المنطقة بالزورق وتطلع الى الصخرة ، ولكنه لم يتسن له ان ينزل عليها . انها جزيرة غريبة غير مريحة ، شواطئها شديدة الانحدار ، وليس فيها غير الصخور واشجار الشربين . وقد لا تبدو للآخرين بافضل مما بدت له .

بات اندرى ليلته فى الجزيرة شاعرا بارتياح المتشفى لانه نام فى المغارة وكانما فى قلب الصخرة ، حيث لا يمكن بلوغه من اية جهة من جهاتها . عند المساء اعد حطبا جافا وسخن لنفسه جذعا مسطحا اتخذه سريرا ونام بدفء واطمئنان دون ان يشعر بالارتياب

المعتاد والتوتر الشديد المتواصل الذى لا يفارقه الآن حتى فى المنام .

خرج الى راس الجزيرة فى الصباح متاخرا . فقد اعد شايا وشربه من غطاء الزمزمية الذى احرق شفتيه ، وحمل نفسه على النهوض والخروج الى البرد . . . خفت الريح الجنوبية ، ولكن هواءا رطبا باردا هب من الشمال بهدوء واعتدال . كان الصباح كالحا معتما يبعث على الحذر والحيطة لدى الانسان والحيوان على السواء . ومن المستبعد ان تصمم المعز ، فى مثل هذا الطقس المتقلب المريب ، على قطع شوط كبير . أليس من الافضل له ان يعود دون استعجال بمحاذاة الجبل ؟ فقد يصادف فى مكان ما سنجابا على الاقل .

كان مشغولا بالتفكير فيما ينبغى فعله عندما التفت الى الشاطىء الايسر الذى ينوى الذهاب اليه فراى فجاة كيف هبطت ثلاث معزات من الشاطىء العالى وقد لوت قوائمها الامامية . ها هى المعزات المنشودة . تراجع واختبأ وراء شربينة واعد بندقيته . اتجهت المعزات نحوه مباشرة ، عبر الجدول وهى تجرجر قوائمها بقفزات ثقيلة خرقاء على الثلج المتصلب . فما الذى اجتذبها الى هذه البقعة يا ترى ؟ ربما هى الرغبة فى الاختباء بين الاشجار ولو للحظة واحدة بغية تهدئة النفس وتجاوز الرعب قبل الخروج مجددا الى الخلاء المكشوف من جميع الجهات والمحفوف بالمخاطر .

اقتربت المعزات منه فى قافلة الواحدة تلو الاخرى . وصار يسمع انفاسها التى تشبه قوقاة البط . وعلى مسافة مائة متر لا اكثر من راس الجزيرة اثار شىء ما انتباه المعزات فاستدارت الماعز الامامية التى تقود القافلة عن الجزيرة واتجهت فجاة الى اسفل . وشيعها اندرى باطلاقة من كلتا الماسورتين ، فاصاب الماعز الاخيرة التى قفزت قفزة عالية يائسة فى الهواء ، الى الجانب وليس الى الامام ، وهوت على الارض .

عندما وصل اليها غوسكوف راكضا كانت لا تزال حية . نخرت وطرقت الارض بقوائمها وهى تزيح الثلج تحتها ، واحتقنت عيناها ومال راسها وخر . لم يجهز عليها اندرى ، كما هو المعتاد ، بل وقف يتطلع اليها كيلا يفوت اية حركة من حركاتها وكى يرى كيف يتعذب الحيوان المحتضر وكيف يخفت التشنج

ويظهر من جديد ، وكيف يتلوى الراس على الثلج . وقبيل الخاتمة رفع راسها قليلا وتطلع فى عينيها مباشرة ، فاتسعتا ردا عليه ، ورأى فى اعماقهمـــا الغائرة بوزين شيطانيين اشعثين فظيعين يشبهانه هو .

كان ينتظر التشنجة الاخيرة كى يرى كيف تنعكس فى عينيها ، ولكنه فوتها . وخيل اليه ان عينى الماعز فى تلك اللحظة متجهتان صوب نفسها ودخيلتها .

فى بعض الاحيـــان يلتجئ اندرى الى الكوخ العلوى . فهو افضل واوسع من الكوخ السفلى . وهو مبنى من جذوع الشربين وقائم على مرتفع امامى فيبدو متينا جدا . الحقول حوله مهجورة من زمان ، فنما فيها كل ما يمكن ان ينمو ، بيد ان هناك فسحـــة دائرية ممراحا وراء صف غير كثيف من اشجار الحور الرجراج على مقربة من الكوخ . ذات مرة غرق غوسكوف فى تاملاته وراودته فجاة رغبة فى ان يدفنوه هنا ، عند طرف الفسحة المطوقة باشجار الحور . فالمكان جاف مضياف ، ومن الاشجار ستتساقط الاوراق على قبره ، وستجئ الطيور المغردة يستهويها عطر الزهور ، فى حين سينفّر مبنى الكوخ الوحوش من الاقتراب منه .

ليس فى الكوخ فرن (فقد اخذه شخص ما ولم يتهاون حتى فى نقله الى الجدول) ، ولعل ذلك افضل ، فلربما ينفد صبر اندرى ويشعل نارا ، وعند ذاك يتعالى الدخان من الهضبة على مرأى من اتامانوفكا كلها . لن يكون بحاجة الى الفرن عندما ينتقل الى هنا حين يتدفأ الجو . اما الآن فهو يجئ فى النهار فقط ، وحالمـــا يشعر بالبرد يتحرك ويتدفأ دون نار . ثم ان الجو فى بعض الايام دافئ حتى ثقل معطف الفراء القصير على صاحبه .

ستذوب الثلوج قريبا وسيتحطم الجليد ، اما هو فليس لديه جزمة جلدية ولا صديرى .

لاحظ اندرى انه يدوخ هنا لسبب ما ، ويشعر بان حالته اسوأ مما فى الاسفل . فهناك الاطمئنان اكثر ، وقد تعود على حياة رتيبة معينة ، يعيش ويفكر ويشق طريقه حسب جدول بسيط : ماذا سيعمل غدا ، والى اين سيذهب ، وكيف سيحصل على كيت وكيت ، وكيف يسد رمقه ؟ لم يكن يتطلع الى المستقبل البعيد

ولا يحاول التعمق فى الذكريات ، فلا يستعيد فى ذهنه الا ما بدأ من هذه الارجاء . وهو راض على حياته الحالية ، تلك الحيـــاة المبتورة التى ليس فيها غير معدة تهضم ورئة تتنفس . اما هنا ، فى الكوخ العلوى ، فقد تهشم كيانه وتحلل ، وداهمتـــه افكار نافلة ليس بوسعه ان يطويها ويقيدها مهما بذل من جهد ، واثقل عليه شعور خفى بتوبة متأخرة خرقاء ، توبة محظورة ومقفلـــة بعشرة اقفال .

فما جدوى التفكير والتأمل ؟ لا تسلت نياط الفؤاد الواحد تلو الآخر . فلات ساعة مندم .

يقول المثل الروسى ، تعبيرا عن الندم ، انك لن تستطيع ان تعض كوعك رغم قربه من فمك . ذات مرة تذكر اندرى هذا المثل وامسك كوعه بيده الاخرى وجره بكل قواه الى فمه . فقد يوفق فى عضه . ولكنه اخفق وتألمت رقبته الما شديدا فضحك راضيا: المثل صحيح . وقد جربه آخرون قبله فلم يفلحوا .

انه هنا يكره نفسه ويخشاها ، فهى ثقيلة عليه ، وهو لا يعرف ماذا يفعل كى يزيد من المه وكى يكون بأسوأ مما هو فيه . فيروح يهدد نفسه امعانا فى ايذائها : تمهل قليلا ، سيحيـــن الوقت ، وستحل الساعة . وبعد ذلك ينتفض فزعا : حقا سيحين الوقت ، وستحل الساعة ! وستكون ساعة فظيعة رهيبـــة ! لن تنهض بعدها ، ولن تقوم لك قائمة .

لم يكن يعرف السبب فى تفكيراته الحمقاء تلك . هل هو الكوخ المبنى لاجل حياة طويلة ؟ ام هو المكان الفتى المـــرح حواليه ، حيث تلوح من وراء الاشجـــار رحاب النهر المتجلد ، ويرى من بعيد على الشاطئ الآخر طرف اتامانوفكا ؟ ام هو شىء آخر مجهول ؟ ولكن التفكيرات تلاحقه وتأخذ فى خناقه فلا يستطيع منها فكاكا .

بيد ان ذلك بالذات هو ما جاء به الى هنا كمذاق الخطيئـــة العذب اليسير المنال .

بعد اسبوع من اصطياد الماعز الاولى اصطاد ماعزا اخرى فى نفس الجزيرة الصخرية وسحبها على الاسكى وسلخها وقطـــع

اوصالها فى العتمة قرب الكوخ السفلى . وخبأ اللحم فى الجماليون حتى الصباح .

فى الصباح الباكر فتح البـــاب ليخرج من الكوخ فتجمـــد مندهشا . رأى كلبا رماديا كبيرا قفز بشوط هائل مبتعدا عن الباب ، وتاهب مكشرا عن انيابه . لم يدرك غوسكوف فى الحال ان هذا ذئب . فهو نحيل طويل يكسوه شعر اشعث ومتدل كما هى العادة دوما اثنـــاء تغير الوان الوحوش . كان ينظـــر الى غوسكوف بحقد شديد جعله يلتقط البندقيـــة فى الحال . ولكن اندرى انتبه على نفسه ولم يطلق النار . واتضح ان الذئب عجوز محنك ، فقد هرب من فوهة البندقية المصوبة نحوه الى الجبل ، ثم توقف من جديد لانه لم يسمع اطلاق الرصاص ، وراح يعوى .

ومنذ ذلك الحين تعود الذئب على التردد على الكوخ فى الليل . وعلّم غوسكوف العواء .

كان الذئب يربض خلف الكوخ وينشد اغنيته الفظيعة الحادة بنفس طويل واحد . كل شىء فى الوجود يغدو باهتـــا كالحـــا بالمقارنة معها . فهذا الصوت يحز فى حنجرة اندرى كموسى حاد رقيق يلمع فى الظلمة . ذات مرة اشتد الم اندرى لانه لا يستطيع طرد الذئب باية وسيلة ، ففتح الباب قليلا فى سورة من الغضب والتحرش ، ورد على الذئب بعواء مثل عوائه . رد عليه ودهش اشد الدهشة : فقد كان صوته شبيها بصوت الذئب . ذلك دليل آخر على صواب المثل القائل : من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم . وفكر اندرى بشىء من الشماتة والتباهى المنتقم «سينفعنى ذلك فى تخويف الناس» .

كان ينصت الى عواء الذئب وينتظـــر بفارغ الصبر والفرح والحماس دوره هو فى العواء . وكان الوحش ، عند الضرورة ، يصحح نواقص عواء اندرى . وبالتدريج ، ليلة بعد ليلة ، ادرك غوسكوف بان عليه ان يضغط على مكان ما فى الحنجرة ويميل برأسه الى الوراء ويزيل من صوته البحة النافلة ، فتعلم التحكم بصوته واطلاقه صافيا رفيعا كحلزون مضغوط الى السماء .

وفى الاخير نفد صبر الذئب فترك الكوخ وشأنـــه . الا ان اندرى لم يعد بحاجة الى الذئب . فعندما تضيق انفاسه الى حد

الغثيان يفتح الباب فيطلق ، فى سورة من التسلية المخبولة ، عواءا مستكينا لجوجا يكتنف غابات التايغا الموحشة . وكان يتسمع كيف يرتعب ويتجمد من هذا العواء الوحشى كل شىء على مسافات بعيدة حواليه .

٩

فى اواسط آذار عاد الى اتامانوفكا اول جندى من الجبهة هو مكسيم فولوغجين . واذا توخينا الدقة فهو ليس الاول ، اذ عاد بيوتر لوكوفنيكوف الى اهله فى العام الثانى من الحرب ، ولكن من اجل ان يقضى نحبه . تعذب شهرين فى بحران وحمى ولازم الفراش دون ان يخرج الى الشارع تقريبا ، وفى اواخر الخريف ، بعد جنى الغلال فى الحقول والبساتين توفى بهدوء . واعتبر ذلك من حسن الطالع ، فالقبر فى الديار وليس فى ارض غريبة .

اما مكسيم الجريح فقد جاء ليعيش ، وجاء بصورة نهائية . اهتزت اتامانوفكا لوصوله . فطالما سمحوا للجرحى بالعودة الى الاهل فنهاية الحرب قريبة حقا ، وذلك يعنى انه سيصل بعده آخرون قريبا . المهم هنا ان يترك المرء اثرا ، وبعد ذلك يجرى تقفى الاثر . صحيح ان الذين سيجيئون نفر قليل . فان اينوكينتى ايفانوفيتش الذى يحسب الحساب لكل شىء قد بين بالارقام كم عدد الذين قتلوا من رجال اتامانوفكا : اثنان قتلا فى الحـــرب الفنلندية ، وثمانية عشر توجهوا الى الجبهة خلال سنوات الحرب الحالية . وفى الحال الحاضر لدينا رجل واحد حى بالتاكيد (مكسيم فولوغجين) ورجل واحد (بيوتر لوكوفنيكوف) ميت بالتاكيد فى مقبرة القرية ، وعشرة اشعارات بالوفاة لدى النسوة ، اما الباقون فيحاربون . تلك عملية حسابية بسيطة . فالقرية صغيرة ، ويمكن العد على اصابع اليد .

فى ذلك اليوم كانت ناستيونا ونادكا وليزا فولوغجينا يعملن فى تنظيف شعير البذار فى مهب الريح قرب المستودعات . وبعد الغداء وصل نسطور على ظهر كاركا مسرعا . اوقف الحصان وجعله يقعى على مؤخرته وصاح بليزا :

– اصعدى على حصانى بسرعة ، هيا ، هل تسمعين يا ليزا ، وصل مكسيم .

ابتعدت عنه ليزا مترنحة وبهت لونها وانتحبت ثم ركضت باكية بكاءا مريرا الى القرية . كانت اتامانوفكا فى هرج ومرج آنذاك . ومن الهضبة التى تقع عليهـــا المستودعات يرى كيف تراكض الاطفال والكلاب نحو منزل فولوغجين فى الطرف العلوى للقرية ، وكيف توجه الى هناك ايضـــا الشيوخ والعجائز وهم يتحدثون بانفعال . واسرع نسطور على صهوة جواده من جديـــد وهو يطلق النار فى الهواء مضيفا الى هرج القرية ومرجها المزيد . ابتعد الناس مفسحين المجال له ، وراح الحصان يتقافز وينخر بسبب اطلاق الرصاص ، ولكن لا احد بوسعه ان يوقف نسطور وهو يطلق الرصاص ويجوب القرية رماحة من طرف الى طرف . وقالت نادكا حاقدة :

– فليحارب هذا الجنرال ولو بهذه الطريقة على الاقل .

جلست على كيس الشعير وتلفظت بنفس الحقد الذى احتفظت به الى حد القنوط الكئيب القاتل :

– لم يستطع رجلى المشؤوم ان يبقى حيا . . . لماذا تنظرين الي هكذا ؟ الست محقة ؟ – انهالت على ناستيونا التى تطلعت اليها بدهشة – خلف اطفالا ثم . . . سقط شهيدا . فماذا افعل بشهادته ؟ هل اطعم الاطفال بها ؟ – اومات نادكا الى المنزل الذى ظل فيه اطفالها الثلاثة وبكت وهى تمسح الدموع من وجهها المترب . – من الذى سيتزوجنى ومعى هذا الطابور ؟ اننى فى السابعة والعشرين فقط . سبعة وعشرون عاما لا غير ، وحلت الخاتمة . فليذهب كل شىء الى الشيطان .

انتهى العمل فى ذلك اليوم . جمعت ناستيونا ونادكا كمية الشعير المعروضة للريح وانصرفتا الى منزليهما بعد ان عرجتا على مديرة المستودع واخبرتاها بان تغلق العنابر .

فى البيت حتى سيميونوفنا تركت مضجعها على دكة الفرن الحجرى وراحت تجرب رجليهـــا المتورمتين وهى تئن وتتأوه وتجلس بعد كل خطوة تخطوها . وكان ميخيتش يجوب الغرفـــة قربها منفعلا متحيرا . وعندما دخلت ناستيونا سألها فرحا :

– هل سمعت ؟ مكسيم فولوغجين وصل .

– سمعت .

– الم تذهبى اليهم ؟

– كلا .

– يجب ان تذهبى . . . ربما يعرف شيئا عن اندرى .

– لماذا لا تذهب بنفسك يا شيخ ؟– قالت سيميونوفنـــا متأوهة – ذلك افضل ، فهى لا تشتطيع ان تشاله كما يجب .

– ما الداعى للسؤال ؟ اذا كان لديه ما سيقوله سيقوله .

– اوى ، افعلوا ما تريدون .

لاحظت ناستيونا ان ميخيتش صار يتحاشى الناس ويخشاهم فى الآونة الاخيرة منذ ان ضاعت آثار اندرى . فى الاسطبل الذى يعمل فيه لا مناص من ملاقاة الناس بالطبع ، ولكنه عندما يعود الى المنزل يظل فيه ، وقد قلل من تردده على الشيـــوخ لاجل التدخين وتجاذب اطراف الحديث . وحتى عندما يزورونه يلزم الصمت فى اغلب الاحيان . وظهرت لديه عادة هز الراس اثناء الحوار وكأنه موافق على ما يقال له ، والاصح انها تلزمه كى يقلل من الكلام . عندما يغرق فى تاملاته يصادف ان يهز راسه وهو لوحده ، حيث يحدق فيما امامه بعينين جامدتين خاليتين من اى اثر للحيوية . ومن المستبعد انه يعرف ما يشغل باله فى تلك اللحظات وما يقنع به نفسه على انفراد . ولكنه متاكد من شىء مبهم داهم لا يبعث على الفرح ، وهو ينتظر شيئا ما بكل تاكيد .

فى ذلك العام كان فى منتصف العقد السابع من حياتـــه . شارباه متدليان الآن بلون الصدأ الباهت بعد ان كانا قبيل الحرب معقوفين الى اعلى كشوارب الشباب . ثم ان مظهره كله مثقـــل بالارهاق وخيبة الامل بحيث لا ينعشه لا النوم ولا الاستجمام . انه يسير بقامة معتدلة ورأس مائل الى الوراء . وفى السنـــة الاخيرة صار يجرجر رجله بصورة اشد بعد ان اصيبت فى الحرب العالمية الاولى . ولكنه حالما يجلس يطأطئ راسه ويغلق عينيه بعض الشىء ويغوص فى سعال عميق مدو ينطلق من داخل بدنه الضخم المشبع بدخان التبغ . وينفد صبر سيميونوفنا فتصيح عليه من دكتها فوق الفرن كى يكف عن السعال ، ولكنه يواصل

سعاله دون ان يلتفت اليها ، ثم يخرج الى الحوش ، وهو يسعل ، فيشغل نفسه بعمل ما ، ويهدأ سعاله فى اثناء ذلك على نحو غير ملحوظ ، ولكنه يظل امدا طويلا يتنفس بعسر وبصفير مسموع . وفى اغلب الاحيان يكبت سعاله بنفس ذلك التبغ وكأنه فى دوامة ابدية من النشوة : وداونى بالتى كانت هى الداء . وكلما استمر فى ذلك كلما ازداد سعاره ونفد صبره . غدا صوته مخنوقا ابح ، وعيناه شبه مغمضتين وكأنما اناخ على جفونهما عبء ثقيل ، وصار وجهه النحيل اكثر نحولا . لقد تدهورت صحة ميخيتش خلال عام واحد الى درجة جعلت ناستيونا ، وهى تفكر فى ذلك ، تخشى من العاقبة . قال لناستيونا طالبا منها الذهاب الى منزل مكسيم :

– اذهبى ، يا بنتى . فعلي ان امر بالاسطبل .

عرجت ناستيونا على نادكا كيلا تذهب لوحدها الى منزل فولوغجين . وكانت تلك ، كعادتها ، تتشاجر مع اطفالها . فقد جلست ابنتها الصغرى ليدكا ، التى ولدت بعد التحاق ابيها بالجبهة ، على الارضية وراحت تبكى باعلى صوتها لانها قد ضربت توا على ما يبدو . وكان بيتكا ينتحب قرب السرير ، اما الابن الاكبر رودكا فقد انزوى ووجهه الى النافذة . وكانت نادكا تصف الصحون بضجيج فى ركن المطبخ الضيق وتنهر الاطفال باعلى صوتها بين الحين والآخر كى يكفوا عن البكاء . ثم اخذت تتشكى لناستيونا :

– اردت ان اقتصد فى رغيف الخبز كى يكفيهم ليومين ، واذا بهم ينسفونه فى الحال . اليسوا ثعابين لا تشبع ، قولى لى ، اليسوا ثعابين لا تشبع ؟ ملاعين ، لقد اخفيته عنهم ، فعثروا عليه ، ابتلعوه دون ان يغصوا به . ستتلقون جزاء ما فعلتم ، ستبقون ثلاثة ايام دون طعام . هل ستسكتين ام لا ؟ – صاحت من جديد على ليدكا . – سوف تجننينى ، وساعلمك . ما اوقحها ، ملأت بطنها ، وتبكى وكأنما انا المذنبة . يا الهى ، متى تخلصنى منهم ؟ بم ساطعمهم ؟ لم يبق عندى طحين الا لرغيف واحد لا غير . وبعد ذلك ماذا افعل ؟ هل اضعهم جميعا وانا معهم فى كيس واحد والقى بهم فى النهر كالقطط ؟ طلبت الطحين

مرتين وبكيت من القهر والالم ، فمن يعطينى طحينا بعد الآن ؟ اما هم فلا يريدون ان يفهموا شيئا . وهذا ، الارعن الطويل ، لم يعد صغيرا – اومأت نادكا بيدها الى جهة رودكا – اليس من الواجب ان يفهم شيئا ؟ كلا ، لا يريد غير ان يبتلع الطعام الآن ويخدع امه . فهل اخفيت الرغيف من اجل نفسى ؟ اخفيته من اجلكم يا ملاعين ، يا شياطين ، اخفيته حتى تاكلوا غدا ، وحتى لا تفطسوا من الجوع . اما الآن فافطسوا ، ولن اتاسف عليكم ما دامت هذه افعالكم .

– سيذوب جليد انغارا قريبا فاصيد السمك – دمدم رودكا من النافذة .

– اغلق بوزك انت . فنحن نعرف صيدك . فى العام الماضى اتخمتنا بالسمك ، وستتخمنا به العام الحالى ايضا . ولا ادرى ماذا سنفعل بعظام السمك . قف هناك واكرمنا بسكوتك ، والا . . . لا داعى للثرثرة . انت صياد فى المستودع وليس فى انغارا .

لم تستطع ناستيونا ان تقاطعها الا بصعوبة كبيرة :

– فلنذهب ، يا نادكا ، لنرى مكسيم . نرى كيف صار الرجال الآن ونعود فى الحال .

– ما الفائدة من رؤيته ؟ نعذب انفسنا لا اكثر . فلا فائدة من النظر الى سعادة الغير .

– الا تريدين ان تذهبى ؟

– انتظرى قليلا . سأذهب معك . ولكن فلارتب الامور حتى يمكن تركهم لوحدهم . لماذا تقف هناك كالصنم – صاحت بابنها رودكا – احضر حطبا وسخن الفرن . واحذرك من الهرب . انظروا كيف زعل وكيف يفكر بالهرب . ستبقى فى البيت المساء كله . هل فهمت ؟ ولن يخرج احد من باب المنزل .

فهمت ليدكا ان امها تنوى الذهاب فقالت متباكية :

– خذينى معك ، خذينى .

لوحت لها امها بمقبض المقلاة من ركن المطبخ فلاذت ليدكا بالصمت متفهمة . وقالت الام :

– هكذا . اجلسى فى مكانك بهدوء . تريد ان تذهب معى !

لم اتشاجر معهم حتى الآن امام الناس . كل الاطفال ابناء اوادم اما هؤلاء فهم شياطين ، انهم لعنة من الله نزلت علي . فما الذى سيحدث لهم ؟ من يدرى ما الذى سيحدث لهم ؟

رفعت ناستيونا ليدكا من الارضية وحملتها الى السرير دون ان تشعر بثقلها تقريبا . وعلى السرير انكمشت الطفلة فورا كشليلة كروية وراحت تنتحب وترتعش بكل بدنها الصغير واغلقت عينيها مدركة تماما انها لن تتلقى اليوم اية فرحة من احد وان افضل ما تفعله هو ان تغفو ولا تستيقظ حتى الغد . مسدت ناستيونا شعرها ولكن ليدكا ارتجفت من تلك الملاطفة بصورة اشد ، مما جعل ناستيونا تتركها وشانها .

بديهى ان نادكا لا تستحق المديح ، ولكن من الصعب لومها على لعلعتها . لقد كانت قبل الحرب ايضا امراة مصياحا ، وليس من قبيل الصدفة انها لم تتمكن من العيش بوئام مع حماتها التى كرهت نادكا بسبب شراستها . وسرعان ما اضطرت نادكا وزوجها فيتيا الى العيش فى عائلة منفصلة . اقارب نادكا يسكنون فى مكان ما قرب نهر لينا . اما فى اتامانوفكا فكانوا يعتبرونها نازحة غريبة . وقد حالفها الحظ فى الزواج من فيتيا ، فهو كدود هادئ طيب القلب . ومهما تمادت نادكا فى صياحها ولعلعتها فهو يمسح خصلته الشقراء التى تتدلى على جبهته ويبتسم . وعندما يمل من ذلك يحتضنها مازحا ويضرب ردفها براحته الواسعة كالمعول فتهدأ نادكا . والحقيقة انها ليست مشاكسة ، فهى مصياح لا اكثر . وحيثما توجد نادكا يتعالى من كل بد لغط وهذر وقهقهة ونوادر تعانى هى من عواقبها اكثر من الآخريات ، ولكن ذلك لا يتعالى بدونها . ولولا الحرب لرق فؤادها ولاصبحت اكثر لينا قرب اطفالها وقرب فيتيا . كانت الامور فى الآونة الاخيرة قد سارت فى هذا الاتجاه ، لولا الحرب ولولا مقتل فيتيا فى اول شتاء منها ، حيث صعق نادكا وجعل قلبها جاسئا . فراحت تبكى وتنوح لوفاة فيتيا حتى ان الدم تجمد فى العروق من صراخها . كانت نادكا قد وضعت لتوها ، وكان الآخرون يحملونها على الذهاب الى البيت لارضاع طفلتها ، بينما تفر هى تارة الى الغابة وتارة الى الشاطئ . وكان اهل اتامانوفكا يخشون جديا من انها

قد تنتحر . الا انهم اخطأوا الظن . فقد تألمت نادكا وحزنت ، ولكنها ذهبت الى العمل لتكد وتكدح من اجل اطعام اطفالها . فلا احد يمكنها ان تعول عليه . فان حماتها التى كرهتها اشد الكراهية لم تتقبل احفادها . ومهما بذلت نادكا من جهود فان الفاقة اخذت بخناقها . والقمح الاضافى المخصص لعوائل الشهداء استلمته منذ الشتاء ، وفيما بعد راحت تكد وتكدح يوما بعد يوم ولم يكفها ما تكسبه لا لسد الرمق ولا لشراء الالبسة . الاطفال كلهم يشبهون فيتيا : شقر ، ميالون للصمت . ثم ان الحرب وطباع نادكا المهزوزة جعلتهم هادئين خجولين خائفين ، حتى بدا وكانهم انفسهم لا يصدقون بانهم سيظلون على قيد الحياة . يخرجون ثلاثتهم من بوابة السياج ويتطلعون الى الشارع فى انتظار امهم . ومظهر هؤلاء اليتامى المساكين يثير الشفقة لدى الانسان الطيب حتى يعتصر قلبه الما فينادى ذلك الشخص رودكا ويتمشى معه ويدس فى يده شيئا . ويرفض رودكا ، تصوروا انه يرفض . ناستيونا تعطف على اطفال نادكا على قدر المستطاع ، وخصوصا الصغيرة ليدكا . ولكنها فى الاسابيع الاخيرة نسيتهم تقريبا بسبب مصيبتها . والآن احست ناستيونا بذنبها ازاء هؤلاء الاطفال وهى ترفع ليدكا المنتحبة من الارضية الى السرير .

حل الغسق اثناء الوقت الذى صرفته ناستيونا فى انتظار نادكا ، وتجمد الثلج ، بعد ان غدا هشا فى دفء النهار ، وراح يصر تحت الاقدام صريرا مريحا . بدا الطرف السفلى من القرية خاليا مواتا ، فلا صوت ولا نامة ، سوى ضوء خافت ينبعث من نوافذ العجائز فى بعض المنازل . وحتى الكلاب هرعت الى منزل فولوغجين ، وتهادى من هناك نباحها الفرح المختلط . كما تهادى من هناك لغط الاطفال وصياحهم . سارت ناستيونا ونادكا صامتتين بمشية مهيبة دون تكلف ، وقد احتواهما جو الفرحة العارمة التى اجتاحت الجميع . فلأول مرة وصل من الجبهة ، من المعارك الطاحنة ، شخص حى ليظل معهن . وصل كرسول وبشير من جميع الرجال : قريبا ، يا نساء ، قريبا جدا . قريبا سيتضح كل شىء بصورة نهائية . فمن قدر لها ان تنوح وتندب آخر امل

لها ، فلتنح وتندب ، ومن قدر لها ان تفرح فلتفرح ، ولكن على الجميع ان يبدأوا حياة جديدة .

كان منزل فولوغجين صاخبا غاصـــا بالناس . ومن سقف «غرفة الاستقبال» الواسعة تدلى مصباحان كبيران ينيران المائدة . وعلى رأس المائدة جلس هو ، مكسيم . بدا نحيفا نحيلا اسمر الوجه بشعر قصير حليق كشعـــر السجنـــاء وعينين واسعتين تغمرهما السعادة والفرحة والحيرة . يده اليمنى مضمدة تتدلى من رباط شاشي اثقل رقبته . وعلى جانبه الايسر جلست ابنته فيركا ، وهي ابنته الصغرى في ربيعها السادس ، جلست على ركبتيهـــا وراحت تداعب المداليات على قمصلة ابيها . اقتربت نادكا اولا وصافحت مكسيم محيية :

– اهنئك بالعودة !

وكررت ناستيونا على اثرها :

– اهنئك بالعودة .

جلس الشيوخ والنساء على مصاطب حول طاولتين صفتا معا فتشكلت منهما المائدة . والى يمين مكسيم جلس نسطور المنتشي بالخمر بعد ان دس بدنه الثقيل بينه وبين والده ، الشيخ يفيم ، وكأنه صديقه الحميم . والى يسار مكسيم خصص مكان لليزا ، ولكنها ما كانت لتستطيع اكثر من التراكض فيمـــا بين المطبخ وغرفة الاستقبال . ليزا تشع نورا ينبعث من وجههـــا الشاحب الكئيب عادة ، ومن عينيها اللتين تغصان بالفرحة ، ومن صدرها المكور تحت القميص الازرق . النور ينبعث بكل طاقتـــه من كل شيء فيها . اجلست ناستيونا ونادكا ولم تضبط اعصابهـــا فعانقتهما وعصرتهما وهمست قائلة :

– في الصباح لم اكن اعرف شيئا . كنا ننظف الشعيـــر سوية . الشعير . . . – بلعت ريقها وضحكت وانصرفت مسرعة .

ابتسم مكسيم وتطلع اليهما ، الى ناستيونا ونادكا . جلستا قبالته عند الجانب الآخر ، البعيد ، من المائدة . غضت ناستيونا الطرف وسمعت مكسيم يسألها :

– وانت ، يا ناستيونا ، متى ستستقبلين زوجك ؟

انكمشت ناستيونا واحتقن وجهها فاجابت باكثر ما تستطيع من الهدوء ودون ان ترفع راسها فورا :

– لم اعد اصدق باننا سنتلاقى . لقد ضاع رجلي في مكان ما . . .

– من ؟ اندرى ضاع ؟

– رقد في المستشفى . . . كان جريحا ايضا . وبعد ذلك بعثوه من جديد الى الجبهة – تكلمت ناستيونا وهي تحس اكثر من اي شيء آخر بنظرة اينوكينتي ايفانوفيتش المتفحصة المسلطة عليها – ومنذ ذلك الحين لا خبر جاء ولا وحي نزل . لا ادرى . . . لا اعرف شيئا .

– لا بأس ، سيجدونه .

– الحقيقة . . . لقد ضاع فعلا – شرع اينوكينتي يوضح القضية متطلعا الى ناستيونا بين الحين والآخر – فطالما جاءوا الينا من اجل التحقيق في الامر وسألونا ، فذلك يعني انه غير موجود ، حسب الوثائق ، في اي مكان .

– ربما اخذوه في الطريق الى وحدة اخرى . فذلك يحدث كثيرا . اما الرسائل فلا تصل كلها الآن – قال مكسيم واثقا ، فشعرت ناستيونا بالارتياح لهذه الثقة وكأنها لا تعرف عن اندرى شيئا بالفعل .

من اين لليزا بكل هذا الطعام ؟ فهي لم تكن تنتظر ولم تكن تعرف شيئا ، ولكن المائدة جاهزة . واضح انهم ذبحوا الدجاج اليوم ، غير ان البني المملح اعد في الصيف واحتفظوا به ، على ما يبدو ، لهذه المناسبة . وكذلك العرق المنزلي الذي عتق في هذه الخابية اعواما . كذلك هو الحال عند الاخريـــات اللواتي ينتظرن من ظلوا على قيد الحيـــاة : يجوعن انفسهن ولا يطعمن الاطفال بالقدر الكافي لكي يحتفظن بشيء من الطعام لهذا اللقاء . وما اكثر الدموع التي اراقها بعضهن من اجل هذا الاحتياطي ! في الخريف الماضي تسلمت اغافيا سوموفا اشعارا بمقتل ابنها ، فبكت وولولت في الايام الاولى ثم جمعت النسوة واخرجت الكحول الذي طواه النسيان ابان الحرب واعدت مختلف الاكلات بالاضافة الى الزلابية والمهلبية ، وشربوا الكحول في ماتم التابين . لم يكن

ذلك حال اغافيا وحدها . فان عددهن كثير . ولا يعرف بعد من التى اعد لها المصير مثل هذه النهايـــة . ولحد الآن ليزا هى الوحيدة التى لم تخطئ بهذا الخصوص .

صبت ليزا المزيد من العرق فى الاقداح فعم الصخب المائدة . وهم نسطور بالانشاد ، ولكن احدا لم يشد من ازره ، بل ان احدا لم ينتبه اليه عموما . وترك بعض الشيوخ المائدة وجلســـوا القرفصاء قرب الجدار وراحوا يدخنون . وفى مكانهم هذا استلموا الاقداح من ليزا دون ان ينهضوا وطرقوا اقداحهم بعضها ببعض اشارة الى مواصلة الشرب . ونهض اينوكينتى ايفانوفيتش وجلس قرب مكسيم وبدأ يتحدث معه فى جد عن اميركا – كيف تحارب ؟ ومتى يمكن توقع اندلاع الثورة هناك ؟ كان مكسيم يجيب على مضض ، اذ كان واضحـــا ان اينوكينتى ايفانوفيتش يعرف عن ذلك اكثر ، وخصوصا عن الثورة . راود النعاس فيركا فى حضن ابيها . وارادت ليزا ان تحملها الى السرير ، ولكن فيركا تشبثت بابيها وصرخت ، فتركتها امها وشانها . وسال احدهم ، وراح مكسيم يجيب ، ولعله يجيب ليس للمرة الاولى كما يبدو ، كيف ارادوا ان يبتروا يده فى المستشفى ، ولكنه رفض رفضا باتا ، لاسيما وانها اليد الرئيسية ، اليمنى وليس اليسرى ، وبدونهـــا يغدو المرء عاجزا كليا . الا انه يتعين عليه الآن الاهتمام بها طوال الوقت . وبعد ان تجرعت نادكا قدحـــا من العرق سألت باهتمام :

– هل يمكن . . . هل يمكن ازاحتها الى جانب ؟

– الى اى جانب ؟ لماذا ؟

– فى الليل الن تعيقك ؟

ضحك مكسيم واجاب :

– اذا كانت ستعيقنى فان ليزا تبترها .

فاعلن نسطور مخمورا :

– ساطردك من التعاونية ، يا نادكا ، بسبب هذا الحديث .

– اتحفنا بسكوتك يا طراد . فربما يطردونك انت – اهتاجت نادكا ، ولكن بدون حقد ، من اجل النكتة فقط – سياتى الرجال

وسيلقنونك درسا . كفاك تامرا وتسلطا على النساء . واذهـــب الى حيث القت رحلها . . .

– هل تسلطت عليكن يا نساء ؟ هل تسلطت ؟ – تشكى نسطور بزعل .

ولزمت النساء الصمت .

– لا تنصت الى ما تقول – هبت فاسيليسا روغوفا للدفاع عن نسطور . وهى امراة بدينة ثقيلة الحركة لم يصبها الهزال اطلاقا اثناء الحرب ، ولها صوت جهورى ثخين ايضا . وقد اعتاد اهل القرية على نعتها باسم فاسيليسا الحكيمة * .

– كيف لا ينصت ؟ أليس ذلك صحيحا ؟

– لا ينبغى ان تقولى امام الناس ، يا نادكا ، كل ما يأتى على طرف لسانك – نصحتها فاسيليسا الحكيمة بلهجة مهيبة – ما كاد يصل الجندى من الجبهة ويجتاز عتبـــة داره حتى بدات تلمحين له .

– اى تلميح ؟ ان اول ما يفعله بالطبع هو ان يجلس طول الليل يستمع الى الحكايات التى نقصها عليه وينسى ليزا . يده فقط جريحة ، على ما يبدو ، اما كل ما تبقى فهو على ما يرام .

ضحك مكسيم من جديد ، وقهقه الشيوخ على اثره قهقهـــة مخلوطة بالسعال . واستمرت نادكا فى الهجوم :

– انا اعرف ، يا فاسيليسا ، انك تخافين منى . وانت على حق . فعندما يصل غافريلا ساتعلق فى رقبته بسرعة . فانا اصغر منك سنا ، ولن تستطيعين ان تنافسينى .

– اننى واثقة من غافريلا – اجابت فاسيليسا ساخرة .

– ما الذى يجعلك واثقة ؟ فهل هو قديس ؟

– ليس قديسا ، ولكنه لن يلتفت اليك . ما الذى يجعله يستبدل طير الجنـــة بعقعق ابلق ؟ انت عقعق لا تعرفين غير الثرثرة .

– انظروا الى هذه التشابيـــه ! – هتفت نادكا مسرورة على عجل – انا عقعق ، ربما . ولكن من اين جاء طير الجنـــة هذا ؟ أليس هو ذلك الطائر الاسود الذى لا يعرف غير النعيق ؟

* بطلة احدى الحكايات الروسية . **المترجم** .

– كلا ، يا نادكا ، – تدخل اينوكينتى ايفانوفيتش فى الحوار وسالت على لحيته الشقراء ابتسامة مخادعة – لن تتمكنى من نبش التربة تحت فاسيليسا فاساسها عميق متين . وغافريلا يبعث طروده من الجبهة ليس اليك . كم طردا بعث هذا العام ؟ خمسة ؟ – التفت الى فاسيليسا – او اكثر ؟

ارتبكت فاسيليسا وقالت :

– لم اعدها .

فعلقت نادكا بسخرية :

– انها لم تفتحها . فهى تستخدمها بدلا من المصاطب .

– ليس من اختصاصك كيف استخدمها .

غير ان نادكا اطلقت العنان للسانها ولم يعد من اليسير ايقافها . وسالت من ليزا :

– كم طردا استلمت من جنديك ؟

– لم استلم ولا طردا واحدا .

– لو كنت بدلك لما سمحت له بان يجتاز عتبة الدار . فلماذا تبقين حمقاء كالطير المنتوف ؟ ولماذا انت فرحانة ؟

– لست بحاجة الى اية طرود – ضحكت ليزا سعيدة – قلت اليوم : فلننحر البقرة . وابى شاهد ، قلت : فلننحر البقرة حتى نحتفل بالشكل اللائق . ولكنهم نهرونى ، فقلت : اذبحوا ، اذن ، كل الدجاجات كيلا اراها بعد الآن . ارادوا ان يوفروا حتى الدجاج . سنستعيد ذلك كله ان شاء الله ما دمنا معا . فانا لوحدى كدت اهلك واموت من الحزن ، وكدت انتحر .

– كدت تهلكين ؟ – سالت نادكا ممططة كلامها ، ومستحثة اياها لمواصلة الكلام :

– كدت اهلك ، اهلك .

– وكدت تنتحرين ؟

– نعم .

– لماذا تمثلين وتتظاهرين ، يا ليزا ؟ – واصلت نادكا كلامها بحذر ، ثم نفد صبرها وارتعش صوتها غيظا وارتفع : – فهل يعنى ذلك ان علي انا وكاتيرينا وفيرا وكابيتولينا ان ننتحر جميعا ؟ وهل تعتقدين بانك كنت تحبين زوجك اكثر من الاخريات ،

وانك انتظرتيه اكثر مما انتظرن ؟ وهل تظنين باننا نحن ضيعناهم ؟ فانت ، يا ليزا ، لا تعرفين جيدا ماذا حل بنا ، ولذا فلا تقولى شيئا . الانتحار ليس بالشيء الصعب ، ولكن الاطفال ، ماذا افعل بهم ؟ لم يخلف فى هذه الدنيا غير الاطفال فهل يجوز ان يهلكوا ؟ انت لا تعرفين كيف احترق كل شيء فى الفؤاد وتفحم فلم يعد يؤلم ، ولكن الفحم ينساب ويغطى كل المسامات . . . وانت ستعيشين امرأة وزوجة ، وستعانقين وتقبلين ، اما انا فلا . اننى مجرد يد عاملة ، وسيلة لسد الثغرات ، مجرد بقرة حلوب . اما حياتى الخاصة فقد انتهت . ولو كنت اعلم بهذه النتيجة لتمتعت بالحياة فى السابق لكى يبقى فى الذاكرة ما يستحق ان اتذكره . فقد كنت اؤجل كل شيء الى ما بعد ، حتى تاخرت فى التمتع بالحياة الرغيدة . اما الآن فكل ما اتذكره هو الحرب ، ولا شيء يمكن ان يمحوها من الذاكرة . كل ما عداها تبخر وجف فهو غير موجود .

شعرت ليزا ببعض الذنب فقالت :

– اوى ، معذرة يا عزيزاتى ، فربما قلت ما لا يليق .

– من الذى يلومك ؟ عيشى بدلا عنا جميعا ما دمت محظوظة . ولكن احذرى : اذا تصرفت بسوء فلن نرحمك . اؤكد لك : لن نرحمك . وانا اول من يحفر لك بئرا . فلسنا مذنبات فى ان ازواجنا سقطوا هناك . الست محقة ، يا عزيزى مكسيم ؟ لسنا مذنبات ، اليس كذلك ؟

– بلى .

– نعم . لنا كل الحق فى الحقد على مصيرنا . وسنحقد عليه حتى الموت . اما انت ، يا ليزا ، فليس لديك سبب لذلك . ينبغى لكما الآن ان تعيشا وتفرحا بالحياة ، وكل شيء يتوقف عليكما وحدكما . واذا اخفقتما فسوف تقولين لنا ، قبل غيرنا ، ان مثل ذلك يمكن ان يحدث معى او مع هذه او مع تلك لو ان القدر راف بنا . فاعلمى انه يصعب علينا ان نسمع ذلك . ونحن لا نريد ان نسمع به اطلاقا ، هل انت فاهمة ؟

فتح الباب بصخب وهرع الاطفال الى المنزل . همت ليزا بطردهم ، ولكنهم صاحوا بصوت واحد :

– هذا الولد لم يستلم .
– الآن جاء .
– يا عم مكسيم ، هذا الولد لم يستلم .
ودفع الصبية رودكا الى المائدة . اهتاجت نادكا صائحة عندما راته :
– كيف جئت ؟ بماذا امرتك ؟ ماذا قلت لك ؟ اذهب من هنا ، حالا .
لم يتحرك رودكا من مكانه وظل يحملق بمكسيم باهتمام ممض متعطش . تلاقت نظرة مكسيم مع نظرة رودكا هذه فوضع ابنته على الارضية بهدوء ونهض ، وسأل بصوت مكبوت ابح بعض الشيء :
– انت رودكا ؟
هز رودكا راسه بالايجاب على عجل . فاقترب منه مكسيم ومد له يده السليمة :
– مرحبا اذن . انظروا كيف نما بسرعة ، انه رجل لا يعوزه شيء . لماذا تاخرت ؟ – تناول من الرف كعكعة مستديرة مزخرفة ، كالكعكات التى اعداها لجميع الاطفال وسلمها لرودكا الذى اخذها منه – تلك هى الهدية وليس عندى اكثر . كلها يا عزيزى ، فهى لذيذة . وغدا تعال الي اذا كان لديك وقت وسنتحدث . اما اليوم فليس هناك مجال كما ترى . هل ستاتى غدا ؟
هز رودكا راسه من جديد وتراجع الى العتبة . فالتف الاطفال حوله وخرجوا صاخبين .
عاد مكسيم الى مقعده وهو يكرر بدهشة كئيبة :
– كيف نما بسرعة ؟
– انهم ينمون ، – اكد نسطور بحماس ، وهو كعادته متعطش للمبادرة الى الكلام – انهم ينمون بالرغم من الحرب .
– هل ستنتهى الحرب قريبا ؟ – سألت ليزا – انت يا عزيزى مكسيم عائد من هناك . قل لنا هل سيطول الانتظار ؟
– بالنسبة لك الحرب انتهت – قالت نادكا بصوت خافت ، ولكن ليزا سمعتها رغم ذلك وزعلت :

– لماذا تعتقدين بانها انتهت بالنسبة لى ؟ هل تتصورين انه لا يعنينى شيء طالما هو هنا ؟ انك تثيرين دهشتى . فانا لست قاسية القلب افرح لسعادتى رغم تعاسة الجميع . ولا اعيش فى ضيعة منعزلة فلا ارى ابعد من طرف انفى . اننى اعيش مع الناس .
– قريبا ، يا نساء ، قريبا – اجاب مكسيم – انتم تعرفون ان قواتنا وصلت الى المانيا نفسها . وسوف تسحقهم نهائيا .
– أفلا يعودون ؟ الالمان وصلوا الى ضواحى موسكو وطردناهم .
– كيف يعودون ؟ – ضيق مكسيم جفونه واعتدل مشرئبا الى الامام وكانه يحدق فى افق لا يعرفه غيره . وقد اعوج وجهه بعض الشيء – كلا ، لن يعودوا ، يا ليزا . سأذهب الى الجبهة مجددا بيد واحدة ، وسيتوجه اليها مبتورو الارجل والمشوهون ، ولن نسمح للالمان بالعودة . كفاية . لا يمكن ان يعودوا ، لن نسمح لهم بالعودة . فلسنا من الذين يسمحون للمعتدى بالعودة .
وهزت فاسيليسا الحكيمة راسها :
– اربعة اعوام ، أليست كافية ؟ ثم اننا نحن هنا تدمرنا ايضا .
لم تفوت نادكا لها هذا الكلام :
– لا يبدو من مظهرك انك تدمرت .
– آه ، يا نادكا . . . من اين اجد الذى يقص لسانك ؟ الحديث جدى ، اما هى فتتدخل فيه بنغزاتها .
– تضررنا نحن ايضا – عقبت ليزا – أليس صحيحا يا نساء ؟ ان مجرد تذكر ذلك يثير اشد الآلام . العمل فى التعاونية شيء طبيعى . ولكن حالما ننتهى من جمع الغلة يتساقط الثلج ونعمل فى اعداد الاخشاب . لن انسى تلك الاخشاب مدى الحياة . الطرق معدومة ، والخيول مرهقة عاجزة عن السحب . ولا يمكن رفض العمل : فان جبهة العمل عون لرجالنا . تركنا اطفالنا الصغار فى السنوات الاولى . . . ومن ليس لديه اطفال او ان اطفاله اكبر سنا فقد عمل ليل نهار . هذه ناستيونا لم تفوت ولا شتاءا واحدا . وحتى انا عملت شتائين ،

تركت الاطفال على والدى ، وعملت . نكدس الاخشاب ، تلك الامتار المكعبة ، على الزحافات ونمسك بالرمح . فبدون الرمح لا نخطو خطوة واحدة ، اذ ان الزحافة تارة تميل نحو اكوام الثلج ، وتارة تميل الى منخفض ، ولا من معين . يا نساء وجهن الزحافة بالرمح . هيا ، هيا خلصن الزحافة بكل ما عندكن من قوة . ونخلص الزحافة مرة ، ولا نخلصها مرة اخرى . ها هى ناستيونا شاهدة . فى شتاء العام الاسبق كانت فرسى هابطة من التلة بسرعة ولم تستطع ان تستدير بالشكل اللازم عند المنعطف ، فانقلبت الزحافة على جنبها وغاصت فى الثلج وكادت تكسر قوائم الفرس . بذلت كل جهدى لتخليص الزحافة فلم اتمكن . ضعفت قواى فجلست على الدرب ابكى وانتحب . وبعد ذلك وصلت ناستيونا ، ورأت دموعى تجرى على خدى . — اغرورقت عينا ليزا بالدموع — فساعدتنى ، وتوجهنا معا ، ولكننى لم استطع ان اكف عن البكاء . — راحت ليزا تنتحب متأثرة بالذكريات — كنت ابكى وابكى ولا اتمكن ان افعل شيئا .

— ليزا ، يا ليزا ! — ناداها مكسيم لتكف عن البكاء .

— حسنا ، يا عزيزى مكسيم ، لن ابكى . بكيت بسبب غبائى . تحدثوا انتم ولن اقاطعكم — ذهبت الى المطبخ وعادت فى الحال ووقفت فى نفس المكان عند طرف المائدة ، مضطربة متأثرة وعاجزة عن السكوت ، فقالت : — والسندات ، هل تتذكرون السندات ؟ اخذنا آخر بقايا البطاطس فى الربيع لنبيعها فى كاردا على العاملين فى تخزين الاخشاب لكى نسدد ما علينا من اثمان السندات حتى نساعد المحاربين فى الجبهة . ونحن نعتقد بان مساعدتنا ستسهل عليهم الامور هناك ولو قليلا . اما نحن هنا فسنعيش على اى حال ، لا احد يطلق الرصاص علينا ولا احد يقتلنا . استعطف الله ان لا يرى الفاشيون الالمان الملاعين الهدوء فى الآخرة ايضا . فليأخذوا جزاءهم على كل شىء ، على كل مصائبنا .

التفتت نادكا الى ليزا متسائلة :

— لا ادرى من التى وصل زوجها اليوم ، انا ام انت ؟

— انا ، يا نادكا ، انا . لن ابكى بعد الآن .

— كل شىء عندكم بالمقلوب . — دمدم نسطور المخمور مغتاظا — ما اغربكم من بشر ! ودعتم الرجال الى الجبهة وانتم تغنون ، ونستقبل العائد كما فى ماتم . سمعنا نادكا بما فيه الكفاية . فلننشد الآن .

تململت نادكا ، ولكن الوقت لم يتسع لها كى ترد عليه . فقد بدأت ليزا ، من وراء ظهر ناستيونا ، تنشد اغنية «كاتيوشا» بصوت جهورى يرتعش قليلا من التأثر والدموع . وردد الآخرون مطلع الاغنية ، وكان فى مقدمتهم اينوكينتى ايفانوفيتش . غير ان الشيوخ المنزوين عند الجدار ظلوا يتمتمون فيما بينهم بهدوء . وانشدت فاسيليسا الحكيمة ، وانشد مكسيم ، وراح نسطور يلوح بيديه مرجّعا النغم . اشتركت نادكا فى الانشاد بعد ان تخلفت قليلا ، ثم لم تتمالك نفسها فالقت براسها على المائدة وراحت ترتعش فى نحيب شديد . عانقتها ليزا من كتفيها من الخلف ورفعت «كاتيوشا» الى اعلى فلم تتعثر الاغنية حتى عندما اعقبت نادكا فى النحيب فيرا اورلوفا التى راحت تبكى بصوت اشد . رفعت نادكا راسها ، واخذت قدح ناستيونا المليء بالعرق وتجرعته دفعة واحدة ، وانشدت من جديد دون ان تمسح دموعها .

لزمت ناستيونا الصمت منطوية على نفسها . لم تستطع لا ان تتحدث ولا ان تبكى ولا ان تشرب مع الآخرين . فقد ادركت اكثر مما فى السابق انه لا يجوز لها القيام باى شىء من ذلك . فليس لها حق فيه . وكل ما تفعله سيكون خداعا وتضليلا . لم يبق لها الا ان تستمع وتتطلع بحذر الى ما يقوله الآخرون وما يفعلونه ، دون ان تفضح سرها ودون ان تثير الانتباه . لقد اسفت لمجيئها الى هنا ، ولكن ليس من اللائق الانصراف . الكل هنا متفتح امام الانظار : ليزا السعيدة الفرحة ومكسيم المندهش لوجوده بين جدران منزله وسط اهله وذويه ، ونسطور المرتبك المتحير الذى انقلبت احواله فى غضون يوم واحد ، ومحاسب التعاونية اينوكينتى ايفانوفيتش المتظاهر بالذكاء وسعة الاطلاع والذى يحاول ان يعرف كل شىء قبل الآخرين ، وفاسيليسا الحكيمة الواثقة من نفسها والتى تخطو فى حياتها برزانة واطمئنان ، ونادكا الساذجة المشاكسة — كلهم مكشوفون صريحون منتهى

الصراحة . واذا كانوا يخفون شيئا – والانسان لا بد وان يخفى شيئا – فان ذلك هو القليل الذى يمس حياتهم الشخصية ويتسترون عليه بمقتضى الحاجة . اما ناستيونا فقد اخفت شيئا يمس الجميع لسبب ما ، وهو موجه ضد الجميع مهما كان التصيب الذى جاءوا به الى حفلة اليوم . انه موجه ضد نادكا ، وضد فاسيليسا الحكيمة ، وحتى ضد ليزا . فهذا السر وحد بينهن وفصل ناستيونا عنهن . وهن يعتبرنها واحدة منهن بقوة الاستمرارية وبالعادة ، فى حين انها صارت غريبة عليهن ولا يحق لها ان تستجيب لدموعهن ولافراحهن ولا تتجرأ على الدخول معهن فى حديث او فى انشاد اغنية .

نادكا تراوغ عندما تقول بانها ليست هى التى ضيعت فيتيا ، وانه سقط برصاصة العدو بمشيئته . انها تتحدث عن ذلك وتتساءل عنه لانها بالذات تشعر بذنبها . ربما لا تعرف على وجه الدقة فيم يكمن ذنبها ، ولا تفهم كيف كان بالامكان مساعدة فيتيا ، ولكنها تشعر بذنبها وتتألم . ولربما كانت ابتهالاتها اقل من اللازم ، ولربما تألمت له وفكرت فيه اقل من اللازم . فلماذا تكلل انتظار ليزا ، واخفق انتظارها هى ؟ لماذا لا يتبادر الى فاسيليسا الحكيمة شك فى ان زوجها غافريلا سيعود سالما معافى رغم ان الحرب لم تضع اوزارها بعد ؟ وسيعود فعلا . فان اناسا من طراز فاسيليسا الحكيمة وغافريلا لن يحدث لهم شىء . سينقرض الجميع ويهلكون ، اما هما فسيظلان معا يواصلان حياتهما المطمئنة . فلماذا تسير الامور على هذه الشاكلة ؟ لا بد من وجود سبب يتوقف على المرأة ايضا . لقد جهدت المرأة منذ القدم ، على ما يبدو ، لحل هذا اللغز وحاولت كشف هذا السر بنفسها دون التعويل على الصدفة والحظ فقط . وضاعت كل جهودها هباءا . فمن عصر لآخر كانت كل امرأة تستعين بحدسها وبتعويذتها الجامحة العمياء المتهيبة ، واذا لم يكن ذلك كافيا او متوفرا لديها فانها تتعذب وتشقى من الشعور بالذنب .

تعتقد ناستيونا هى الاخرى بان لها ضلعا فى مصير اندرى منذ ان غادر المنزل . فهى تتصور خائفة بانها عاشت ، على ما يبدو ، من اجل نفسها وكانت تنتظره من اجلها وحدها . وها هى النتيجة :

خذى ، يا ناستيونا ، ولكن لا تريه لاحد . انها وحيدة ، وحيدة تماما بين الناس : فلا ينبغى ان تتحدث او تبكى مع احد . يجب ان تحتفظ بكل شىء فى دخيلتها . ولكن ما العمل فيما بعد ؟ كيف يمكن انقاذه من هذه البلية ؟ كيف ستعيش لتساعده دون ان تخطىء ودون ان تضل سواء السبيل ؟ انها الآن مسؤولة عن كل ما يحدث له .

انسحبت من المائدة خلسة وخرجت الى الشارع . كان الوقت متاخرا . اوى الاطفال الى منازلهم ولاذت الكلاب باهلها . وعم الظلام والصمت الطرف السفلى من القرية . وقفت ناستيونا برهة قرب نوافذ منزل فولوغجين المضاءة التى انبعثت منها انغام الاغنية ، ثم استدارت نحو الزقاق المؤدى الى النهر . وشعرت بالارتياح لخلو الزقاق من الناس ، وهزت راسها لائمة : الى اين وصلت ؟ فى الماضى كنت تنشدين العزاء عند الناس ، اما الآن فانت ، على العكس ، تهربين منهم . خفت الالم فى داخلها ، ولكن انفاسها ظلت تتصاعد بانين ينم عن المرارة والشكوى . اخذت ناستيونا نفسا عميقا بملء الصدر فاخمدت هذا الانين المنبعث تلقائيا ، واوسعت خطاها على الجليد منحدرة على طول الشاطىء ومتحاشية الشقوق والحفر فى الجليد . كانت تسير وتتطلع طوال الوقت الى الشاطىء المقابل ، الى ذلك الركن الموات الذى لا يكاد يلاحظ من وراء الجزيرة ، والذى يضم اندرى واثقة ومتشككة ، متأكدة وغير متأكدة من انه موجود هنا ليس بعيدا عنها . وفى لحظة لاواعية منفلتة من سيطرتها تصورت انها ابتدعت وتخيلت كل شىء قبل دقيقة . فان عودة مكسيم خيال وهرب اندرى خيال . تصورت ذلك مجرد تصور وصدقت تصوراتها تلك . واذا توجهت الى اندرييفسكويه الآن لن تجد احدا . بيد ان تلك الفكرة الثقيلة تلاشت فورا ولم تخلف الا الاسى والكرب ، واقتربت الحقيقة القاسية التى لا ترحم : فهى لم تبتدع ولم تتخيل شيئا ، ذلك هو الواقع .

وعلى الشاطىء المقابل لمنزلها صعدت الى الضفة العالية والتفتت للمرة الاخيرة باتجاه اندرييفسكويه وتوجهت بخطى متثاقلة الى المنزل . فقد كان عليها ان تخبر ميخيتش بان مكسيم

لا يعرف شيئا عن اندرى . ولا يعرف احد عنه شيئا ، ما عداها هى . ذلك ما يجب ان لا تذكره فى اى حال من الاحوال .

١٠

فى الضحى ما كانت ناستيونا تنوى الذهاب الى ايما مكان ، ولكن عاصفة ثلجية هبت عند الظهر ، فتذكرت ناستيونا ان الماء فى البرميل قليل ، وطالما ان الطقس لم يجن حتى النهاية فقد اسرعت الى النهر . كانت الريح القارسة تهب بشدة على انغارا . وكان الثلج اللزج الرطب يتطاير الى اعلى بتيار عكر شديد ، كما يتطاير الى اسفل بريح الشمال . تطلعت ناستيونا ، كعادتها ، الى الشاطئ الآخر الغارق فى الدوامة الثلجية . وفكرت بانها لو ذهبت الى هناك الآن بسرعة فلن يراها احد . فكرت للحظة ودون قصد معين ، بيد ان قلبها تشبث بهذه الفكرة العابرة وانتفض : ماذا لو ذهبت حقا ؟ ماذا لو ذهبت رغم كل شىء ؟ فمتى ستحين مثل هذه الفرصة المؤاتيـــة ؟ عادت بالماء على عجل ، وصممت على الذهاب من كل بد منصاعة للجاجتها الشديدة . واثار لديها هذا التصميم المفاجئ فرحة مستميتة عارمة . وخيل اليها انه لو حاول اى كان ان يعيقها عن الذهاب لخدعته وذهبت من كل بد .

غير ان احدا لم يحاول ان يعيقها . ميخيتش فى الاسطبل ، وسيميونوفنا ، كالعادة ، راقدة على دكة الفرن . اخرجت ناستيونا من السرداب فى الحال دلوا من البطاطس ووضعت قسما منها فى قدر كيلا يقلق العجوزان اذا ارادا سلق البطاطس فى المساء ، اما الباقى فوضعته فى حقيبة مشمعة ، واسرعت الى العنبـــر واحضرت كيس الحمص الذى خباته مسبقا ، واقتطعت من رغيف الخبز نصفه . الخبز اصفر مخلوط بالحمص . فقد عم القرية كلها عهد الحمص والحياة الحمصية . لقد تفتق سخاء التعاونية مؤخرا فخصصت للعاملين فيها حوالى طن من الحمص ، فصاروا يتناولون حساء الحمص مـــع الخبز المخلوط بدقيقـــه ويأكلون الحمص المسلوق .

استعدت ناستيونا بسرعة حيث استبدلت الحذاء الذى ارتدته فى الصباح بجزمة اللبـــاد ، واستبدلت الصديرى بسترة من القطيفة ، وتطلعت فى المرآة للحظة باستحياء . ولعل اجتيـــاز النهر بالصديرى افضل ، ولكنها ارادت ان تبدو اكثر اناقة امام زوجها . وهو ربما لن يلاحظ شيئا ، فلا يوجد هناك من يقارنها به . غير انها فى فستان يوم العطلة تشعر بالاستجمام وحســـن الهندام . فعندما تخلع بدلة العمل تخلع معها ثقلا مرهقا وتبعية ثقيلة كعدة الخيل هى تبعية العمل حيث لا تدرى هل هى امراة ام لا ، ولا تتذكر فى اى سن هى وماذا فى فؤادها . انها لا تتذكر آنذاك شيئا غير الكد والكدح والعمل الثقيل . ولذلك اعتـــادت ناستيونا فى المساء ، بعد انتهاء الاشغال ، ان ترتدى ولو لامد قصير ملابس نظيفة ، وعند ذاك يعاودها ، عفويا ، الاحســـاس بالفتوة والجمال ، تلك الثروة المتقلبـــة الاطوار التى تتلاشى بسرعة كلما اخفتها المراة ونسيتها . وعندما ترتدى ناستيونـــا ملابسها تلك تتهادى بحذر وكانها تخشى الاضرار بشىء فى دخيلتها وتبتسم برقة ودفء وكانها تحافظ من جديد على سر خاص بها وحدها ولم يحن بعد موعد افشائه . وفى تلك اللحظات ما كانت تتهادن مع الحرب والفاقة والوحدة ، ولكنها تحافظ على نفسهـــا وتعدها من اجل الحياة السعيدة المرتقبة . ناستيونا تعرف ان الانسان يشيخ بمرور الزمن ، ولكن اكثر ما تخشاه هو ان تبرد الروح قبل الاوان . فما اكثر الناس ، الاصحاء الاقوياء ، الذين لا يفرقون بين مشاعرهم الخاصـــة التى وهبهم الله اياها وبين المشاعر العامة ، مشاعر الشـــارع . هؤلاء الناس يأوون الى مضاجعهم بنفس الارتياح المتفتح على كل شىء والذى يجلسون به الى موائد الطعام : من اجل الشبع لا غير . واذا ما بكوا او ضحكوا يتطلعون الى ما حواليهم كى يتاكدوا : هل يرى الآخرون سرورهم او هل يسمعون بكاءهم ؟ والا فمن المؤسف ان يذرفوا الدموع جزافا . لقد مات كل شىء فيهم . واذا لمست اى وتر فيهم لن يفهموا ولن يستجيبوا ، ولن يرن ذلك الوتر استجابـــة لارتعاشة الغير ، فقـــد فات الاوان ، وتحجرت الاوتار . وهم انفسهم لا يمسون وترا لدى الآخرين . والسبب فى ذلك انهم لم

يستطيعوا فى حينه او لم يريدوا ان يبقوا على انفراد مع انفسهم ، نسوا انفسهم وضيعوها . ولم يعد هنـــاك مجال للتذكر ، فلن يتذكروا انفسهم ولن يجدوها .

لم تصرف ناستيونا فى التهيؤ اكثر من عشر دقائق بدت لها ساعة كاملة . فقد كانت تواقة جدا للذهاب . اخذت الحقيبـــة اخيرا وانطلقت الى الشارع وتوقفت لحظة وتطلعت الى الجوانب على عجل واستعدت لمواجهة الريح . المزيد من الحذر ليس بالشيء الضار ، ولذا اتجهت عبر مربط الماشية . فلئن رآها احد صدفة سيتصور بانها ذاهبة لقضاء حاجـــة ما فى الحمام وان فى تلك الزوبعة الثلجية الشديدة . وهنا ، قرب الحمام ، كانت الزوبعة كثيفة لدرجة لا تكاد ترى فيها حتى المنازل القريبة . فانزلقت ناستيونا على الجليد دون خوف او وجل واستدارت نحو اليمين الى حيث يتجه الطريق نحو النهر . وهنا تذكرت ان الطريق يمكن ان يضيع تحت الثلوج ، وعند ذاك يتعين عليها ان تشق دربها عشوائيا ، وهذا ينطوى على مخاطر الآن ، فمن السهل فى مثل هذا الجو ان تتيـــه وتفقد الشاطىء وتنجرف مع الريح الى ما لا يعلمه الا الله . فالريح تدفعها وتكاد تطيح بها دون ان تمكنها من المحافظة على الاتجاه المطلوب . بيد ان الطريق ، من حسن الحظ ، لا يزال محتفظا بمعالمه . لقد ضاعت بعض آثاره امام ركام الجليد ، غير ان الريح ، بالاساس ، كانت تحمـــل الثلج بعيدا عنه .

تعين عليها ان تسير محنية الظهر بشدة مخبئة وجهها كيلا تشرق بالسيل الكثيف من المزيج الرطب . الريح شديدة متواصلة تنهال دون توقف كمجرى مسعور . وكان صفيرها حادا مستديما ، كدوى شديد فى انبوب واسع . ومن خلال هذا الصفير يسمـــع بوضوح ، على صعيد آخر ، هسيس الثلج المتطاير . وانعدمت الرؤية على بعد خطوات مع ان الجو بدا منيرا . ولكن ذاك كان نورا ضبابيا ابيض لماعا مندفعا ولا يرى عبره شيء . كانت جلاميد الجليد الناتئة العارية تئز وتئن ، والثلج يرتطم بهـــا ويتطاير رذاذا فى كل الجوانب ، وهناك تتلقفه الريح وتحمله بعيدا .

من اين انطلقت هذه الزوبعة الثلجية ؟ لا تتذكر ناستيونـــا

مرة ان زوبعة قد ثارت فى هذه الفترة . فاين هى بوادر الربيع ونحن فى اواخر آذار .

بدا الدرب يضيع فتعثر عليـــه بين الفينة والاخرى من جهة اليسار . ومهما ابدت ناستيونا من مقاومة ومهمـــا صحت من مسارها فان الريح تدفعهـــا وتحملها الى اسفل . يمكن للمرء ان يتصور الوجهة التى تتجه اليها لو انهـــا خاضت هذا اليم الابيض بدون طريق . ان تمييز الآثار القديمة للزحافات على الطريق يزداد صعوبة . وان رؤوس الكثبان الثلجية عليه تتعاظـــم وتتلاقى . راحت ناستيونا تبحث عن بقايـــا الاعشاب المتجمدة الملتصقـــة بجانبى الطريق ورؤوس روث الخيول الذى ترجرج وغدا كالفطر بعد ان تبقى من عهد نقل الاعشاب الجافة من المروج . ظلت تسير اعتمادا على هذه الشواهد الواهية حتى تعبت . ففى البداية ارتكبت حماقة حيث غذت السير ، وسرعان ما انهكت قواها ، وثقلت الحقيبة عليها واعاقت الريح تنفسها وغاصت اقدامهـــا فى الثلج الذى التصق بجزمتها . وتبلل منديلها وسترتها . صحيح ان الريح لم تكن باردة ، فهى ريح جنوبية . ولكنها كانت سببا فى الرطوبة وذوبان الثلوج . واذا لم تكن الريح باردة فذلك لا يعنى انها هى الافضل .

كانت ناستيونا تتطلع باهتمام الى اليسار بحثا عن الجزيرة . يا ليت قواها تمكنهـــا من الوصول اليها . فالامور هناك اسهل ووادى النهر اضيق ويمكن السير فيه باستقامة . لم تكن ناستيونا تخشى ان لا تصل الى المكان . فستصل اليه ولن تضيع . ولكنها تريد الوصول الى اقرب موضع من منخفض النهر ، حيث لا تجوب المنطقة عشوائيا ولا تبحث عن الشاطىء وهى قريبة منه . ولـــم تأسف اطلاقا لانها خرجت فى الزوبعة . فقد ارادت الذهاب وربما ثارت الزوبعة اليوم خصيصا لسترها عن عيون الغير . ولكنها لم تصدق بشيء واحد هو ان هناك دفئا وجفافا فى مكان ما وانه ستحل لحظة تخلع فيها الجزمة وتمد رجليها المتخدرتين وتغلق عينيها بارتياح . فقد بدا لها ذلك بعيدا جدا ويكاد يكون خياليا .

واخيرا ضيعت الطريق نهائيا ولم تعثر عليه . تشابك كل شيء تحت اقدامها فى دوامة متحركة واحدة . وعند ذاك صممت على

السير فى مواجهة الريح كى تصل فى لحظة ما الى الشاطئ ، وهى متأكدة من ان الجدول يقع الى يمينه . وقد آلمها انها لم تتمكن من العثور على شواهد الطريق ، فانتحبت دون خوف ، ولكن من الغيظ والتعب ، ثم صاحت تنادى اندرى غير متعمدة . ومن الحماقة الامل بان احدا سيسمعها ، فالصوت يتكور فى الحال وتحمله الريح الى اسفل .

سارت مسافة طويلة ، ولم تعد تتذكر ، الا بصعوبة ، الى اين هى متجهة . رفعت راسها لحظة فاحست بانها ليست بحاجة الى خفضه واخفائه فى الحال . فالريح قد خفتت على ما يبدو . توقفت ناستيونا وتطلعت الى ما حواليها : لا تزال الريح وراءها تنطلق منفلتة العنان ، اما امامها فهناك شىء يقف بوجه الريح ويصدها ويرغمها على تغيير مجراها المستقيم . سارت ناستيونا الى الامام قليلا ، فرات الشاطىء . ولم يكن ذلك شاطىء الجزيرة ، فقد مرت بالجزيرة دون ان تلاحظها ، كان ذلك هو الشاطىء الرئيسى للنهر . عبرت انغارا والحمد لله . ويتعين عليها الآن ان تجد اندرييفسكويه . من تعرج الشاطئ ادركت ناستيونا ان الراس العالى المكسو بالغابات والذى تتذكر انه موجود وراء الجزيرة قد ظل الى الشمال ، ويبدو انه هو الذى صد الريح . ولذا ينبغى لها ، كما كانت تتصور ، ان تهبط الى اسفل على طول الشاطىء . لم يعد المكان بعيدا ، ويمكن القول انها وصلت . غابة الصنوبر على الهضبة تحف بصوت مكبوت مسموع ، واشجار البتولا والحور العارية تتمايل فى الريح على مرج غير فسيح انبسط على بقعة مستوية من الشاطىء . حاولت ناستيونا ان لا تلتفت الى اليمين ، فالريح هناك تصول وتجول كالسابق . وكانت الريح تدفعها من جهة الظهر فراحت تتعثر لان قدميها لا تلحقان بسرعة الاندفاع . وكبت مرة فسقطت من الحقيبة حبتا بطاطس ، ولكن ناستيونا شيعتهما بنظرة كئيبة غير متعمدة وتركتهما لتتجمدا دون ان تلتقطهما .

كادت تجتاز الجدول راسا ، ولكنها لاحظت فى الوقت المناسب ان الثلج يجتذبها بقوة الى جانب ، فتوقفت . والا لكانت قد وصلت الى قرية ريبنايا . ولم تفهم ناستيرنا ما اذا كانت موفقة اليوم ام

لا . فقد اجتازت نهر انغارا بسلام دون ان تضيع الطريق ودون ان تغوص فى الثلج ، كما انها لم تقطع مسافة نافلة تقريبا فى هذا المعمعان . كان بوسعها ان تفرح لان الامور تسير على ما يرام ، ولكنه خيل اليها ، بالعكس ، ان كل شىء يسير بالمقلوب . ولم يكن التعب وحده هو الذى عكر مزاجها منذ البداية . بل كان هناك شىء ما آخر . وهى تخشى التفكير بان هذا «الشىء» هو هاجس سيىء لا يكذب .

وسرعان ما صعدت الى الكوخ .

كان اندرى موجودا : فان دخانا ينبعث من المدخنة وتلطمه الريح فيرتطم بسطح الكوخ . فليس من العدل ان تجد الكوخ فارغا بعد كل ما تحملته فى الطريق . تذكرت كيف ارعبت زوجها فى المرة السابقة فلم تتجه الى الباب راسا . وقفت لتلتقط انفاسها وتمسح براحتها وجهها المبلل ، وبعد ذلك طرقت على النافذة بحذر :

– اندرى ، يا اندرى !

سمع صوتها فهرع اليها واحتضنها من كتفيها وقال شيئا ما ودفعها برفق الى الباب . ولم تفهم ما حدث . فقد انهال عليها فورا وفى لحظة خاطفة تعب فظيع شل حركاتها . اجتازت العتبة فتعثرت وكادت تسقط . وزاد ذلك فى الطين بلة اذ كانت اصلا تكاد تنفجر بالبكاء . ولم تتمكن من ضبط اعصابها فراحت تنتحب . راوح اندرى حواليها متحيرا لا يدرى ماذا عليه ان يفعل ، بل ولاح عليه انه لا يزال عاجزا عن التصديق بانها هى امامه حقا . وصاحت هى ، عبر الدموع ، بانفعال وغيظ :

– كان بامكانك ان تستقبلنى . ظننت انى لن اصل ، وتوقعت ان اسقط ، اما انت فتجلس هنا خالى البال .

– من يدرينى بانك ستجيئين اليوم ؟!

– من يدريك ؟ كان يجب ان تحس !

ادرك اخيرا بان عليه ان يخلع سترتها ومنديلها . اما الجزمة الثقيلة المبللة فقد خلعتها هى باشمئزاز . رفع الجزمة ووزنها بيديه وهز راسه مندهشا ، ثم وضعها قرب الفرن لتجف . الفرن ساخن والكوخ دافىء هادئ والحطب يحترق ويطقطق بسرور كما

فى المنازل العادية . وفى النافذة كان الزجاج يئز ، وازيزه هو الدليل الوحيد على ما يجرى فى الخارج .

جلس اندرى قرب ناستيونا على التخت وسألها بحذر :

– لماذا جئت ؟ هل حدث مكروه ؟

– لماذا جئت ؟ – قالت ممططة كلامها ساخرة من لهجته – جئت اليك . هذا كل ما فى الامر . وانت تسألنى بعد ذلك كله ! – ثم اضافت بصوت هادئ آخر : – لم يحدث شىء .

– انت مغامرة . لم اكن اعرف بانك مغامرة الى هذا الحد . حتى الوحوش لا تخرج من جحورها فى مثل هذا اليوم . اما انت فقد خاطرت .

– انك لا تعرف شيئا على الاطلاق . تعيش كالخلد فى الانفاق ، ولا تعرف شيئا عن زوجتك .

– كالخلد ، حقا – وافق على قولها ، ولكنه ضبط نفسه كيلا يبدد الفرحة الخانقة التى اجتاحته ، فسألها : لا بد وانك جائعة ، فهل نتغدى ؟ ام نتعشى ؟ لا ادرى ، اختلطت علي الامور .

– بمَ تنوى اطعامى يا ترى ؟ – حالما سألها عن الغداء احست بانها جائعة فعلا . لم تكن قد تناولت شيئا منذ الصباح ، اما الآن فالنهار فى آخره . ولم يكن بوسعها ان ترفض لانها رات كيف يتوق الى تقديم خدمة لها واثارة دهشتها بعمل ما والتباهى بتدبير شؤون الحياة .

– يمكن طهى حساء السمك . فقد بدات بصيد السمك بعض الشىء .

– ولكنى لن اخرج من الكوخ ابدا .

– لا تقلقى ، ساعد الطعام بنفسى .

فتح الباب قليلا ومد يده دون ان يجتاز العتبة فانتشل سمكة مجمدة ، واذا بها شبوط كبير بحوالى ثلاثة كيلوغرامات ، والقاه على المائدة بصوت مدو . فقالت ناستيونا مندهشة :

– ارى انك تعيش هنا افضل مما نعيش .

– حالفنى الحظ امس . من اجلك خصيصا . يعنى انك انت المحظوظة .

– محظوظة جدا – اجابت بلهجة رصينة غير مفهومة .

لم يقل شيئا عن الطريقة التى «اصطاد» بها السمك . فليس بوسعه ان يخبرها بذلك . قبل الآونة الاخيرة ما كان حتى ليفكر بانه قادر على التطاول على مال الغير . اما الآن فقد انحدر الى هذا المستوى . نصب احد اهالى ريبنايا شصوصه قرب الجزيرة العلوية البعيدة من جهة الرافد على الضفة الغربية الهادئة ، وفى احدى الليالى عثر عليها اندرى فلم يتمالك نفسه . كان يعرف ان من الصعب نقل كسّارة الجليد الثقيلة من القرية واليها يوميا . فراح يبحث عنها حتى وجدها فعلا بين الشجيرات . وهناك عثر على معول صغير ذى مقبض قصير . يبدو ان الصياد محب للنظام . جرت العادة على تفقد الشصوص فى الصباح ، اما غوسكوف فقد صمم على تفقدها فى المساء ، كى يتسع الوقت ، خلال الليل ، لانسداد الحفر التى يخلفها فى الجليد بعد تحطيمه بالكسارة من اجل تفقد الصيد . وهكذا حصل على اربعة شبابيط . عمل بحرص وعناية دون ان يترك اثرا . فمن المستبعد ان يكون صاحب الشصوص قد احس بشىء ، لاسيما وان حصته هى الحصة الليلية التى قد تكون هى الاوفر .

ومن سخرية القدر ان نقول بانه «عمل بحرص وعناية» ، فان اندرى نفسه كان فى السابق ينعت مثل هذا «العمل» بالدناءة .

لم تكن الحاجة الماسة هى التى دفعته الى هذه الفعلة غير النزيهة . فكان لا يزال لديه لحم ، وناستيونا تحمل له بعض الاطعمة بانتظام . بديهى انه لا ضير فى مخزون الطعام . ولا الذ من الغنيمة الباردة . بيد ان ما دفع غوسكوف خفية الى ذلك هو غيظ شديد على نفسه ، غيظ متسلط دفين يثير رغبة مستورة بدقة ومموهة من جميع الوجوه لكى يسىء الى اولئك الذين يعيشون على المكشوف ، خلافا له ، ويسيرون دون خوف او وجل ودون ان يضطروا الى الاختباء ، فيعترض طريقهم ولو قليلا ليحس بانه كانما يساهم فى تقرير مصيرهم : فهم بدونه شىء ، وبمشاركته شىء آخر . ولا ضير فى انهم لا يرونه ولا يسمعونه ولا يعلمون عنه شيئا ، فهو موجود ، وان وجوده لا بد وان يؤثر على الآخرين بشكل او بآخر ، والا فهو شبح ، ظل ، لاشىء . لم يكن ذلك يثير ارتياحه ، فالارتياح يتطلب من المرء الاعتراف بما يفعل ، ولكنه

يمنحه شيئا تافها نزرا يروق له ويهون عليه الامور . ولم يكن يتعمق فى ماهية هذا الشيء ، فليس من اللازم له ان يعرف ما الذى يخفف من احزانه ، المهم ان تخف احزانه .

بقبق حساء السمك بسرعة على الفرن الساخن ، فتناولا طعامهما ، واستخدمت ناستيونا ملعقة خشبية نحتها اندرى خصيصا لمثل هذه اللقاءات السارة . وبالتدريج تجمعت لديه المستلزمات المنزلية الضرورية . فقد طبخوا السمك ليس فى غطاء الزمزمية الصغير ، بل فى قدر يتسع لثلاثة التار ، وهو القدر الذى احضرته ناستيونا مع الصديرى الى الحمام فى الاسبوع الماضى .

تلاقيا آنذاك ، ولكن بصورة عشوائية ، كما هى العادة فى الحمام . وبعد هذه اللقاءات ينتاب ناستيونا شعور بالنفور والتقزز من عدم طهارتها وعدم صفائها ، فهى لا تزال كالسابق تتوهم ان هناك خداعا وتضليلا ، ومع انها تدرك بان الخداع غير ممكن فى هذه الحالة ، فلم تتعود ولم يكن بوسعها ان تشعر بالاطمئنان . انها تنصت الى صوت اندرى وتفكر : هل هو صوته حقا ؟ وتبحث ، ومن جد وجد ، عن امارات وعلائم فى تصرفاته لم تكن قد لاحظتها فى السابق . لقد خوفت نفسها وضللتها جزافا . غير ان ما يثير نفورها خصوصا هو الرقود على دكة الحمام العالية الباردة واللزجة التى تفوح منها رائحة الاوراق العفنة المرة ، ولا يمكن الصعود اليها الا على الاربع . ويخيل لناستيونا هناك ان بدنها يتغطى فى الحال بشعر الوحوش الكريه ، وانها تستطيع ، لو رغبت ، ان تعوى مثل وحوش الغاب .

اما هنا فالحال يختلف تماما . هنا بوسعهما ان يتطلعا الى عينى بعضهما البعض ، وهى تقرأ افكاره عندما تتطلع فى وجهه ، وتغدو حياتهما العائلية السابقة مبررا لوصالهما هنا ، هذا الوصال الذى يتحقق فى جو غريب خال من مقومات الجمال فيسبب لدى ناستيونا المزيد من الانفعال المثير المجهول والمنشود الذى يتجاوز المشاعر العادية التى تسود فى مثل هذه الحالات . كانت ناستيونا تبحث فى هذه اللقاءات عن تعويض عن الألم الذى يعتصر فؤادها لان الزوجين مضطران الى الالتقاء سرا وبصورة نادرة . وكانت ناستيونا تريد لكل لقاء من تلك اللقاءات ان ينطوى على سنين من

الحياة ويمتلئ بمغزى خاص وقوة كبيرة وحنان متميز . وواضح انها لم تكن تعرف كيف يمكن تحقيق ذلك . فهى تتعذب وتشقى وتخشى من يوم غد ولكنها تحلم بشيء كبير غامض ترجو ان يتهيأ لها وتأمل بانها ستكون جديرة به ان هو جاء .

ذات مرة خيل اليها ان شيئا شبيها بذلك قد حدث ، ولكنها لا تدرى متى وفى اى لقاء حدث . كان جهلها هذا يعذبها ايضا : فكيف يجوز تفويت ذلك ؟ وهل هى متخشبة عديمة الاحساس ؟ صحيح ان ناستيونا لم تكن واثقة حتى النهاية من ان ذلك قد حدث فعلا ، ولكن دلائل كثيرة جدا تشير الى حدوثه . ومما يدل على حدوثه انها اليوم منفعلة ومرتبكة للغاية .

نهضت من المائدة وخطت خطوات متثاقلة على قدميها المتخدرتين المرهقتين فبلغت التخت واضطجعت عليه . وصار بوسعها ان تخبره بالنبأ الذى جاءت به .

– اندرى ، هل تدرى ؟

– ماذا ؟

ولكنها ترددت فغيرت رأيها :

– لا بأس ، ساقول لك فيما بعد .

قررت ناستيونا ان تنتظر حتى يقترب منها . فقد ظل عند المائدة . ولاحظت انه يتناول طعامه ببطء . ولعل ذلك من آثار العادة التى لازمته فى الآونة الاخيرة ، وهى عدم الاستعجال اطلاقا . واخيرا نهض ، ولكنه توجه الى الباب كى يبرد بدنه قليلا بعد ان عرق بسبب الطعام . واجتاحت ناستيونا موجة من الهواء الصقيعى الشديد فصاحت به :

– اغلق الباب فى الحال .

– اغلقته . يبدو ان الريح قد خفتت .

– نعم ، خفتت .

اقترب منها وجلس ازاءها .

– الم تتدفئى بعد ؟

– تدفأت ، ولكن حالما اتذكر بان علي ان اعود قريبا ارتعش من البرد . ربما لن اتزحزح من هنا ابدا .

– يمكنك ان تبقى فترة اطول وتستريحى . لن تذهبى لوحدك ، سارافقك .

– كيف ابقى فترة اطول يا اندري ؟ لقد غادرت المنزل دون ان اقول كلمة بل ولا نصف كلمة لأحد . ربما افتقدونى الآن . واذا عدت فى منتصف الليل فمن سيقبل بذلك ؟ صرت اخرج فى الليل بمناسبة وبغير مناسبة . وسيظنون بى الظنون . . . – اغلقت ناستيونا عينيها وهى تتصور كيف ستطرق الباب الموصد .

– الم يسالك ابى عن شىء ؟

– لم يسأل حتى الآن . انه ساكت . ولا ادري لماذا لم يتذكر البندقية الى الآن . قريبا ستتكاثر المصائب .

– هل فكرت بما ستقولينه له اذا تذكر ؟

– فكرت ، ولكن ما الفائدة ؟ . . . – قالت ناستيونا وانكمش وجهها .

– بم فكرت ؟

– لماذا اعرض عليك اكاذيبى ؟ لا اريد . ساتحمل ذلك بنفسى .

داعب شعرها بارتباك :

– صعب عليك ، يا ناستيونا ، اليس كذلك ؟

– كلا . – فتحت عينيها وابتسمت . كان وجهها الذى لفحته الريح قد تورد فى الدفء وراح يشع بحمرة قانية صافية ، فارتسمت عليه تلك الابتسامة بخفوت . – اننى متالمة لك – ما كانت تريد ان تذكر كل ما تحس به فلم تذكره – اما انا فقوية اتحمل كل شىء . فهل تعتقد ان الحياة كانت سهلة بدونك ؟ كل يوم كنت افكر برعب : هل انت حى ام ميت ؟ اما الآن فانا اعرف على الاقل انك حى .

– ربما من الافضل ان لا نلتقى مؤقتا ، كى تتمكنى من الراحة قليلا . فماذا تعتقدين ؟ لدى الآن كل ما احتاج اليه ، وساعيش .

– لماذا تتكلم هكذا ؟ تتحدث عن الراحة ، ولا تسالنى هل اريد ان ارتاح ام لا ؟ سيتكسر جليد انغارا قريبا ، ثم سنرتاح طويلا الى ان تنجرف كتل الجليد ويستقر النهر . واذا كنت ساحرم

الآن من رؤيتك فما الذى يبقى لى ؟ انك لا تعرف شيئا على الاطلاق – لزمت ناستيونا الصمت برهة ، ثم تنهدت بعمق وشدت حيلها واخذت تتكلم ببطء وحذر وهى تتمعن بكلماتها بتان وتركيز : – اعتقد ، يا اندرى ، انى حامل .

– ماذا ؟ – تلفظ هذه الكلمة فخرجت وكانها مصحوبة بتاوهة : – ماذاه ؟ – ولم يسيطر على نفسه فقفز من مكانه : هل حقيـ . . . ـمة ما تقولين ؟

– لا ادرى بالضبط بعد . ولكنى لم اشهد مثل هذه الحالة فى الماضى ابدا . اعتقد انها الحقيقة – اجابت ، كالسابق ، ببطء وحذر وكانها تريد ابعاد اللحظة التى يتضح فيها موقفه من هذا الامر .

– لماذا سكت حتى الآن ؟ – بدأ كلامه مترددا ، وفى الوقت الذى تلفظ فيه بهذه الكلمات التى انطلقت بالصدفة ادرك مغزى ما حدث فاجتاحته الحمى من الراس الى اخمص القدمين وقال بصوت خافت مبهوت مستعطف : – نا . . . ستيو . . . نا – ثم جلس خائر القوى وانتشل يد ناستيونا : – يا للدهشة ! يا للشيطان ! هل تفهمين ما تقولين يا ناستيونا ؟ هل تفهمين ؟ تلك اذن هى القضية . . . انا اعرف . . . انا اعرف الآن ، يا ناستيونا . فلم اصل الى هنا عبثا ، لم اصل عبثا ، ذلك هو القضاء والقدر . . . ذلك هو المصير . هو الذى جاء بى الى هنا ، هو الذى قرر . كنت اعرف ، واحس ، اعرف جيدا ، هل انت فاهمة ؟ ومع ذلك كنت ، انا الاحمق ، خائفا . ان ذلك يستحق . . . – لم يصرخ ولم يجار بالكلمات ، كان يلفظها بصوت جاف ملتهب ، وهو يسعل ويضحك فى وقت معا . لمعت عيناه ببريق حاد وتطلعتا الى البعيد وكانما تخترقان الجدران . كان يخاطب ناستيونا وكانه لا يراها ، كان يخاطب نفسه ، ويقنع نفسه : – **هذا هو الكل فى الكل ، ولا** داعى بعد الآن لاى تبرير . فهذا اكبر من كل المبررات . وليحدث الآن ما يحدث . فاذا كان ذلك حقا ، واذا كان سيبقى من بعدى فليدفنونى ولو غدا . دمى سيبقى . ولن ينتهى . لم يجف ولم يتخثر . اما انا فكنت اعتقد ان نهايتى حانت وانى اخر العائلة فاهلكت اصلى . كلا . سيعيش . وسيسير بالخيط الى ابعد .

هكذا اذن ، تلك هى النتيجة ، آ ! تلك هى النتيجة ، يا ناستيونا ، يا مريم العذراء ! — هرع اليها وجلس قربها على التخت وعالقها هامسا وهو يهز راسه الاشعث الكبير .

فى البداية فرحت ناستيونا لفرحته ، ولكنها بدات تستمع اليه بغيظ وقلق : فلماذا يتحدث عن نفسه فقط ؟ وهى ؟ ما هو الدور الذى افرد لها ؟ وما هو مكانها ؟ اين هو ؟

كان هذا القلق والغيظ طافيين على السطح فاختمرا بسرعة . قبل اسبوع ، عندما احست ناستيونا لأول مرة ببوادر الحياة الجديدة فى احشائها ، كادت تختنق بالمشاعر التى انهالت عليها ، تلك المشاعر المرفوضة المهانة المطمورة من زمان والتى انطلقت الآن بكامل حقها فى الوجود : يا الهى ، احقا ؟ احقا انها قادرة على ان تكون اما كسائر الامهات ؟ احقا ان الله عطف عليها ومنحها هذه السعادة ؟ احقا انها حملت بمعجزة الآن بعد فقدان كل الآمال وبعد تلك السنين الطويلة من الحياة الزوجية والرغبات والمساعى والابتهالات التى ضاعت عبثا ؟ فما الذى حدث يا ترى ؟ اوت الى الفراش ليلا واطفأت المصباح عندما توالت عليها تلك الاسئلة المذهلة : «احقا . . . احقا ؟» ارتبكت اشد الارتباك فجلست على طرف سريرها الخشبى الواسع متلاحقة الانفاس ثم احكمت ستارة الباب وخلعت ملابسها ، ووقفت عارية ، ربى كما خلقتنى ، امام النافذة فى ضوء القمر الذى استدار بدرا ساطعا وكانما انخفض فى الافق حسب الطلب . راحت تتطلع الى بدنها باهتمام بالغ وبتعطش لجوج فى محاولة للعثور على تغيرات ملحوظة . كان بدنها القوى المتين المكتنز بمحتواه الطبيعى السليم الخالى من السمنة يشع دفئا وبياضا ناصعا كالحليب الدافئ ، ويرتعش من الانفعال والتفحص المرتبك ، ولكنه لم يقدم لها اى توضيح يشفى الغليل . وعندما لاحظت ناستيونا على صدرها ظل اضلاع زجاج النافذة بشكل صليب كالح كبير ارتعبت وتراجعت الى الوراء . رقدت على السرير ، ولكن فوق اللحاف ، وسبلت يديها واغلقت عينيها قليلا وحبست انفاسها ، كيلا يعيقها شىء ، واخذت تنصت بكل جوارحها مركزة انتباهها على نقطة ما عميقة فى احشائها ، حتى بلغتها — بلغتها وفصلتها عن

كل ما تبقى ، ولمستها فاجابت تلك البقعة بصوت خافت يكاد لا يسمع : موجود . هكذا خيل اليها ورسخ فى اعتقادها ، فانشغل بدنها ، منذ ذلك الحين ، بالانتظار : هل صحيح انه موجود ؟ الم تخطئ ؟ واذا كان موجودا حقا فما العمل ؟

حقا ، ما العمل ؟ تلك بالطبع سعادة تفوق التقدير ، ولكن ما الفائدة منها اذا جاءت فى وقت غير مناسب على الاطلاق ؟ اين كانت فى الماضى بعد ان طال انتظارها ؟ ولماذا ظهرت الآن بالذات ؟ فهى ليست ارملة من جهة ، وليس لها زوج من جهة اخرى . ليس معروفا من هى الآن ومن ستكون غدا . اختلط كل شىء على ناستيونا وتشابك ، وتدحرج كل شىء وانقلب راسا على عقب . افلا تعرف هى انها لم تلتق برجل مطلقا ما عدا زوجها ؟ ولكن القرية تعرف شيئا آخر . القرية تعرف انها لم تر زوجها منذ اربع سنوات . فهل حملت الريح لها هذه السعادة ؟ لا بأس من اتهام الريح لو كان هناك مجال للمزاح . ولكن يجب البحث عن شخص ما . وما الداعى للبحث عنه ، ما الداعى لاتهام شخص برىء بالخطيئة اذا لم تكن هناك اية خطيئة ؟ اما هو فلا يجوز فضح سره .

اختلط كل شىء وتشابك ، ثم اختلط وتشابك بقدر اكبر .

ولكن ما الداعى لتعذيب النفس وايلامها ؟ ربما لا يوجد شىء من ذلك . افلا يحدث ان تعتبر المرأة نفسها حاملا وهى ليست بحامل ؟ فلماذا ذعرت واضطربت ؟ ربما ذلك عبث فى عبث . لم تستطع ان تحمل فى الماضى فليست هى بحامل الآن ، ولن تحمل فيما بعد !

وما هو الافضل : ان تحمل الآن ام لا تحمل اطلاقا ؟ ولو تسنى لها مجال للاختيار فماذا ستختار ؟ وما الافضل ؟ هل تبقى حاملا ام لا تحمل ابدا ؟

توجهت الى اندرى بالذات من اجل ان تبحث هذا الموضوع ولو قليلا وتتوصل الى حل ما وتهدأ بعض الشىء . وحتى اللحظة الاخيرة كانت مترددة فى اعلان النبأ ولا تدرى ما اذا كان من الافضل كشف السر او الانتظار حتى تتاكد نهائيا ، وتكتفى الآن بالتمتع بالملاطفة والدفء عند اندرى والتحلى بالصبر واستجماع

القوى . وهى لا تريد الكثير . انها تريد البقاء قرب الشخص الذى شاطرته مصيره والذى يبعدها على ما يبدو ، عن الناس اكثر فاكثر ، فيتركها له وحده . فالى من تلتجىء ؟ وعند من تنشد المؤاساة ، اذا لم يكن عنده ؟

ولكن ها هى قد كشفت سرها وتأسفت لذلك وهى تستمع الى همسه المتلعثم المتحشرج من شدة الفرح . لقد اضفى على هذا الامر اهمية لم تكن هى تتوقعها .

نهضت على التخت قليلا وسألت :

– وانا ؟ ماذا سيحدث لى ؟ اننى اعيش بين الناس ، ام انك نسيت ذلك ؟ فما الذى ساقوله لهم يا ترى ؟ ما الذى ساقوله لأمك ، لأبيك ؟ فهما سيهتمان بالامر وسيسالان من كل بد .

كان هذا السؤال قريبا ، على طرف اللسان ، ولكنه لم يكن يتوقعه . اعتدل ثم جلس يحدق فيها مذهولا ، وانكمش كتفاه :

– لا ادرى . ابصقى عليهم جميعا .

– سهل عليك ان تبصق ، فانت لوحدك هنا .

– ماذا تقولين يا ناستيونا ؟ الست مسرورة لذلك ؟

– اننى مسرورة ، ولكن ماذا علي ان افعل الآن ؟ واين اختبىء عن عيون الناس ؟ فسوف يفتضح ذلك قريبا .

– هل تتذكرين كم انتظرنا وكم املنا ؟ – لاحت فى صوته نامة زعل ، فهو لا يريد ان يفهم .

– اتذكر . . . كيف لا اتذكر ؟ فلماذا تسالنى وكانك تحاول اقناعى ؟ الست انا التى كنت ابتهل طوال الليل وارجو الله ان يمنحنى طفلا منك ؟ لم اكن بحاجة الى شىء ، سوى ان الد طفلا واقدم نفعا لك . الست انا التى كنت اخشى حتى الموت ان اظل عاقرا ؟ فالذنب كان ينسب الي وليس الى شخص آخر . وحتى انت كنت تنسبه الي . كنت فى حال اسوا بكثير من حالك . فقد كان يحق للجميع ان يعتبرونى سارقة خداعة . ابى وامى علقا املهما علي ، ولدتنى امى لكى الد انا ايضا ، وانت كنت تعلق آمالك علي عندما تزوجتنى . اما انا فقد خيبت كل الآمال . كنت كانما اشغل مكان غيري واختلس سعادة امراة اخرى . وقد لعنت نفسى مائة مرة وانت لا تدرى . ولو كنت

استطيع لاختفيت من زمان دون ان يعلم احد ، او لالقيت بنفسى فى النهر كى تبقى انت حرا طليقا . وانت لم تسمح لى بتركك . ثم نشبت الحرب . وانت تسالنى الآن : هل تتذكرين ؟ فمن يتذكر غيري ؟ ومن يحق له ان يفرح الآن ويرقص ويغنى طربا ؛ لقد ظهرت الآن الى الوجود من جديد . يا الهى ! ولكنك غير موجود . انت ، يا اندرى ، لا وجود لك ! – اطلقت ناستيونا انة حزينة ولوحت بيدها يائسة وكانها تطرد هذه الرؤيا الخرقاء الشعثاء – انت لا تسمح لى بان اهمس لاحد عن وجودك هنا . انت غير موجود . وانا صامتة ، وسالزم الصمت . فانا افهمك . ولكن الطفل ، اذا ولد ، لن يكون طفلك . طفل اى كان ، وليس طفلك . انت غير موجود ، ولا احد يعرف هل انت حى ام ميت . فهل تعتقد ان امك واباك سيشكراننى اذا جئتهما بالطفل بدونك . وهل تعتقد ان الناس سيرحموننى ؟ آ ؟ ولو كان والداك يعرفان بانك لست على قيد الحياة لهان الأمر ولكان هناك على الاقل احد يفهم ولا يدينني راسا . اما الآن فالناس يعتقدون بانك يمكن ان تعود فى اية لحظة ، فى حين اننى فعلت ما فعلت دون ان انتظرك . فى هذه الحالة يمكن لاحقر كلب ان ينبح علي وسيكون محقا ، فانا المذنبة . سيكون من الصعب علي ، وانا وحيدة بين الناس ، ان احمل هذا العبء . واخشى ، يا اندرى ، الا استطيع .

لزم الصمت وهو يتطلع بنظرة ثقيلة جامدة الى ركن الكوخ . ظل صامتا امدا طويلا ، فارتبكت ناستيونا فى البداية ثم ارتعبت لما قالته . فذلك يعنى انها ترفض الطفل . وماذا لو ان اللحظة الراهنة هى بالذات لحظة الانعطاف التى تتحول فيها النطفة الى جنين يمكن ان يستمر او يختنق ؟ واذا رفضت ربما لن يكون هناك جنين . كل شىء يتوقف عليها . فالأمر سيىء فى الحالتين سواء كان هناك جنين ام لا . بيد انها لا تريد التخلي عنه . فمن افظع الامور ان تتحمل عبء التخلي عن حلمها وامنيتها . انها تريد ان لا يتوقف الامر عليها بعد الآن ، وان لا يتغير شىء فيما حدث . فالتفتت الى اندرى تنشد العون لديه واضافت قائلة :

– لا ادرى ، يا اندرى ، ماذا افعل . لقد تحيرت .

فقال اندرى اخيرا :

– لا يمكن الهروب من المصير يا ناستيونا . فهو يجرى كما يريد حتى ولو اعترضت عليه بكل ما تستطيعين . – اكد ذلك بشيء من السخرية وبلهجة حزينة وكانه يعرف عنه اكثر من الآخرين ، ثم لاذ بالصمت ناتفا لحيته . وبعد ذلك تكلم بثقة اكبر وبغضب اشد : – ان المصير هو الذى انتزعنى من الحرب وبعثنى الى هنا . هو وليس غيره . ربما بعثنى رغما عنى لكى يربط بيننا قبل ان اموت . فهل تعتقدين بان من السهل علي ان اختبئ هنا كوحش من وحوش الغاب ؟ آ ؟ فى حين انهم يحاربون هناك وانا ملزم بان اكون بينهم وليس هنا ؟ تعلمت هنا العواء كالذئاب . هل تريدين ان تسمعى ؟ – نهض دون ان ينتظر موافقتها واقترب من الباب بخطى متثاقلة وفتحه وانحنى الى الامام ، وبدا ، ليس فورا ، بل بشهيق وكانما يريد ان يصل الى مستوى الصوت اللازم ، فبلغه وهياه ، ثم اطلق انينا حادا مستديما متشكيا مرعبا يحز فى الفؤاد . قفزت ناستيونا مرتعبة على ركبتيها وامسكت صدرها بيديها . قطع اندرى عواءه الوحشى واغلق الباب وعاد الى مكانه بعد ان سعل قليلا ، وسال : – هل يشبه عواء الذئب ؟ – واجاب بنفسه : – يشبهه . اذا سمعت هذا العواء فاعلمي بانه عوائى . اما الذئاب فقد خوفتها هنا من زمان ، وربما هربت جميعا الى شاطئكم . قد تتصورين اننى وجدت لنفسى تسلية لقضاء الوقت بسبب البطر . كلا ، يا ناستيونا ، ليس ذلك بسبب البطر ، بل بسبب الحياة الكئيبة . لماذا تنتزعين منى آخر امل يؤكد لى انى جئت هنا على الاقل لغرض ما ، ولم اتحمل هذا العار عبثا ؟ عرضت على الامل ومزحت معى وها انت تنتزعينه منى . ستغدو احوالى اتعس مما كانت . ولكن اذا ولدت طفلا فسابرر نفسى ، وتلك هى آخر فرصة لى . ماذا اقول : فرصة ، كلا ، ذلك بالنسبة لى هو كل راجبى فى الحياة . ولا يهم ان الناس لا يعرفون ، فسيعرف دمى انه طفلى . فالذى يعرفنا فيما بعد هو الدم وحده ، هو الاصل وحده .

– ربما هو غير موجود بعد – اعترضت ناستيونا بصوت ضعيف – قلت انى لست متاكدة حتى الآن ، وينبغى ان ننتظر .

– اذا لم يكن موجودا لا اعتراض لي . ولكن اذا هو موجود اتركيه ولا تهلكيه . انقذى روحى . استطيع ان اختفى ولو غدا فلن اقلقك بعد الآن ، اما فيما تبقى فتصرفى كما تشائين . . .

– لا اريد لك ان تختفى عنى اطلاقا . فما هذا الكلام ؟!

– عشنا اربع سنوات معا . عشنا حياة بكل ما فيها من طيبات وسيئات ، ولكننا عشناها معا . ثم اربع سنوات من الحرب . وكنا مرتبطين بخيط واحد ايضا مهما ابتعدت المسافة . فهل يجوز ان يكون ذلك كله فراغا وعبثا ، ولا يبقى من حياتنا اى شيء ؟ ستعيشين فيما بعد فانت لا تزالين شابة جميلة ، ولكن هذه السنوات لا يمكن ان تعود . لقد مرت وانقضت . ومهما كان المجرى الذى ستسلكه حياتك فقد كنت انا فيها ايضا . فالى اين تقذفيننى منها ؟ كم عدد النساء اللواتى بقين خلال الحرب مع طابور كامل من الاطفال ؟ اما انت فلا تريدين حتى طفلا واحدا . وماذا كنت ستفعلين لو انه جاء سابقا ، قبل الحرب ؟

– هل تعتقد بانى لا اريد يا اندرى ؟! هل قلت اننى لا اريد ؟! اريد . فلماذا تتهمنى ؟ لماذا ؟

– لم تتخلي عنى عندما رايت اننى جئت من الحرب من باب آخر . لم تطردينى ولم تسلمينى ، بل ساعدتينى على العيش ، وبدونك ربما كنت سأهلك . كنت تعرفين ثقل العبء الذى اخذتيه على عاتقك . ومع ذلك تحملتيه ولم تخافى . فمن كان يتصور اننى الآن ، حيث يوجد عندنا ما يشبه العائلة . . . كلا ، اية عائلة ؟ . . . نصفان من عائلة ، احصل على فرصة وحيدة فى حياتى لاداء واجبى كرجل ، كيلا اكون قد عشت الحياة عبثا ؟ ما الداعى للجدال ؟! كان لديك جانب واحد هو الناس . هناك على الضفة اليمنى لنهر انغارا اما الآن فلديك جانبان : الناس وانا . ولا يمكن الجمع بينهما الا بجفاف النهر . طبيعى ان الكلام سهل علي فلست انا الذى سيحمل بطنا . فانا هنا ، فى المخبأ ، ساظل حتى تحين الساعة وتحل نهايتي .

– كفاية ، يا اندرى ، لا داعى لهذا الكلام !

خفت سورة انفعال اندرى فرقد على ظهره على التخت وهو يكبح انفاسه المتلاحقة . ولكنه لم يقل كل ما اراد ان يقوله ، فلزم

الصمت برهة ثم تحدث من جديد مدفوعا ببقايا الالم ، ولكن بلهجة اهدأ وايسر لعلمه بانه ذكر الشيء الرئيسي .

– انك تخافين لوم الناس . . . فمن هم بالنسبة لك ؟ الناس كالكلاب ينبحون حالما يتحرك احد بالشكل الذي لم يتعودوا عليه . انهم ينبحون قليلا ويكفون عن النباح في انتظار شخص آخر يتصرف لا كما يريدون . بديهي انهم سيهاجمونك . سيحدون السنتهم وسيبذلون جهدا . وسينسون القمح حالما يغدو بطنك مادة للحديث ، فليتحدثوا وليحكوا جلودهم الجرباء ، فذلك الجرب عادة تدفع الناس الى غيبة الآخرين حتما . فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بدون ذلك . اما انت فاسكتي وواصلي عملك ولا تتحرشي بهم . وعند ذاك سيهدأون بسرعة . ثم يأتي دور شخص آخر ، فتكونين انت مع الآخرين . فهل هذه المرة الاولى ؟ وفيما بعد سيمدحونك على ما لاموك به . الناس . . . لو انهم كانوا في مثل حالتنا ، الله يعلم كيف كانوا سيسلكون . يجب ان تنصتي لنفسك وليس لاقوال الناس . فانت تعرفين الحقيقة . وتعرفين انك لست مذنبة بحق احد . وان الطفل هو طفلك من جهة الاب ايضا . بذلك تصونين نفسك وتنقذينها ، بذلك وحده . بديهي ان الامور لن تكون سهلة عليك . وهل هي سهلة الآن ؟

– انني لا اتشكى .

– لا حاجة بك الى التشكى ، فكل شيء واضح بدونه .

لم يلاحظا كيف هدأ اهتزاز زجاج النافذة وكيف انكشف جو الكوخ في البداية ثم تسرب الغسق اليه وراح يتكثف بهدوء . انقشعت الزوبعة ، ولم تبق الا هبات انفصلت عنها وتلكأت محومة في مكان ما ، فصارت تغير على الكوخ بلا انتظام وتتناثر على هذا الجدار تارة وعلى ذاك تارة اخرى . وتسخن الفرن حتى اسود رماده .

تجاوز اندرى الحوار ونهض واغلق المدخنة بحاجبها كيلا يتسرب الدفء الى الخارج والقى نظرة على النافذة . وحتى من جهة الجبل تجمع ثلج كثير فكاد يصل الى قاعدة النافذة . والتصق الثلج الرطب بجذوع الاشجار . وكانت السحب الرمادية الممزقة لا تزال تسبح متناثرة في السماء المنخفضة الكابية .

التفتت ناستيونا وهي تتابع اندرى بنظراتها . بيد انه عاد ورقد ازاءها . لم يتغير شيء الا ان نهوضه هذا بدون ضرورة كان يعني لكليهما انه لا ينبغي لهما الآن ان يقولا اكثر مما قالا . حقا ، يجب الانتظار قليلا . والا فستكون حالهما مثل حال تلك المرأة التي راحت تندب : آه لو كان لي طفل ولو مرض طفلي . . . لقد قال اندرى ما هو ضروري ، واستمعت ناستيونا اليه . وفي ذلك الكفاية . ينبغي التحلي بالصبر . فسوف يتضح كل شيء قريبا .

تنفست ناستيونا الصعداء ومطت بدنها بحذر كي تبدد الترسبات التي تجمعت فيه . فهي ، دوما ، حالما تقلق وتغلي يخيل اليها ان موجات حساسة تنبعث من داخلها الى الجلد ينعكس فيها صدى ادنى الالام التي لا تزول فيما بعد الا بشق الانفس .

كانت لا تزال حذرة مترددة تخشى من انه يمكن ان ينسى ويحطم صدفة الاتفاق الصامت والواهي بسبب ذلك الصمت .

تململ في مكانه فارتعدت فرائصها . ثم قال فجأة :

– اتذكر من زمان ، من الصيف قبل عامين حلما بخصوصك – ثم انتظر قليلا حتى تتهيأ هي للانعطاف في الحوار – رأيت في المنام موقع وحدتنا والجنود الذين قاتلوا معي واشجار البتولا على مقربة من المكان الذي نمت فيه . ورأيت فتاة تتجه نحوي من اشجار البتولا . فتاة غريبة تماما كما خيل الى . حافية القدمين منهكة في فستان ممزق . ليس فيها اي شيء منك . ولكنني اعرف انها انت .

– انا بالفعل . – وافقته ناستيونا مندهشة – كنت هكذا قبلك ، قبل ان تعرفني . وشعري حليق كشعر الصبيان .

– وشعرها حليق .

– انا .

– كيف ذلك ؟ كيف رأيتك في المنام ولم اكن قد رأيتك بهذه الهيئة من قبل ؟

– لا ادري . ربما حدثتك بنفسي ولكن تلك الفتاة هي انا بالذات .

– وانا اقول ايضا انها انت . اقتربت مني وقالت «لماذا تأخرت هنا ؟ انا اتعذب هناك مع الاطفال وانت هنا مرتاح» .

فسألتها : «اى اطفال ؟ من اين لك بالاطفال ؟ ما هذا التلفيق ؟ . عودى وتأكدى هل لديك اطفال ام لا ؟» وذهبت .

– ذهبت ؟

– خيل الى انها سمعت كلامى وذهبت . ولكنها عادت . وقالت نفس الحماقة كما فى المرة الاولى : انا اتعذب هناك معهم . . . واجبتها بقساوة اكثر : «اذهبى ولا تلحى على بعد الان ، فليس عندك اطفال» . وفهمت وراحت تفكر واستدارت ذاهبة . والحلم نفسه يشبه اليقظة : فانا فى المنام اريد ان انام . ولا يتسنى لى ذلك . حالما اغلق عينى اراها قادمة من جديد من نفس اشجار البتولا . وتكرر وتقول حتى ازهقت روحى فى تلك الليلة .

انتزعت ناستيونا من ذاكرتها شيئا ، انتزعته ونهضت قليلا وسالته على عجل دون ان تفهم ما الذى يحملها على السؤال :

– وفى الاخير ، ماذا قلت لها فى الاخيرة ؟ اخر مرة ؟

– لا اتذكر . ربما قلت لها الشىء ذاته . وماذا بوسعى ان اقول لها ؟

– كان بوسعك ان تعطف عليها ولا تعترض – اجابت بصوت خاو هبط خائرا فى الحال .

– لماذا ؟

– لا شىء . فكم طلبت منك ؟ – راحت ناستيونا تتطلع باهتمام الى نقطة امامها وقالت وكانها ترى ما تقول : – كانت هناك مدافع منصوبة . وفى المنخفض الذى صعدت انا منه اليك تجمعت سيارات كبيرة خضراء . كنت نائما على لبادة ومغطى بمشمع فوق المعطف . كنت نائما فى الطرف ، ورقد قربك ثلاثة او اربعة من رفاقك . واقتربت انا من طرفك بالذات . . .

نهض على كوعه وسلط نظراته عليها :

– من قال لك ذلك ؟

– انا ايضا رأيت فى المنام هذا الحلم . ولكن من جهتى . ما اغرب الامر ! – تجمدت ناستيونا مندهشة وانصتت الى نفسها منتظرة ان يقول لها شىء ما من الداخل عما اذا كان بالامكان الكلام عن ذلك ام لا . حلم مشترك ، من الطرفين . انها لم تسمع بذلك طوال حياتها . حلم مشترك يعنى انه غير عادى ، انه سحرى . ولا داعى

لتفسيره ، كما تفسر الاحلام العادية ، فهو واضح جلى . وبدأت تتذكر وتتحدث بحذر ، وهى على استعداد للسكوت فى اية لحظة :

– علمتنى احدى العجائز ، ولا اتذكر من هى ، وقالت لى : اذهبى اليه وحدثيه عن الاطفال فاذا اعترف بهم ووافق فهذا فال حسن ، واذا رفض فستبقيان كل على حاله . وذهبت اليك . ولكنك رفضت . فانصرفت ثم عدت اليك ، وعدت من جديد ، ولكنك لا تريد ان تفهم . فقد رفضت وبقيت مصرا على الرفض . اردت ان المح لك ولكنى لا استطيع . فقد زعلت على وطردتنى . ولكن لا اتذكر ماذا حدث فى آخر مرة . اتذكر انى توجهت اليك بهيئتى ، وليس بشكل بنت صغيرة لكى اؤثر عليك . فهل جئتك بهذه الهيئة ؟

– نعم .

– وماذا قلت لى ؟

– لا ادرى ، لا اتذكر .

– كان لا بد من ان تقول شيئا ، اليس كذلك ؟

– ربما . لا بد .

– يا للاسف . لم نعرف الشىء الرئيسى – لم تتمالك ناستيونا نفسها فراحت تعنفه : – هل كان صعبا عليك ان توافق او ان تصمت على الاقل ؟ لو فعلت ذلك لسارت الامور بشكل اخر الآن .

– لا يعوزنا الا ان نصدق بمختلف الاحلام – اعترض عليها مترددا .

– انه حلم يختلف عن سائر الاحلام . حلم مشترك من جانبين . وربما رأيناه معا فى ليلة واحدة . وربما كانت روحى هى التى زارتك . ولذا اتفقت كل التفاصيل – واصلت ناستيونا استفساراتها وهى لا تزال مؤملة فى شىء : – وبعد ذلك الم ترنى ولا مرة واحدة مع طفل ؟ تذكر جيدا .

– كلا ، ولا مرة .

– ربما نسيت . ربما انساك حادث اقسى . . . الحرب هذه . فهى تغرق كل شىء وتجرفه .

– كلا ، ربما ما كنت لانسى ذلك . فانا اتذكر كيف جئت . اتذكر ذلك عامين كاملين .

– ومع ذلك نسيت الخاتمة ؟ فكيف لنا ان نعرفها ؟

– ربما لم تكن هناك اية خاتمة . المصير تركها لنا عمدا . لكى يرينا اياها فى اليقظة وليس فى الاحلام . يرينا اياها والباقى يتوقف علينا .

– صرت تتحدث كثيرا عن المصير . ولم الاحظ عليك فى السابق انك كنت تذكره .

– انا مضطر للتحدث عنه . . . – قال بمرارة وهز رأسه – فهل استحق اللوم على ذلك ؟ كيف لا اتحدث عنه وهو موجود هنا ازائى ، لا يفارقنى لخطوة واحدة ؟ لقد استفحل على وصار يعمل ما يشاء .

– لم اكن اقصد لومك اطلاقا . فما قلته قلته تلقائيا .

بيد ان ناستيونا تطلعت الى الجهة التى قال اندرى ان المصير يلاحقه فيها . واضاف اندرى بلهجة تمزج بين التخويف والاسف :

– ثم انه ، ربطك انت ايضا فى عنقى . وسأرى كيف تتخلصين منه .

– لماذا اتخلص منه ؟ اننى معك . واذا حدث مكروه فنحن سوية .

١١

ومع ذلك خفت هموم ناستيونا وتنفست الصعداء بعض الشىء ولكن الثقل لم يتلاش ، كلا ، فقد ازداد هذا الثقل ولا مجال للتفكير فى التخلص منه . بيد انه غدا واضحا جليا . فان ناستيونا التى تاهت وخارت قواها ادركت فجاة اين هى والى اين وصلت . لقد وجدت نفسها ابعد بكثير مما توقعت ، ولكنها تعرف الآن كيف تتخلص من هذه الورطة . ولا فرق عندها فيما اذا كانت قواها تكفيها للخلاص واجتياز كل ما اعده لها القدر ام لا ، ولكنها تعرف الآن الوجهة التى تتجه اليها والجهة التى تسير فيها .

وكان ذلك يعنى بالنسبة لناستيونا الرضوخ والخضوع للامر الواقع وعدم الاعتراض على القسمة والمصير . فليكن ما يكون . لم تكن قد صممت نهائيا بعد على هذا القرار ، ولكنها صارت تدرك بانها لن تفلت منه ابدا . ويبدو ان عليها ان تتجرع كاسها المرة

حتى الثمالة . لم يعد هناك مجال للتراجع ، بل انها لم تكن تريد التراجع . فهو بالنسبة لها يضاهى التخلى عن نفسها . ولم تعترض على اندرى الا لكى تجد فى كلماته عونا لها . فاين يمكنها ان تنشد هذا العون ان لم يكن لديه ؟ لقد منحته املا ما كان بوسعه ان لا يتشبث به . وصار ذلك بالنسبة له كالهواء الذى يتنفسه . وليس من الصعب عليها ان تحزر مسبقا ما كان سيقوله .

فلتظل عجلة المصير تتدحرج على هواها الى ان تتوقف . ولكن كيف ستكون نهاية ناستيونا ؟ ؟ من اين بدات تلك العجلة والى اين ستنتهى ؟

ذلك شىء سيأتى نباه فيما بعد ، فيما بعد . . . فلا يزال فى الوقت متسع ، وستحل النهاية فى حينها .

غير ان الامور اتضحت ، وانقشعت الغشاوة عن الفؤاد : اذا عظمت المصيبة هانت . ولا مفر من العقاب . لقد تجاوزت ناستيونا الحدود بعيدا بعيدا ، وعليها ان تخشى من الكثير الكثير ، ولذا فمن الافضل ان لا تخشى شيئا وان تسير فى طريق مستقيم . لقد خيل لناستيونا ان المصير او ما هو اعلى من المصير قد اختصها واصطفاها من بين الناس ، والا لما وقع على كاهلها دفعة واحدة هذا القدر الهائل من المصائب . ذلك يتطلب من الانسان ان يبرز من بين الآخرين . بديهى انها الآن فى ضيق شديد ، ولكن اليس ذلك افضل من العيش دون هدف ولا نفع ، كما عاشت ؟ اليس هو افضل من السير فى طريق قصير واحد لا يؤدى الى نتيجة ولا يبعث على اى امل ؟ وربما لن يتركها الناس دون ان يعطفوا عليها ، وربما سيساعدونها عند الاقتضاء ، بل وربما سيعظمونها تقديرا لآلامها ، فلا يمكن احراز اى شىء بلا جهد . ستصبر وستتحمل نصيبها كاملا ، ولكنها لن توافق على العيش دون هدف كامراة مذمومة لا تصلح لشىء . فالموت افضل من تلك الحياة .

كانت ناستيونا ، كأى انسان آخر ، تحلم بالسعادة منذ الصغر . ولها تصورها الخاص عن السعادة وهو تصور تغير مع مر السنين . فعندما كانت فتاة كانت سعادتها ، مثلها هى ، حرة طليقة يمكن ان تاتى فى اية لحظة من اى مكان ، والجهات الاربع مفتوحة جميعا امامها . فيخيل اليها انها تقف فى الوسط وان السعادة تمزح

معها فتداعبها من الشمال تارة ومن الجنوب تارة اخرى ، وتضحك عليها وتدغدغها بملمسها الرقيق الخاطف ، وتدعوهـــا للركض وراءها ، ثم تنطلق محلقة لفترة من الزمان بعد ان تقطع لها وعدا بالعودة . كانت تلك السعادة غامرة زاخرة بالفرحة الجميلة العذراء وبالحب والارتياح الى درجة جعلتهـــا تغرق حالا فى لجتها وتسبح وتعوم فيها وترتشفها حتى الثمالة كل يوم وكل ساعة ، فلا تترك منها شيئا . ومع ذلك كان التوقع اللذيذ المريح يحملها على تأجيل لحظة اللقاء التام بالسعادة ، لانها واثقة من ان هذا اللقاء سيتم باى حال . واقدمت ناستيونا على الزواج دون تفكر بانهـــا تترك لنفسها ، من بين جميع دروب السعادة ، دربـــا واحدا هو الدرب العريض الواسع الذى يوجد فيه مجال لمرور الخير والشر دون ان يتلاقيا ودون ان يتصادما . كانت ترى الى الحياة الزوجيـــة بعين الامل وحسن التدبير والعمل ، وكانت تتصورها فى العلاقـــات مع الزوج ، مرحة سهلة . فبهذه الطريقة تغدو ايام العمل اقصر والعطل والاعياد اطول واجمل . بديهى انها يمكن احيانا ان تنكمش او تعثر لسبب ما ، فالحياة ليست بدون شوائب ، ولكنها فيما بعد تنهض من كل بد وتواصل سيرها فى حب ووئام . فهى منذ البداية تحلم بان تعطى فى الحب والعناية اكثر مما تاخذ . فان كونها امراة يعنى ان تخفف من الحياة الزوجية وتهون اعباءها ولهذا الغرض تتمتـــع بتلك القوة المدهشة التى تزداد الدهشة والرقة فيهـــا ويغتنى مضمونها كلما ازداد استخدامها . كانت ناستيونا واثقة من ان هذه القاعدة ستتحقق لديها هى ايضا . ولعل ثقتها كانت مبررة فى هذا الامر فقط . . اما السعادة . . . تلك السعادة التى لاحت امامها فى البداية وعللتها بالآمال ، فقد انسحبت فيمـــا بعد دون ان تخلف اطفالا واسرعت الى الامام ، الى حيث يتعين عليها ان تلاقيها بعد حين من الزمان . بيد ان الدرب الذى يمكن لهمـــا ان تلتقيا فيه غدا اضيق بكثير من السابق ، وكاد يتحول الى دريب او شريط رغم انه لا يزال يبدو واضح المعالم .

لم تكن ناستيونا لتلتفت الى الوراء مطلقا ، ولا تاسف على ما تفعله ولا تغير رأيها فى منتصف الطريق . فالحياة ليست لباسا يمكن تجريبه عشر مرات . كل ما هو موجود لديك يخصك انت ،

ولا يجدر بك ان تتنصل عن اى شىء مهمـــا كان سيئا . صادفت ناستيونا اياما قاسية فى حياتها مع اندرى ، ولكنها لم تكن تفكر حتى مجرد تفكير فى تغيير مصيرها . كانت تصحح مسبقا ما يمكن تصحيحه ، ولكنها لم تكن تفصل شيئا حسب موديلات جاهزة ، ولم تتصور وجود رجل اخر قربها . فذلك يتطلب منها ان تتحول هى ايضا الى انسان آخر ، ومن يسمح لها بذلك ؟ فليفعل الآخرون ما يشاءون ، اما هى فستواصل الحياة التى بداتها ولا تريد ان تتقلب من جانب الى آخر . سوف تنتظر السعادة ، سعادتها هى وليس السعادة الغريبة عليها .

يقال ان السعادة لا تكفى للجميع . فالناس بعضهم محظوظ وبعضهم غير محظوظ . ولكنها هى ، ناستيونا ، شخص واحد فى العالم كله ، شخص لا يمكن استبداله بغيره ، فلماذا يتعين عليها هى بالذات ان تستغنى عن السعادة ؟ ومن الذى وزعهـــا على هذا النحو ؟ فلماذا منحوها الحياة ، اذن ، اذا كان الشىء الذى ولدت من اجله يمكن ان لا تبقى لها حصة منه ؟ حياتها كلها كامنة فيها ، فى فؤادها وروحها وجسدها ، اما ما تبقى فهو متواجد جانبا رغم قربه منها ، وهو موجود بفضلها وبفضل وجودها ، فلماذا يفلت منها عمدا ما هو مخصص لها ويتوجه الى غيرها ؟ كلا ، لا تجوز معاملة الانسان بهذه الشاكلة . حبذا لو كان بوسعها ان تعيش فيما بعد ، مرة ثانية وثالثة لكى تتمكن من استعادة ما فات ، ولكن هيهات ان تعيش وهيهات ان تستعيد ذاك الذى فات . فكل ما لك خذيه معك ، ولا تتركى شيئا على سبيل الاحتياط ، فلا ينفعك اى احتياط .

الحرب وقفت امدا طويلا فى طريق سعادة ناستيونـــا ، ولكن ناستيونا واثقة ابان الحرب ايضا بان تلك السعادة ستاتى . سيحل السلام وسيعـــود اندرى ، وسيتحرك كـــل ما توقف خلال هذه السنوات . ولم تكن ناستيونا تتصور حياتها على نحو آخر . الا ان اندرى جاء قبل الاوان ، قبل النصر ، وشوش كل شىء واخل بنظام الاشياء وخلط الحابل بالنابل . لم تكن ناستيونا لتتوقع ذلك . وهى الآن مضطرة للتفكير ليس بالسعادة بـــل بشىء آخر . فالسعادة

ارتعبت وانسحبت وانزوت فى ركن مجهول ، ركن لا طريق منه ، على ما يبدو ، ولا امل فيه .

الامور تسير من سيئ الى اسوأ .

فهل ستبقى ناستيونا حقا بدون السعادة حتى النهاية ؟ انها لم تواجه فى السابق مطلقا مثل هذا الوضع المريع ، حيث الظلمة تعم كل الارجاء ولا بصيص . حقا ، من سيئ الى اسوأ . الاحوال سيئة اليوم ولن تكون غدا افضل مما هى عليه اليوم . ولكن ما لديها اليوم هو الطفل الذى عانت من اجله وارادته بكل جوارحها . انه يمثل السعادة المنشودة فى تصورها . افلا يعنى ذلك انها تسير جنبا الى جنب مع سعادتها ، ولكن من الجهة المقابلة ، من الجهة الاخرى ، وكأنها جاءت اليها من الخلف او كان ناستيونا جاءتها من الخلف ؟ لا فرق . المهم ان تتلاقيا ولا تفوت احداهما الاخرى .

ولكن ما فائدتها من هذه السعادة الآن ؟

كلا ، لا بد من ان يحدث شيء ويصحح حياتها ، والا فستجن فى امد قصير . لقد حدث ذلك الشيء بالفعل . فهى حامل . لاحظ الاخرون ذلك ولن يجعلوها تهلك . واذا ظهر الطفل الى الوجود فما الذى تريده اكثر من ذلك ؟ اما هو فسيظهر الى الوجود ، سيظهر ، انه يتحرك ، انه قادم .

وهى الآن تعرف ما يجب ان تفعل . يجب ان لا تفعل شيئا . فلتسر الامور كما هى عليه دون تعديل او تبديل . ففى مكان ما ، بعد او قرب ، لا بد وان تنتظرها سعادتها هى سعادتها المشروعة التى عانت الامرين هى الاخرى بسبب افتراقهما وانفصالهما .

ها هى راقدة وعجلة المصير تتدحرج ابعد فابعد .

ظلا راقدين يتحدثان عن صغائر الامور ، وكأنهما يلفان ويصونان بها ذلك الشيء الرئيسى الهش الرقيق الذى قالاه توا . عندما يضطجع المرء يسهل عليه الدخول فى مثل هذا الحوار ، اذ يمكنه ان يقول مغلق العينين ما لا يتجرأ على قوله وهو يتطلع الى وجه محدثه ، ويمكنه ان يصمت برهة بلا خجل ، فيخلو الى نفسه خفية ، ثم يلتقى مع محدثه من جديد .

حل الظلام ، لكنهما لم يشعلا نارا ، فالضوء البارد القاحل يتسرب من النافذة ، حتى بدون القمر ، منعكسا عن الثلج المتساقط . وبدا وجها اندرى وناستيونا فى هذا الضوء شاحبين ، وبدا بدناهما ميتين خاويين وكان حركاتهما ناجمة عن قوة خارجية . وكان صوتاهما يسمعان وكأنهما صوتان غريبان قادمان من بعيد . وكان اندرى وناستيونا نفساهما فى تلك اللحظة الهادئة وكأنهما كائنان خياليان غريبان ، لان ذلك النهار الساخن الفوار انحسر بهدوء وسكينة فنشر الهدوء فى كل مكان ووزع الصفح والغفران قبيل الفراق . وبتأثير تلك السكينة راحا يتحدثان بهدوء وبهمس تقريبا . لم يكن الحوار يتشبث بشيء فسار برفق وبلا تكلف ، وهو يتمايل كالرقاص الذى يمكن ان يتأخر لحظة فى جانب ويسرع لحظة فى الجانب الآخر ، او يتوقف حيثما يريد وينطلق من جديد الى هنا وهناك . الا ان اندرى سأل بلا مناسبة بعد ان توقف الرقاص للحظة :

– ماذا تريدين منى يا ناستيونا ؟

– ماذا اريد ؟ ! ماذا تقصد ؟ – سألت ناستيونا غير فاهمة .

– انا ، مثلا ، اعرف ما اريد منك . وانت تعرفين ما اريده منك . لقد تحدثنا اليوم عن ذلك ، ولا انوى الحديث عنه من جديد . ولكنى ، فضلا عن ذلك ، اريد منك اشياء كثيرة اخرى . فانت تزودينني بالماكل والملبس . وكل ما هو موجود لدى هنا جاءنى عن طريقك . ضميرى يؤنبنى لانى اسحب وآخذ منك ولا اعطيك شيئا مقابل ذلك . يبدو اننى لا ازال احتفظ ببقية من ضمير . اننى عالة عليك ، واية عالة . اثقل عليك من عبء عشرة اشخاص ، بل واكثر . اما انت فمضطرة الى ان تخافى الناس بسببى . انا خائف ، ولدى ما يجعلنى اخاف ، اما انت فما الذى يجعلك تختلفين مع البشر ؟ انا اعرف السبب : انك آسفة على . وستأسفين على ما تحدثنا عنه اليوم . فتلك هى طبيعتك . ولن تغيرى فيها شيئا . انا واثق من ذلك . كلا ، اننى لا احرضك ، فانا اعرفك وكفى . ولن تفعلى حتى وان كنت راغبة . لن تفعلى ذلك ، يا ناستيونا ، وسوف تتذكرين كلماتى هذه . اننى القى عليك بكل الاعباء واظل فى معزل عنها ، فتضطرين الى تحملها

وحدك . انت محقة فيما قلت . فما الذى استطيع فعله ؟ ما الذى استطيع فعله ، يا ناستيونا ؟ اننى اريد مساعدتك ، ولكن كيف ؟ انا راغب جدا فى مساعدتك ، فلست متعودا على اللقمة السائغة . واعتقد بانى مستعد لتحقيق المستحيل للقيام بشىء ، فقولى ماذا تريدين ؟

– ماذا اريد ؟ لا شىء .

– هكذا اذن ، لا شىء . . – تلقف كلماتها بتلهف وكانه لم ينتظر جوابا غير ذلك – هكذا اذن ، انا اريد وانت لا تريدين . الى اى منحدر هويت ؟ : لن ينتظر احد اى نفع منى . اعرف ذلك . ولكنه كان لدى امل ما . وكنت افكر : ربما ستطلب منى شيئا ؟ كلا . حبذا لو طلبت منى اتفه شىء . كلا . ذلك يعنى اننى الآن مصدر للضرر لا اكثر ، ومبعث للعذاب لا غير . كل شىء واضح ، فانا انسان مضيع ، مضيع بالنسبة للجميع . لقد اقدمت على ذلك بالذات . ولكنى فكرت : ربما لست مضيعا بالنسبة لك . وفكرت : ربما ستعطفين على بصدقة وتجدين لى مكانا ولو صغيرا جدا . – رغم الالم الذى احرقه وانبعث منه راح يتحدث بهدوء وبلا استعجال وكانه يشعر بالارتياح لتعذيب نفسه ولتحمل هذا العذاب – ذلك يعنى انك تأسفين على لا اكثر . بديهى ان ذلك ، بالنسبة لى الآن ، وسيلة للانقاذ . بيد ان الاسف وحده لا يتحمل طويلا ، فحبله رقيق جدا ويمكن ان ينقطع فى اية لحظة .

– ماذا تقول يا اندرى ؟ ! ماذا تقول ؟ ! – قاطعته ناستيونا مذعورة – اعتقدت انك سالتنى مجرد سؤال ، فاجبتك ببساطة ، ولكنك فسرت جوابى باكثر مما يحتمل . فهل يجوز ذلك ؟ لماذا تفعل هكذا ؟ وهل يجوز ان تجر الامور الى جانبك وتركلنى دون مبرر . ارجوك ، لا تركلنى ، فقد انفعك . واذا ، شئت ، بوسعى ان اعثر لك على الف عمل الآن .

– اى عمل ، مثلا ؟

– فى البداية لا تتكلم على هذه الصورة . ستغدو الامور عصيبة على حقا فى القريب العاجل . واذا كنت انت ايضا لا تصدق فما الذى يبقى على فعله ؟

– واضح ان الامور اسهل بدونى .

– طبعا ، اسهل ، ولكن الافضل لى لو لم اكن موجودة ، فلا اعرف ولا ارى ولا اسمع شيئا ، ولا اتالم ولا اعانى . فما احلى ذلك وما احلى الاطمئنان ! ولكن ماذا استطيع ان افعل اذا كانت تلك طبيعتى ؟ فلماذا تقول لى كيف ستكون الحال بدونك ؟ لا اريد ان اعرف ذلك . ولا تبعدنى عنك . – سيطرت ناستيونا على انفاسها المتقطعة وواصلت كلامها : – فنتحمل كل شىء معا . وما دمت مذنبا فانا ايضا مذنبة معك . وسنتحمل المسؤولية معا . لولاى ربما ما حدث ذلك . فلا تتحمل الذنب وحدك . لقد كنت معك . هل من المعقول انك لم تر ذلك ؟ فاينما ستكون ساكون معك . وانت هنا كنت معى . وحتى احلامنا واحدة ، فهل ذلك عبث ؟ كلا ، يا اندرى ، ليس عبثا . لقد كنا معا فى كل مكان شئت ذلك ام لا . نصف هنا ونصف هناك . فماذا تعتقد ؟ لو انك وصلت بطلا فهل تتصور انه لا فضل لى فى ذلك ؟ وانه لا يحق لى ان افرح معك به ؟ كلا ، لو حدث ذلك لاعتبرت نفسى بطلة لا اقل منك : فالبطل زوجى وليس زوج غيرى . ولسرت فى القرية مرفوعة الراس اقول للنساء : انظرن واحسدن ، ها هى البطلة زوجة البطل !

– لا داعى لهذا الكلام ، فلا مجال للمقارنة . . .

– لماذا ؟ من يدرى ؟ لم يحالفك الحظ وذلك يعنى اننى لم احافظ عليك بالشكل اللازم ، او انك لم تثق بى ما دمت لم تصمد ، او ان حنانى لم يكن بالقدر الكافى لك ، او ان هناك سببا اخر . لا ترفض ذنبى ولا تنكره ، فانا اراه واشعر به مع ذلك . فلنفترض اننى لم انتظرك وتزوجت من رجل آخر وتركت كل شىء وذهبت معه لا ادرى الى اين ، فهل تعتبرنى مذنبة لوحدى ؟

– فمن غيرك المذنب ؟

– كلا ، ستكون انت مذنبا ايضا . وسيكون لك ضلع فى القضية . كيف لا وانت الذى كنت ستشجعنى على هذا التصرف ؟ ربما نكون قد صممنا على ذلك منذ زمان بعيد قبل الاقدام عليه ، وربما نسينا متى صممنا عليه ، ولكننا قررنا معا ، فانا لوحدى لن اجرؤ على فعله . يا الهى ، ماذا اقول ؟ ! ما كنت لاقدم على ذلك مطلقا . والذى اتصوره انه لا داعى للاقتسام : هذا لك وهذا لى . فقد اتفقنا على حياة مشتركة . عندما تسير الامور على ما يرام تسهل

الحياة معا ، فتلك قضية بسيطة . ولكن يجب ان نكون معا عندما تسوء الامور . وهذا ما يجعل الناس يعيشون معا . عندما عجزت عن انجاب طفل لم تطردنى انت . ووافقت على بعيوبى ولم تذهب للبحث عن واحدة افضل . فهل استطيع الآن ان انفصل عنك يا ترى ؟ لو فعلت ذلك لعذبت نفسى ولسحقتها فيما بعد . . .

– تلك اشياء ليست متماثلة ، يا ناستيونا . فانا مجرم ، والقانون ضدى . فما الذى يجعلك مجرمة معى ؟

– فات اوان السؤال . كان يجب ان تفكر بذلك عندما اقدمت على فعلتك . وطالما اقدمت عليها فقد جذبتنى معك . وانا لا افهم القضية بشكل آخر . انت نفسك تقول : اننا مرتبطان بحبل واحد . تلك هى الحقيقة . ولكن ثق بى ، ثق ، والا فستسوء احوالنا كلينا ، وسنؤذى نفسينا بنفسينا . – صمتت ناستيونا منتظرة جواب اندرى ، ولكنه تلكا فى الجواب ، فاضافت بعد تفكير : – ربما كنت اريد لنفسى مصيرا آخر ، ولكن المصير الآخر لدى الآخرين ، اما مصيرى فهو هذا وليس غيره . ولست آسفة له . فهو مصيرى . – صمتت ناستيونا من جديد ، ثم اضافت : – قد تنتهى المشكلة بسلام ، يا اندرى . لا بد وان تنتهى بسلام . انا واثقة من ذلك .

لم يجبها بشىء .

– اما انا فمرتاحة الآن ايضا . انت تتذكر : اننى لست بحاجة الى الكثير . انا معك ، وذلك يكفينى ، اما ما تبقى فهو بعيد بعيد . اننى لا اتذكر ما كان ولا ارى ما سيكون ، بل ولا اصدق بان شيئا ما سيكون . يخيل الى ان الامور ستبقى على حالها هذه الى الابد : انت وانا سوية . نحن معا . غير ان بودى لو جعلتك تحلق لحيتك ، ففيها تبدو شخصا غريبا . لا استطيع ان اتعود عليها مهما فعلت .

رفعت ناستيونا راسها والتفتت اليه ، فاحس من تغير انفاسها ، دون ان يراها ، بانها تبتسم . كانا حتى الآن راقدين بلا حراك ووجهاهما متجهان الى الاعلى ، الى السقف ، وكانهما لا يخاطبان بعضهما البعض ، بل يكلم كل منهما نفسه . تحدث اندرى من البداية حتى النهاية مغمضا عينيه . فهذا اسهل عليه بالفعل .

ولكنه فتح عينيه الآن وهو يرد على ابتسامة ناستيونا ، فالتقتا بنظرتها المتفحصة المنصاعة ، ولم يتحمل فاشاح بوجهه . ثم سأل هازا راسه باسف هادئ قانط وكانما يقنع نفسه بما قال :

– لماذا لم نتحدث هكذا ولا مرة فى السابق ؟ فلربما سار كل شىء بشكل آخر . او ان ذلك مجرد تصور بان كل شىء ربما سار بشكل آخر . من يدرى ؟ لكننا لم نتحدث . الشىء الواضح اننا لم نتحدث فى هذا الامر . كل ما كنا نقوله هو بضع كلمات عن التوافه ، كل يوم كنا نتحدث عن التوافه . طوال اربع سنوات كان الوقت كافيا لكى نتحدث بعمق اكبر ونسأل بعضنا البعض عما يشغل باله . ذلك يعنى اننى لم اكن اعرفك كما يجب . ولم اعرف غير المظهر . فانت موجودة وهذا يكفى ، اما من انت ، فلم اكن اعرف . كيف تجرأت على ضربك ؟ آ ؟

– لم تضربنى .

– لم اضربك ؟

– لم تضربنى .

– يعنى انك لا تحملين غيظا ولا تتذكرين السوء . تقولين : لم اضربك . اذن فلم اضربك . مع ان من الاسهل على لو انك تتذكرين . فماذا افعل بك وانت على هذا المستوى ؟ ساكون مدينا لك بالكثير ، وليس بوسعى ان اسدد الدين ، كما ترين . آه ، يا ناستيونا ! كان يجب ان تتزوجى من شخص آخر وليس منى . لا تظنى بانى امزح فانا اقول ذلك جادا . انت من مستوى رفيع . ولا افهم كيف وافقت على الزواج منى ؟

– لست بحاجة الى غيرك ، فانا مرتاحة معك . لقد ذكرت ذلك ، فلا داعى لان تقرر بدلا عنى .

– كيف لا ؟ مرتاحة . . .

– انت لا تفهم شيئا ، يا اندرى . – قالت ناستيونا بهمس كئيب وبزعل وتاوه وخفضت راسها من جديد على السترة التى اتخذتها وسادة – اين كنت ، يا ترى ، حتى لا تعرف مرتاحة انا معك ام لا ؟ – لم يجبها . فقد ادرك بانها ليست بحاجة الى جواب . – عندما جئت بى الى هذه الانحاء لم اكن اعرف احدا

فيها . كل شيء كان غريبا على . ويمكن القول انى سرت وراءك بعينين مغمضتين ، دون ان اعرف الى اين تقودنى ودون ان اعترض على ذلك . ثم اننى لم اكن اعرفك انت تقريبا ، فقد تلاقينا مرتين او ثلاثا مازحين ، واتفقنا على عجل وكأننا نمزح ايضا . حتى اللحظة الاخيرة لم اكن واثقة بانك ستاتى . افليس ذلك مرعبا ؟ تغيرت حياتى كلها ، ولم يبق من تلك الحياة شيء غيرى انا ، بل ولم اعد افهم هل ان تلك الفتاة هى انا ام لا ؟ لا بد وانك تتذكر عندما نزلنا من الباخرة كيف عجزت عن رفع بصرى وصرت اتعثر على الارض المستوية . هل تتذكر ؟ عندما صعدنا الضفة العالية تشابكت قدماى وسقطت . وضحك الناس ، اما انا فقد زاغ بصرى ولم اعد ارى الارض تحت قدمى . وادركت انت بانى خائفة جدا فامسكت بيدى وقدتنى . وعندما دخلنا المنزل قلت : هذه زوجتى . وسأل ابوك : ما اسمها ؟ فاجبت انا : ناستيا . فقال : ناستيونا احلى . ومنذ ذلك الحين صار اسمى ناستيونا . وامك تتطلع صامتة . فادركت بانني لم اعجبها وانها ربما كانت تنتظر كنة اخرى . ولاحظت انت ذلك . لاحظته وقلت عنى : انها وحيدة هنا ، ولا احد يدافع عنها ، فلا داعى للاساءة اليها . قلت بلهجة مازحة وكانك تنكت ، ولكن اية نكتة تلك فى الواقع ؟! وعند ذاك فقط آمنت بانى لم اخطئ فى زواجى منك وبانى ساكون مرتاحة مع انى تسرعت كثيرا .

فى ذلك المساء اصطحبتنى الى معارفك . هل تتذكر ؟ زرنا فيتيا بيريوزكين ومكسيم فولوغجين وغيرهما . نسيت ان اخبرك : مكسيم عاد قبل ايام ، ويده مصابة بشدة ، كما يقول . وهى مربوطة الى عنقه حتى الآن — لزم اندرى الصمت ولم يبد اية استجابة لهذا النبأ ، فواصلت ناستيونا : — لم تتوجه الى الناس للتباهى بى ، بل لكى اتعرف انا عليهم فى الحال حتى لا اشعر بالغربة بينهم . وبالفعل فعندما قابلت فى الصباح نادكا زوجة فيتيا استغربت جدا وفكرت : اننى اعرف هذه الفتاة ، فمن جاء بها الى هنا يا ترى ؟ اننى اعرفها ، ولكن من اين اعرفها ومن هى ؟ وبعد ذلك تذكرت : عجيب ، لقد تعرفت عليها البارحة . لقد جئت بها انت الينا فى حين اختلط كل شيء فى ذهنى .

وفرحت بها فرحا شديدا وكأنما هى من اقاربى . واتذكر اننا بتنا ليلتنا فى العنبر . كانت تلك رغبتك ، ففرشوا لنا هناك . فى البداية استفظعت الامر ، ولكن العنبر كان نظيفا جدا ، وهو العنبر الصغير الواقع فى طرف الحوش . غير انه مظلم جدا بدون نافذة . وكذلك التخت ، مثل هذا ، ولا اتذكر اين اختفى ذلك التخت ومن رفعه ؟ اعتقد انك انت رفعته . نعم ، انت . فقد بنيت هناك خزانة خشبية وانا آسفة لذلك التخت . كان تختا جيدا . الظلام شديد هناك كما فى القبو ، ولكن رائحة الخشب ونشارته تفوح فى كل الارجاء . ربما كان ابوك يمارس النجارة هناك . واتذكر جيدا ان رائحة نشارة الخشب كانت تفوح منك ايضا . وسألتنى : هل انت خائفة ؟ فقلت لك : كلا ، لا اخاف ما دمت معى . وكان هناك ديك فى وكر الدجاج وراء الحائط وكأنه يستمع الى ويريد ان يجربنى فصاح بصوت بغيض . قفزت من مكانى مرتعبة — وضحكت ناستيونا ، فانسابت ضحكتها برقة وحنان ثم خفتت . وتنهدت بيسر . — وفى الصباح لم اتمكن من العثور على الباب ، وقفت متحيرة لا ادرى فى اية جهة هو . اما انت فنمت حتى الظهر ونسيت زوجتك الشابة . ذهبت الى النهر وتفقدت البستانين البعيد والقريب . ولم اتناول فطورى بدونك . فبقيت انتظر . لم تتحمل امك فايقظتك . واتذكر اننا جميعا ، ابوك وامك وانت وانا ، تناولنا الشاى مع البقسماط . وداعبتنى بهدوء وزعمت مازحا بانى لم اكن معك طوال الليل . وبعد ان شربنا الشاى قلت لى : استعدى للذهاب . الى اين ؟ الى الجبال والوهاد . وبالفعل قدتنى الى الجبل ، الى الهضبة المنبسطة ، فشاهدنا الحقول والمروج ، وحدثتنى عن كل شيء ، وتجولنا حتى المساء . وعندما عدنا الى المنزل وجدنا اصدقاءك ينتظرون . فقالوا : احضر العرق ما دمت قد تزوجت . وكان فيتيا هناك ايضا ، ومكسيم فولوغجين . فيتيا قتل . لا بد وانك تعرف بذلك . فقد كتبت لك عنه . ولكنى لا اتذكر هل كتبت لك ان ابنة نادكا ولدت بعد مقتله ام لا ؟ عندها الآن ثلاثة اطفال . وهى تتعذب كثيرا بسببهم . فما العمل ؟

التفتت ناستيونا الى حيث يرقد اندرى . كان جامدا كالصخر ،

وحتى انفاسه خفتت . فشعرت بالاسف لانها تذكرت فيتيا ، فهو صديقه الحميم . ولكنها لم تكن راغبة فى تحويل مجرى الحديث بهذه السرعة ، بل وربما لم تكن قادرة على ذلك . فالذكريات الحية لا تزال ماثلة بكامل قوتها ، وهى ترتعش بفرحة مقلقة امام انظارها تستعطفها ان تواصل الحديث عنها ولا تقطع حبلها . ان ما توقفت عنده ناستيونا قريب جدا وهو يداهمها فى محاولة لاجتذابها والاستحواذ عليها وتوجيهها الى الامام . فقد كانت تلك الذكريات سعيدة مفرحة وواعدة حقا . ومع ذلك كبحت ناستيونا تلك الذكريات : كفاية . واستولت عليها رؤية جديدة ومزاج جديد فسألت باسمة :

– هل تتذكر كيف جئت اليك فى مركز الناحية عندما كنت تدرس فى الدورة ؟

فى الشتاء الثانى لزواجهما بعثت التعاونية الزراعية اندرى للدراسة فى دورة المحاسبين . كان قد انهى المدرسة الابتدائية ، فاعتبروه متعلما ونصحوه ان يترك عمل سائق الجرارات الذى اختاره ونسبوه الى المحاسبين . تلك وظيفة محترمة ايضا رغم انها لا تشبه العمل فى الجرارات . فهو سيعمل فى مكان واحد ويكون فى البيت دوما ، اما لو عمل فى محطة الآلات والجرارات فسيقضى شهورا بكاملها فى حقول غريبة وبين اناس غرباء . وهذا ما اثر على اختيار اندرى لمهنته عندما تسنى له الاختيار .

فى عيد راس السنة وصل الى البيت وبقى اسبوعا ، وفى شباط ذهبت اليه ناستيونا . تعين عليها ان تقطع زهاء سبعين كيلومترا الى مركز الناحية وان تبيت الليل فى الطريق . رافق ناستيونا فى زحافة واحدة اينوكينتى ايفانوفيتش وفاسيليسا الحكيمة التى قصدت المستشفى لسبب ما . راح اينوكينتى وناستيونا يتحدثان عن كيت وكيت من اجل قضاء الوقت . اينوكينتى ايفانوفيتش محب للكلام ، اما فاسيليسا الحكيمة فالسكوت عندها من ذهب . وصلوا فى مساء اليوم التالى واتفقوا على انجاز الاشغال خلال النهار وافترقوا . لم تكن لدى ناستيونا

اية اشغال سوى رؤية اندرى . وتلك قضية لا تكفيها الايام مهما طالت .

استاجر اندرى غرفة فى منزل معتم على الضفة غير بعيد عن مصب الجدول فى نهر انغارا . ولم يبعث وصول ناستيونا السرور لدى صاحبة المنزل العجوز . والاكثر من ذلك ان وصولها لم يبعث السرور لدى النزيل الثانى فى غرفة اندرى ، وهو رجل كهل متجهم بوجه مجدر كالح ونظارات ذات زجاجتين مختلفتين – احداهما اكثر عتمة من الاخرى – شبيهتين بغمامة اعين الخيل . فقد ظل راقدا على السرير يطالع كتابا دون ان ينهض ودون ان ينطق بكلمة ترحيب . اضطرب اندرى وتحير ثم رافق ناستيونا الى فندق الفلاحين كى تبيت ليلتها .

قبل ان تسافر ناستيونا الى اندرى كانت تدارى املا ضعيفا تخشى ان يتبدد فلا تتذكره الا لماما . بديهى انها ما كانت تريد اطلاقا اطلاع اندرى عليه . خيل اليها انه طالما تعذر عليها ان تحبل فى البيت فلربما استطاعت ان تحبل هنا . ففى البيت تعودا على بعضهما البعض ، اما هنا فكل شىء جديد ، وليس من المستبعد ابدا ان يكون لذلك تاثيره .

وليس عبثا ما يقوله الناس من ان اسرع الاجنة واكثرها تشبثا هى التى تنشأ من وصال عاجل منسى غير شرعى . فبعد حين من الزمن ينمو الجنين طفلا ويفاجئ امه قائلا : بابا يسلم عليك ! اما ناستيونا فكل شىء عندها نزيه ناتج عن الحب ، ولكن يفارق واحد هو انه بعيد عن المنزل ، ولذا قد يكون بعيدا عن الاخفاق . لم تكن واثقة من ان بدعتها هذه يمكن ان تسفر عن نتيجة ، ولكنه كلما تضاءلت ثقتها بذلك كلما اندفعت اليه فى محاولة للتشبث منه .

– هل تتذكر انك لم تذهب للدراسة فى الصباح ، وجئت الى فذهبنا الى المقهى القريبة على الجانب الثانى من الطريق ؟ كان على الطاولة سماور ضخم لم ار مثله مطلقا . حنفيته مثقوبة يقطر الماء منها فوضعوا تحتها خصيصا صحنا غميقا . ولا ادرى لماذا لم يلحموه . عندما جاءت المراة التى تصب الشاى صبت فى قدحك من ماء الصحن بسرعة خاطفة . لاحظت انت ذلك ، وقلت لها :

صبى لى من السماور . فجادلتك قائلة : ان هذا من السماور ايضا . قلت انت : كلا ، هذه قطرات من ماء بارد . ليس هذا شايا ، بل ماء غسيل . فقالت : ليس ماء غسيل . فقلت : ماء غسيل . ومع ذلك تراجعت ، وصببت لك من السماور . واتذكر انك اشتريت لى حلوى مغلفة بورق ، واكلتها انا مع الشاى بدلا من السكر . حلوى عسلية عاطرة لزجة يبقى طعمها طويلا بعد تناولها . — تمطقت ناستيونا ولحست شفتيها وكانها تستعيد ذلك الطعم العسلى الذى لا ينسى .

— وبعد تناول الشاى توجهنا الى منزلك . لم نجد نزيلك المتجهم ذا النظارات المتنافرة ، اما العجوز فكانت موجودة فى البيت ، فهى ليست بحاجة الى الدراسة فى دورة المحاسبين . جلست وراحت تتطلع الينا وتنتظر ما سنفعل . عجوز خبيثة . لاحظت اننا ننتظر ذهابها ، ولكنها بقيت عمدا . وعند ذاك فكرت انت بكيفية ابعادها ، فاعطيتها نقودا لتشترى قنينة عرق من الحانوت . وهى ، كما قلت لى فيما بعد ، تحب شراءها بنفسها ولا تثق باحد فى هذا الخصوص . اخذت العجوز تستعد للذهاب وقالت انها ستشترى القنينة بسرور ولولاها لما تزحزحت من مكانها . وطلبت منها انت ان لا تستعجل ، فالوقت كاف . وقالت لك : الوقت كاف لى ، اما انت يا عزيزى فاغلق الباب بالمزلاج مع ذلك كى اطرق الباب وادخل بيتى بشكل مهذب .

ضحكت ناستيونا بدفء وهدوء دون ان يرتعش بدنها . وتهادت ضحكتها كصوت عجلة صغيرة مرت ببركة ماء فى الطريق وابتعدت برفق .

— وبعد ذلك تجولنا طوال النهار فزرنا كل الاماكن التى يمكن ان تزار — خفضت ناستيونا صوتها من جديد الى حد الهمس وواصلت كلامها ممطلة الالفاظ : — لم تتركنى ولا خطوة واحدة ، بل كنت مسرورا لاننا معا ، فقد لاحظت انك كنت مسرورا . اما انا فما اعظم سرورى ! كانت الفرحة تدفئنى فى صقيع الشتاء . اسير واحس كيف يتسخن وجهى من الداخل وكيف ترتعش يداى . فقد كنت فى البداية اخشى ان تسالنى لماذا جئت ؟ وبالفعل ، لماذا جئت ؟ هل يمكن توضيح ذلك بالكلمات ؟ لم يكن لى اى

شغل عندك . لقد جئت وكفى . نزلت عليك فجاة ، فماذا يمكنك ان تفعل ؟ ورحت اتمشى واتنزه واشغل زوجى عن دراسته . وذهبنا الى السينما — هتفت فجاة بصوت يكاد يقرب من الصياح — هل تتذكر ؟ ذهبنا الى السينما ؟ كدت انسى اننا شاهدنا السينما . غدت ذاكرتى سيئة جدا حتى انها لا تحتفظ باهم الامور . وفى اليوم التالى عندما كنا عائدين الى قريتنا حكيت قصة الفلم . حتى فاسيليسا الحكيمة فتحت فمها . اتذكر اننا جلسنا ، انا وانت ، فى آخر صف تحت الفجوة التى كان شعاع السينما ينبعث منها . وقبيل النهاية انحنيت على وهمست : لماذا تسافرين غدا ؟ الا تستطيعين ان تبقى يوما آخر ؟ فهززت رأسى بالنفى ودموعى تسيل على خدى : فقد طلب منى ، هو بنفسه ان ابقى ، وكاد قلبى يقفز من بين الضلوع . . .

وبعد ذلك ، هل تذكر ما حدث بعد ذلك يا اندرى ؟ انه مضحك للغاية . فقبل ان توصلنى الى فندق الفلاحين عرجنا من جديد على منزلك . ونحن نعلم ان العجوز صارت طيبة القلب . وعندما دخلنا قالت لك : اعطنى ، يا عزيزى ، نقودا لشراء قنينة اخرى ، ويمكنكما ان تبقيا هنا ، فى مطبخى ، اما انا فسابيت الليل عند صاحبتى ، وسوف نتدفأ ، كلتانا ، حول القنينة . واعطيتها انت النقود ، فما الداعى لرفض طلب العجوز ؟ واختفت لكنها سرعان ما عادت حتى قبل ان نفكر بالنوم ، وقالت : الحانوت مغلق ، ولا استطيع الذهاب الى صاحبتى بدون الخمر . وعند ذاك ذهبت بنفسك لا ادرى الى اين ، وحصلت على قنينة سلمتها للعجوز فانصرفت . واتضح بعد ذلك ان نزيلك المتجهم لم يات هو الآخر ، فقد بات فى مكان ما . وبقينا تلك الليلة لوحدنا كالملوك . آه ، يا اند . . رى ، كل هذا وانت تسال : هل كنت مرتاحة معك ؟ فلماذا تسال هكذا ؟ يا الهى ، هل تعتقد اننى بحاجة الى اكثر من ذلك ؟

الا ان اندرى لم يعد يسمع ناستيونا او يفهمها . فعندما كان يتابع ذكريات ناستيونا فى البداية احس بالم لذيذ يعتصر قلبه بشدة متزايدة ، وسببه ان ذلك كله قد حدث بالفعل فى زمن ما . فهو يتذكره ايضا ولكن بجفاف وغموض وبخل واستعجال ، وكان

ذلك حدث ليس له ، بل لشخص آخر قبله ، لشخص آخر تنازل له عن ذاكرته . وهو لا يدرى ماذا يفعل بها . انها حية نشيطة ثاقبة لا تحمل له سوى الآلام ، فهى لا تريد ان تتعايش مع ذاكرته الاصلية . ولم تكن هاتان الذاكرتان راغبتين فى تفهم بعضهما البعض . تمكنتا من احتلال موقعين مختلفين تماما فى وعاء واحد دون ان تختلطـــا ودون ان تتجاوزا الحدود المرسومة . بيد ان ذاكرته الاصلية كانت اقوى واشد ، فهى ، عندما تريد ، تتفوق على ذاكرته المكتسبة .

وحدث ذلك فى هذه المرة ايضا . كانت ناستيونا تتحدث بانفعال خفيف ، وكان هو يسمع اليهـا دون ان يجيب ، فيلحق بمجرى حديثها تارة ويتخلف عنه تارة اخرى حيث يتوقف قليلا عند التفاصيل الخاصة به هو . كان يسير وراء ناستيونا فى الدرب المطروق ، ولكنه ، رغم ذلك ، اخذ يتعثر كثيرا ويتلفت متألما وخائفا من الوجهة التى تقوده اليها . وعندما فاجأته ذكرياته الاصلية الخاصة لم يستغرب . بل كان واثقـا من انها ستفاجئه ، وكأنه ينتظرها مؤملا فى تحمل العذاب وتجرع ما يتعين عليه تجرعه ، لكى يعود بعد ذلك الى ناستيونا من جديد .

بدأت تلك الذكريات من لاشىء ، من بيت عنكبوتى واه سحبه دون حذر فاتضح بانه كاف ليثير امام اندرى لوحة اخرى ظهرت برفق فى البداية ثم انهالت عليه . اللوحة قريبة من واقعه الراهن ، ولم تكن لديه القوى الكافية لرفضها والتخلص منها . تلك هى آخر الذكريات المرتبطة بالحرب ، وهى دومـا تمثل امامه بغتة وتستولى عليه طويلا بتسلط وبلا رحمة وتلقى الاضواء على كل التفاصيل بدقة تثير الرعب والفزع . لقد اضطر اندرى غوسكوف مرارا الى معاناة الشىء ذاته وبنفس تلك التفاصيل . فان حياته فى الحقيقة انقلبت راسا على عقب منذ ان وقع ذلك الحادث : فقد نقل فى البداية الى المستشفى ثم توجه الى هنا مباشرة .

. . . فى امسية دافئة من امسيات الصيف كانت البطارية تستعد للانتقال الى موضع آخر بعد ان انجزت القصف المدفعى التمهيدى من موقع نارى مستور . قطعوا الاتصال مع المراقبين من زمان ، وتأهبت بطارية الميمنة للتحرك ، بينما كانت الاستعدادات فى

طورها الاخير فى بطارية الميسرة . لم تصدر اوامر بالاستعجال . كانوا قد فكوا عربة مدفع الهوتزر الذى يقاتل اندرى ضمن المفرزة القائمة على خدمته ، وانجزوا رفـع جهاز التصويب وربط المساند وانشغلوا فى تغليف المدفع بالمشمع . ومن الخلف ، من وراء الهضبة المحدبة المكسوة باشجار متناثرة زارت محركات الشاحنات الواحد تلو الآخر وزحفت باتجاه المدافع شاحنتان ثقيلتان يهتز هيكلاهما المرتخيان .

يبدو ان زئير محركات شاحناتنـــا هو الذى غطى على زئيـر دبابات العدو . كانت الاستعدادات للانتقال قد اضعفت انتبـاه الجنود وخففت من شعورهم بالخطر حتى انهم لم يهتموا بالزئير الغريب المكثف مع انهم سمعوه وتحسسوه فى اغلب الظن . وعندما ظهرت الدبابات الالمانية على المرتفع امامهم وفرملت للحظة كى تنفض حيرتها العابرة ثم انسابت الى الاسفل بدا لهم ذلك وكأنه كابوس من فعل الشيطان . من اين جاءت ؟ كانت قواتنا فى الامام ! فمن اين جاءت دبابات العدو ؟ وتعالى صياح فى كلتا البطاريتين وتراكضت المفارز وهى تخلع اغلفة المشمع وتفتح مساند المدافع وتخفض مواسيرها وتديرهـــا . كان اندرى (ومهمته هى تعبئة المدفع) قد هرع الى صندوق القذائف عندمـــا اصيب بهزة القته ارضا . واثناء سقوطه رأى وكأنه بعينين مغمضتين ، كيف تسبح عجلة المدفع المجاور ببطء وهى تدور مرتفعة الى اعلى ثم تهبط من جديد . وعندما ادرك بانه لا يزال حيا قفز الى الامام وانتشل الصندوق .

كانت الدبابات خمسا . وتمكن جنود بطارية الميسرة وهى البطارية الاولى ، من اصابة احداها ، فاشتعلت النار فيها . اما البطارية الثانية التى يقاتل فيها اندرى فلم يكن قد اتسع لهـــا المجال لتطلق النار بعد . راح القائد يصرخ بصوت متوتر ابح ، ولكن ما ينبغى فعله واضح حتى بدون اوامر . زحفت الدبابات من المرتفع وانقسمت فى اسفله ، فتوجهت دبابتان نحو البطاريـة الاولى وتوجهت الدبابتان الاخريان نحو البطارية الثانية ، وسارت الدبابات الاربع ، متحايلة ، على خط وسط بين البطاريتين لكى

يضرب المدفعيون بعضهم بعضا . بيد ان الوقت لم يكن يتسع للتفكير فى ذلك .

تمكن الهوتزر الاول الذى يعبئه اندرى غوسكوف ، وهو المدفع الرئيسى فى البطارية ، من اطلاق النار مرة واحدة لا غير .

وبعد ذلك دوى قرب اندرى انفجار بفرقعة شديدة عابرة ، والقى به جانبا وهو يتدحرج كالخذروف كما خيل اليه .

ومن مكان بعيد مجهول تهادى صوت ناستيونا حنونا رقيقا ، فارتعش اندرى لنغماته ، ولكنه لم يسمع كلماته ، فقد اصم سمعه زئير تلك المناوشة الفظيعة القصيرة التى نشبت بين الحديد والحديد حتى لكان وجود البشر غير ضرورى فيها . وتعاقبت صور المعركة امام عينيه بومضات ضوئية قصيرة متكررة وفاحت رائحة الدخان والحريق واختلطت فى دوامة ساخنة واحدة صرخات البشر ، وخطوط التربة السوداء التى مزقتها سكك عربات المدافع غير المثبتة ، والشاحنات المنسحبة على عجل الى مخبئها ، ووجه كوروتكو مصوب المدفع الذى رفع راسه قليلا ليتطلع الى بطنه الممزق بشظية ، وغطاء ماسورة قذفه الانفجار الى اعلى — كل ذلك وسط جلجلة جنازير الدبابات المتصاعدة التى ضاعف الرعب من شدتها .

واختفى صوت ناستيونا فجاة . لم يكن اندرى قد استيقظ ولم يعد بعد من معركته الاخيرة عندما التفت بحذر صوب ناستيونا فراى فى عينيها شيئا مغايرا لذلك تماما ، راى فى عينيها دفنا ينبعث من ذكرياتها هى . فلم يضبط اندرى اعصابه ودس راسه فى صدرها وراح يئن ، فارتعبت :

— ماذا بك يا اندرى ؟ ماذا بك ؟

كاد ينتحب ، ولكنه ضبط نفسه وقال :

— لا شىء ، لا شىء يا ناستيونا . انت هنا ، انت معى .

ولكنه لا يزال خائفا من ان المعركة التى شهدها الآن هى حاضره الراهن ، فظل يتلفت حذرا . واخذت ناستيونا تداعب شعر راسه بيدها وتتحدث عما يشغل بالها :

— بم تفكر ؟ انت احمق ولا بد . فقد تخيلت شيئا . ربما لا تكون انت مرتاحا معى ، فلا تتحدث باسمى . انا مرتاحة معك

دوما ، اؤكد لك : دوما . وانا لا افكر حتى مجرد تفكير بانى استطيع ان اعيش بدونك . كيف اعيش بدونك ؟ وطوال هذه السنين انتظرتك انت وليس غيرك . لم انم ليلة واحدة دون ان اتحدث معك ، ولم انهض فى الصباح ابدا دون ان التقى بك واعرف ماذا حدث لك . لقد خيل الى حقا انى اراك : فى البداية لا احد غير حفيف يشبه حفيف الريح ، وبعد ذلك يعم الهدوء شيئا فشيئا ، ويعنى ذلك انك لست بعيدا ، ثم اراك انك . اراك وحيدا على الدوام ، ولا ادرى لماذا ؟ تجلس او تقف بزى الجندى ، وانت حزين ، حزين جدا ، ولا احد حواليك . اتطلع اليك واتاكد من انك حى واعود ، فلا يجوز التاخر او التكلم معك . وبعد ذلك اتحمل واتجاوز ضعفى من يوم لآخر . ربما بالغت فى انتظارك حتى ضيقت على حريتك وقيدتك فى القتال . فمن اين لى ان اعرف ما يجوز وما لا يجوز . لقد فعلت ما اتمكن منه ولم يوجهنى احد ولم استنصح احدا . اما انت فكنت صامتا . آه ، يا اندرى ، يا اندرى . . .

امسك راسه بكلتا يديه واخذ يديره بسرعة من جانب الى جانب وكانه يحاول انتزاع ثقل لا يقوى على تحمله وقال بانين عميق :

— يا الهى ، ماذا فعلت ؟! ماذا فعلت يا ناستيونا ؟! —

وخفض يديه والتفت اليها : لا تاتى الى بعد الآن ، لا تاتى هل انت سامعة ؟ وعند ذاك ساذهب ، ساذهب نهائيا . فلا يجوز ان ابقى على هذه الحال . كفاية . لا يجوز ان اعذب نفسى واعذبك . كفاية . لا استطيع .

تجمدت ناستيونا متحيرة ، ثم اعترضت عليه :

— كلا . انت تذهب ، وانا ؟ ما الذى سيحدث لى ؟ هل فكرت فى ذلك ؟ فالى اين اذهب بذنبى الذى لا يمكننى الظهور به امام الناس ؟ فلنبق معا . ولننتظر ، يا اندرى ، فلا تستعجل . ربما ستحل المشكلة بسلام ، لا بد وان تحل بسلام . كانت امى تقول من زمان : ليس هناك ذنب لا يغتفر . افليسوا هم بشرا ؟ ستنتهى الحرب وسنرى . فاما ان تذهب لتعلن التوبة واما ان يحدث شىء آخر . ولكن اصبر ولا تنصرف ، فانت لوحدك ستهلك . وانا ساهلك . فى البداية ساهلك انا . اما الآن فانا اعرف ، على

الاقل ، اين انت ؟ واذا كان هناك طفل حقـــا فانت الوحيد الذى يعرف انه طفلك . وعلى من اعرض احزانى ؟ .. اننى الان غريبة عن الناس . عاهدنى على انك لن تذهب . آ ؟

لم يجب ، ولكنه هز راسه بعد حين . فقالت متنهدة :

– اجل ، لا داعى لذلك .

ولزمت الصمت لحظة ثم التفتت الى النافذة وقالت :

– الظلام شديد . نسيت بان على ان اذهب . انهض ، يا اندرى ، فلنذهب . قلت انك سترافقنى . فلنذهب . وسنكون معا فترة اطول . لا تفكر بشىء . فانت لست وحيدا . ولو كنت وحيدا لكان لك الحق فى ان تفعل ما تشاء .

وحال الظلام دون رؤية الدموع التى سالت على خديها .

١٢

بعد ثلاثة ايام من هذا اللقـــاء ، حالما ازيحت الثلوج التى حملتها الريح وتكشفت الطبقة المتجلدة القديمة ، استعد اندرى غوسكوف للتوجه الى اتامانوفكا . كان يفكر ، من زمان ، بالتجوال قرب القرية ، ولكنه يؤجل ذلك خوفا من افتضاح امره بالصدفة او بقلة الحذر . اما الآن ، بعد الحديث مع ناستيونا ، وبعد ما عرفه منها ، فلم يعد قادرا على الحد من رغبته . ومما يثير الدهشة انه الآن يشعر بثقة اكبر وكانه حصل فجاة على حقوق خاصة بتواجده هنا . فقد غدا اقل خوفا واقل اهتماما بالخطر الذى يتربص به . زد على ذلك ان الطقس صار ادفأ وعمت تباشير الربيع ، وهذا الامر يناسبه تماما ، فلو تاخر قليلا لفات الاوان .

عبر غوسكوف نهر انغارا فى منتهى ليلـــة صافية مرصعة بالنجوم والفجر يكاد ينبلج . استدار حول القرية من طرفها السفلى وصعد الهضبة . فهو منذ ان عاد لم ير قريته اتامانوفكا من هذه الجهة ، فبدت له اصغر مما كانت . تطلع الى المنازل الواطئة فلاحت وكانها منبطحة ، وليست منتصبة ، على طول الشارع ، بنوافذها المنخفضة المتباينة (بعضها بمصراعين من الخارج وبعضها الآخر بدون مصراعين) . وبدت النوافذ فى تلك الحقبة شبيهـــة برقع

على الثياب . ورأى سطوح المنازل وهى تكاد تلامس الارض ، كما رأى اسيجتها الخرقاء الممتدة الى الجانبين ، فلاقى صعوبة فى التعرف على دياره . غوسكوف يتذكـــر عن ظهر قلب مواقع كل المنازل وعائديتها ، ومع ذلك راح يتطلع اليها بانتباه كبير حتى كاد يتحير امام كل منها : هل هو ذلك المنزل ام لا ؟ انه هو من حيث الموقع ، ولكنـــه مشكوك فيه من حيث المظهر . فاما ان يعود السبب الى عدم انبلاج الفجر بعد بالشكل الكامل ، والى كون الهواء لا يزال قاتما كابيا ، واما ان القرية قد شاخت وتضعضعت الى تلك الدرجة بدون سواعد الرجال ابان الحرب .

فوت منزله ولم يتطلع اليه عمدا لامد طويل ، كى يتعود قبل ذلك ، وان قليلا ، على القرية ويشعر بقربها منه ، ويصدق بانه يراها فى الواقع وليس عبر الذكريات . الا ان شعوره ذاك لم يكن مستعجلا : فخلال السنوات التى قضاها اندرى هنـــا ، وخصوصـــا خلال الشهور التى قضاها على مقربة من اتامانوفكا وحرم على نفسه فيها رؤيتها ، صار يختلف معها فى الكثير . وليس فى الامر حيلة : فالقرية مقدر لها ان تبقى هنا ، اما هو فملزم بان يهيم على وجهه هناك . لن يعيشا معا ، بل ولن يدفن فيها حتى بعد مماته . فلا داعى للاكتئاب جزافا ، ولا داعى لتعذيب النفس وارهاقها بأسى لا جدوى منه . فى بعض الاحيـــان كانت نظرة غوسكوف ترتطم بطرف اتامانوفكـــا المرئى من وراء النهـــر ، فيتساءل بتكاسل ولاابالية ، بل وبشىء من الاستهانة بالنفس : ما الذى هو بحاجة اليه هناك ؟ لقد كان بحاجة الى شىء ما هناك ، ولكنه نسى ما هو .

المنزل الذى ولد وترعرع فيه ويسكنه اعز الناس لديه يقع قبالتـــه بالضبط ، فى الطرف السفلى للشـــارع . واخيرا استعد غوسكوف وركز انتباهه فحول نظرته اليه : نفس النوافذ الثلاث المطلة على الهضبة ، باتجاهه هو ، ونفس الركن الامامى الايسر المائل (ابـــوه يقول ان المنزل اعرج كصاحبه) ، ونفس المدخل الواسع المتين المبنى من جذوع الاشجار ، كجنـــاح اضافى ، وعلى سطحه المستوى تكدس الكثير من الامتعة النافلـــة . كان المنزل راسخا لا يخشى عاديات الزمن ، بيد انهم تماهلوا فى حينه ولم يحولوا دون انغراز الركن فى الارض ، وذلك اثناء الصيف الذى

كانت الحرب ستندلع فيـــه . وبعد موسم حش الاعشاب كانوا ينوون جمـع الرجال «للنخوة» كى يرفعوا الركن بسرعة ، دفعة واحدة ، فيضعوا تكية تحته ويعدلوه . بيد ان الوقت لم يسعفهم . اما الآن فالعجوز لا يستطيع بالطبع حتى التفكير بذلك . فليبق المنزل مائلا الى ان ينهار نهائيا او الى ان يحصل على مالك قوى . طبعا . فابوه وامه لن يعيشا طويلا ، اما ناستيونـــا . . . فمن المستبعد ان تبقى هنا ، وحتى اذا بقيت فلن تبقى لوحدها .

راح غوسكـوف يحدق فى النوافذ حتى اتعب عينيـــه وكأنه يأمل فى رؤية مـــا يجرى فى الداخل . النافذة اليمنى تطل على المطبخ ، ووراء النافذة مباشرة وكـــر الدجاج ، ومقابله الفرن الحجرى الذى تقضى امه الليل والنهار راقدة فى مضجعها على دكته فى الآونة الاخيرة . لم يسخنوا الفرن بعد ، فالدخان لا يتصاعد من المدخنة . ولكنهم سينهضون قريبا ، وستنادى امه ناستيونـــا وستنشغل هذه باشعال الحطب . نافذة ناستيونا هى النافذة اليسرى عند الركن المائل . وهى الآن تقضى آخر لحظات النوم . انها راقدة على ظهرها بساقين ممدودتين ويداها تطوقان بطنها . وستنفعها هذه العادة الآن اذا كانت قد حملت حقا . هكذا يستعد الانسان مسبقا ، وقبل سنين عديدة ، لما سيكون عليه فيما بعد . فقد تعودت ناستيونا ، منذ ما قبل الحرب ، على تطويق بطنها بدون اى سبب ظاهر . واستمرت على ابتهالاتها حتى نالت مبتغاهـــا . وسيعرف اندرى اليـــوم بالضبط هل تبدد امله وضاع ام لا ؟ فان ناستيونا ستعطيه اشارة اليوم . واذا لم يتغير شىء فسوف تسخن الحمام فى المساء . بيد ان ناستيونا لا تعلم بانه الآن هنا على مقربة منها ، ولذا فسوف لن تنتظره فى الحمام ليلا ، اذ قال لها بانه سيصل الى النهر فقط لرؤية الاشارة .

وعندما تصور غوسكوف كيف تضطجع ناستيونا على السرير الآن – غافية ممدة دافئة وقد تجمع قميصها على بطنها وانسدل شعرها السبط وشحب وجههـــا وانتفخ قليلا خلال الليل وراح يرتعش بين الفينة والفينة وكأنه يحاول بجهد ان يتذكر شيئا – عندما تصور ناستيونـــا الآن فى حلمهـــا الصباحى الاخير تجمد وانفجرت في حنجرته فقاعة صغيرة رقيقة ند عنها صوت كالانين .

اخذ غوسكوف نفسا فحول نظرته الى العنابر المنتصبة بصف واحد الى اليسار . ولم ير من موقعه هنـــا ذلك العنبر الاخير من جهة الحوش والذى تحدثت عنه ناستيونـــا فى ذكرياتها عن ليلتهمـــا الاولى . بيد ان ناستيونا لم تقل كل شىء فى ذكرياتها تلك . فهى لم تقل انها تصورت الديك الذى شوش عليها آنذاك نذير شؤم لم تستطع ان تتخلص منه امدا طويلا ، فكانت تكرر : «نذير شؤم ، نذير شؤم» . وكان هو ، اندرى ، يحاول تهدئتهـــا قائلا : «لا تصدقى بصياح الديكة ، فهى تصيح هنا طوال الوقت» .

واخيرا تخلص الصباح من العتمة نهائيا وانار ما حواليه فنهضت القريـــة من الارض بعض الشىء واصبحت اكثر قربـــا منـــه . الدخـــان من المداخـــن وتهـــادت اصوات ضعيفـــة ناعسة غامضة . ونهضت ناستيونـــا ايضا . فالنافذة المقابلـــة للفرن امتلأت بوميض احمر متقطـــع . ولاح ضلع الباب الذى انفتح . وخرج شخص ، بيد ان السياج حال دون رؤيته : فهل هو ناستيونا ام ابوه ؟ حان موعد ذهاب ناستيونا لحلب البقرة ، ولكن اباه ربما كان يقدم العلف للماشية قبل حلبها ، وربمـــا احيل هذا الواجب الى ناستيونا الآن ، فمن يدرى ؟ او لعل ذلك الشخص هو امه التى اثارهـــا هاجس قلق فاستجمعت كل قواها وخرجت الى الشارع ووقفت تنتظر : مـــا الذى دعاها الى الخروج والى اين ستتجه ؟ هل من المعقول ان امه لا تشعر اطلاقا ، ولا قيد انملة ، بانه موجود هنا ، على مقربة منها ؟

ظل واقفا يتطلع ويتذكر ، ولكن كل شىء جرى بيسر وبدون الم ولا اضطراب . فاما ان هذه المشاعر لم تستيقظ ولم تتحرك بعد ، واما انها هلكت فى داخله . واخذ يتعجب لهدوئه واطمئنانه : فهو لاول مرة ، بعد اربعة اعوام ، يقف امام قريته ومسقط رأسه ، يقف مدركا بانه ربما لن يتسنى له الوقوف بعد الآن ، ومع ذلك لا يحس باية ارتعاشة . هناك ارهقه الشوق واضناه الحنين ، وكان مستعدا للتضحيـــة بكل شىء من اجل ان يلقى ولو نظرة واحدة ، للمرة الاخيرة ، على قريته اتامانوفكا . ويمكن القول انه جاء الى هنا من اجل ذلك . وها هو الآن هنا وفؤاده خال خاو . احقا ان كل شىء فيه احترق وصار رمادا ؟

ولكى يتثبت من نفسه ويمتحنها حول نظرته الى منزل فيتيا بيريوزكين صديقه ورفيق طفولته الذى استشهد فى معركة موسكو . هذا المنزل الذى يعرفه جيدا قد نفث دخانا هو الآخر . وفيه الآن نادكا مع اطفالها . كان اندرى قد ساعد فيتيا فى الانتقال الى هنا من الطرف العلوى عندما انفصل فيتيا عن امه . ولم يكن لديه فى الواقع ما يستحق النقل . شدوا الحصان الى العربة ووضعوا فيها صرتين او ثلاثا وسريرا وتختا خشبيا ، هذا كل ما فى الامر . اما المائدة والمصاطب فقد نجروها هنا ، واستعملوا فى ذلك ادوات النجارة من منزل اندرى . ولم تعجب نادكا بهذه المنجورات فدمدمت مستاءة . وعند ذاك حملاها ، رغم معارضتها الشديدة ومحاولاتها للتملص من ايديهما ، الى السطح واحتجزاها هناك وراحا يستمعان ضاحكين الى عويلها الذى عم القرية كلها . واشترطا من اجل مساعدتها فى النزول ان تقدم لهما قنينة عرق وحققا ما اراداه . فقد وعدتهما . ولم تكن لها فى الامر حيلة . فهى تخشى القفز من على السطح ، ولم يكن هناك سلم .

تذكر ذلك بسهولة ايضا ، بسهولة ويسر ، ولذا طفت هذه الذكريات بالذات قبل غيرها . بيد ان ما اثار خشية اندرى هو دقة وقرب ظهور فيتيا امامه الآن : وجهه وصوته ومشيته وحركاته ، وكل شىء فيه ، حتى خيل اليه انه كان يقف الى جانبه وانصرف توا للحظة وسيعود . وفكر غوسكوف : «عجيب . انه غير موجود بين الاحياء وانا اراه واسمعه حيا . فمن الذى جعلنى افعل ذلك ؟ هل هو فيتيا نفسه ام ذاكرتى ؟ وهل يرانى ، انا مثلا ، احد ما بنفس هذا الوضوح ؟ انا موجود ، وينبغى ان يرانى الناس بوضوح اكبر ، حيا بين الاحياء ! كلا ، لا بد وان القضية تكمن فى شىء آخر – توقف مجرى افكاره لحظة – فيتيا انتهى ، بلغ النهاية ، والجميع يعرفون ماذا حدث له . اما انت فلا احد يعرف ما الذى حدث لك . صار الناس من الآن يتحاشون تذكرك ، وليس لديك ماوى يمكن ان تنطلق منه الذكريات ، فقد امحى ظلك وانت حى ، وذبت كثلج الشتاء الماضى . ثم ان ذكرى الانسان التى تصل الى الآخرين لا بد وان تعرف ثمنها وقيمتها ، ولذا فان ذكراك ستظل ابدا تخجل وتختبئ كما تختبئ انت الآن .

فلا تأمل ، لا تأمل فى شىء ، حتى فى هذا المجال لا تنتظر خيرا» .

كان يفكر ويتأمل بهدوء دون ان تمس افكاره شغاف قلبه . وما دام الامر كذلك فلا حيلة له فيه . وعندما سيموت لن يهمه ما سيقوله الناس عنه . فالشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ . وانشغل بال غوسكوف كالسابق بمنزله الذى حاول ان لا يحيد ببصره عنه . راى والده فى الحال . وخيل اليه انه سمع صرير بوابة السياج عندما اغلقها ابوه وراءه وتوقف لحظة ليتطلع بانتباه الى الهضبة التى وقف عليها اندرى وكانه حزر بان ابنه موجود هناك ، ثم سار بمشيته العادية العرجاء فى الشارع وتوجه الى اليمين نافثا بخارا من انفاسه او دخانا من غليونه ، فالمسافة بعيدة ويصعب تحديد ذلك بالضبط . وتجمد اندرى على فكرة باردة ثقيلة الحركة : – «ها هو والدى . . .» . تطلع الى ظهر ابيه ، ذلك الظهر الذى لا يزال هذا يحاول تقويمه دون ان ينصاع لضغط الشيخوخة . واجتاح اندرى الشعور بالحيرة والفراغ واكتنفه من كل الجهات . توقف الاب فى منتصف الطريق وانحنى انحناءة شديدة عند الخاصرة وهو يهز راسه . ولعل السعال قد انتابه انذاك . خيل لاندرى من جديد انه يسمع هذا السعال وان صوته الثقيل المرهق يصل اليه . ثم اعتدلت قامة العجوز وواصل سيره وهو يعرج ، وبعد فترة اختفى وراء ركن مكتبة القرية .

ظل اندرى واقفا يتطلع ببلاهة الى الارض امامه ، ثم اسرع فجاة ، وكانه قد تذكر شيئا ، الى اعلى الهضبة بمشية تشبه الركض ، وعندما اختفت القرية عن الانظار استدار الى اليمين وسار بنفس الخطى المستعجلة المتسارعة عبر الغابة حتى بلغ الطريق . سار فيه فهبط من جديد ، وعند اجمة التنوب الفتية الكثيفة التى يلتف الطريق حولها تركه وغذ السير بخط مستقيم . لم يخفف من سيره ، الا بعد ان خرج من الاجمة وراى المبانى من بعيد ، فقد انبسط امامه اسطبل الخيل الذى يلتصق سياجه العلوى بالغابة مباشرة . ومن هنا بوسع اندرى ان يرى اباه عن كثب .

لم تكن تربطه بابيه علاقات متميزة ، لا طيبة ولا سيئة . ويمكن القول ان كلا منهما عاش بذاته . صحيح ان اباه كان يراقبه

فى الطفولة ، ولكن مجرد مراقبة ، دون ان يتدخل تقريبا فى مشاغله واهتماماته . كان لديه ما ياكله ويلبسه وكل ما هو مطلوب من الوالدين ، وكفى . اما الحياة فليتعود عليها لوحده ، ولهذا الغرض منحه ابوه دماغا وساعدين . لم يكن يعلم ابنه ويربيه ، بل لم يكن يعرف ما هى التربية وما الغرض منها . فالحياة ، كما يعتقد ، تربى وتحول اى انسان وتعده لما يصلح له . واذا دعت الحاجة فانه يلوم ابنه ويؤنبه ، واذا لم يكن هناك داع لذلك يتركه وشانه . واذا سأله اندرى عن شىء يوضحه له بكل اسهاب وصدق فرحا لان ابنه مهتم بذلك الشىء ولانه يتمكن من ايضاحه والتحدث عنه . واذا راى ان ابنه يميل الى ما ينفع ويفيد ، حثه عليه واشاد بما يجيده ، ولكنه لم يكن ابدا يدفعه الى ذلك بالقوة ، فلم يكن متعودا على هذه الطريقة . فليتعلم الصبى بنفسه كل شىء ، وسيكون تعلمه راسخا متينا . ذات مرة فقط ، على ما يتذكر اندرى ، ساعده ابوه فى التفريق بين الصالح والطالح . فقد اساء اندرى التصرف والقى الذنب على ابن الجيران ميشكا . فخلع الاب سيور العنان من المسمار على الجدار ولقنه درسا بصمت . وكانت تلك هى المرة الاولى والاخيرة .

ولذا سارت اموره مع ابيه بسهولة ويسر . فهو لم يلاطفه ولكنه لم يكن يغضب عليه ويصيح به مثل امه التى كثيرا ما تحدث تقلبات مباغتة فى مزاجها : فهى اليوم بحال وغدا بحال آخر . كان بوسع اندرى ان يتوجه الى ابيه فى اية لحظة ، اما بالنسبة لامه فعليه فى البداية ان يتاكد : باى مزاج هى اليوم ؟ امه من اهالى ضواحى براتسك الذين يتكلمون بلهجة تقلب السين والصاد شينا : «شماؤنا فى الشيف شاحية وبردنا فى الشتاء شديد» . وعلى نهر انغارا توجد بضع قرى تتكلم بهذه اللهجة ويسكنها اناس فارعو القامة يتحلون بالفتنة والجمال ويحبون العمل ، وخصوصا النساء منهم – ولا احد يعلم من اين جاءت هذه الفصيلة المختارة من بنى البشر . فى شمال وجنوب هذه المجموعة من القرى يتحدث الناس بلهجة طبيعية ، اما سكان تلك القرى فلا يستطيعون التكلم على نحو آخر وكانما السنتهم معقودة بشكل متميز خاص بهم وحدهم . وتبدو لهجتهم فى اسماع غيرهم بالطبع غريبة غير

مفهومة ، ولا بد من التعود عليها فى البداية . وكان اهل اتامانوفكا يسخرون من امه ويغيظونها حتى بعد ان شاخت . وكانت هى تشعر بالغيظ الشديد ولا تجيد اخفاءه ، ولذا صارت تتحاشى الآخرين وتفضل البقاء لوحدها . زد على ذلك ان لدى الام ما يكفيها مما يثير الشجون والاحزان . فالحرب الاهلية اجتثت اصلها من الجذور : اباها وامها واخوانها الثلاثة جميعا . كان اخوها الاصغر الذى خدم فترة فى قوات كولتشاك المعادية للثورة قد حاول انقاذ نفسه من الانصار فالتجا الى اخته فى اتامانوفكا . ولكنهم عثروا عليه هنا ايضا . ولعل تلك هى اولى الذكريات الغامضة المجزأة التى احتفظ بها اندرى عندما بلغ الخامسة من العمر . فقد ظل يتذكر كيف جاء رجال غرباء ملتحون واخرجوا خاله من السرداب واقتادوه . وفيما بعد ظلت الام طوال الوقت تلوم زوجها وتقرعه لانه لم يدافع عن اخيها . وكان الاب يلوذ بالصمت : فهو نفسه عاد من الحرب العالمية الاولى معوقا وتمكن من التملص من واجب حمل السلاح لاية جهة كانت . وحالما انتسب الى التعاونية الزراعية بدا عمله فى اسطبل الخيل منذ اليوم الاول .

الاب يحب الخيل . ولا يعرف اندرى شخصا آخر اكثر منه عطفا على هذه الماشية واحتراما لها . ولعل عدم ثقته برعاية الآخرين لها هو الذى حمله على العمل فى الاسطبل عندما اقتاد من حوشه الى حوش التعاونية ثلاثة رؤوس من الخيل اذا حسبنا المهر من ضمنها . وفيما يتعلق بالخيول لا يتسامح الاب مع اى كان ، فتراه يتحمس لها رغم هدوئه ، بل ورغم خموله عادة . ذات مرة ، فى بداية اشاعة التعاونيات الزراعية ، ضرب الاب بالسوط رئيس التعاونية الحالى نسطور عندما اقتاد هذا من مكان ما حصانا مرهقا يتصبب العرق والزبد منه وشفته مدماة من اثر الافراط فى الركوب . ضربه على مرأى من الفلاحين ضربا مبرحا ولم يتجرأ احد على ايقافه . كان ذاك الحصان ، واسمه «الرعد» ، قبل تاسيس التعاونية عائدا لشقيق نسطور الاكبر اوليان الذى قتل فيما بعد فى الحرب الفنلندية . وربما كان نسطور يتمادى فى ارهاق الحصان لانه يعتبره حصانه ، ولكن والد اندرى لم يعر ذلك اى اهتمام . وكان يحمل غيظا على الذين يتقززون من اكل لحوم الخيل

ويبرهن لهم ان الخيل انظف الحيوانات على وجه البسيطة ، ولكنه هو نفسه ، ما كان يستطيع اكل لحومها . وذلك بسبب حبه للخيل وعطفه عليها حتى وان كانت ذبيحة . فقد قال : «لن آكل لحوم الخيل والبشر ولو مت جوعا» . فى معركة ستالينغراد انقذت لحوم الخيل اندرى من الجوع ، فتذكر كلمات ابيه هذه وفهم ان اباه لم يصادف حالة مثل حالته والا لما قال ذلك . ذات مرة اضطروا الى تقطيع اوصال حصان ميت وطبخ لحمه . وقد فرحوا لذلك ، بل وعرضوا انفسهم للرصاص كى ينتشلوا جيفته .

اختبأ اندرى فى اجمة التنوب وراح ينتظر خروج ابيه من جناح عدة الخيل . فى وسط باحة الاسطبل معلفان طويلان نجرا من جذعين كاملين وانتصبا على قوائم فى مكانهما القديم ، والى جانبهما عربة نقل الماء وعليها برميل عتيق مصوب كالمدفع نحو نهر انغارا . وعلى امتداد السياج الايسر اصطفت مختلف العربات الصيفية ذات العرانش المرفوعة والمشدودة وقد كومت عليها احطاب البتولا وحاجيات خشبية اخرى . والى يمين سقائف الخيل انبسطت حظيرة مكشوفة تتموج فيها الآن صهوات الخيول . لم يتغير هنا شىء خلال هذه السنوات ، سوى آثار الشيخوخة التى بدت واضحة . الباحة رجراجة ذات لون اصفر داكن من نثار القش والعيدان والروث وتفوح منها منذ الصباح الباكر رائحة كثيفة مركزة للعفونة والنتن تغطى على نسمات الهواء القارس : تنشق اندرى هذه الرائحة وكاد يختنق بها لعدم تعوده عليها من زمان ، ولكنه انتشى وشعر بالارتياح لها واجتاحته رغبة مرحة للتشبع بها .

راح يجوب الباحة وحيدا مهر حولى ادهم جميل ببقعتين شقراوين متساويتين على جنبيه . وهو مهر قوى نظيف بقوائم خفيفة متينة وصهوة فاحمة لماعة وعفرة وعذرة حليقتين . اعجب اندرى بالمهر وفكر بانهم ربما سيتركونه لاجل الانسال ولن يتلفوه فى اعمال اخرى ، فهو مهر جميل حقا ، بل ومحب للاستطلاع . فقد احس بوجود اندرى واقترب من السياج المقابل له ومد رأسه عبر اعواده وسلط عليه نظرة متفحصة طويلة . خوفه اندرى بتلويحة من يده فابتعد والتفت الى السقيفة ليتأكد من وجودها ثم حول

نظرته من جديد الى الشخص الغريب المريب . وفيما بعد لم ينس هذا الشخص ، فراح ينبش نثار القش لحظة ويتطلع اليه لحظة اخرى ، وهكذا دواليك .

كان اندرى فى حالة من التيه والضياع والحيرة الى حد الانفصام فى الذاكرة . فهو تارة لا يفهم السبب فى اختبائه فى الغابة فى حين لا يعوزه الا ان يخطو بضع خطوات ويقفز عبر هذا السياج ويخرج الى العالم ، فلماذا لا يخرج اذن ؟ ماذا ينتظر ؟ وتارة اخرى يتذكر بانه لا يجوز له الخروج باى حال من الاحوال ، ولكنه لم يفهم هذه المرة من اين جاء هذا المكان المعروف لديه فى حياته السابقة الكالحة ، اذا كان هو ، اندرى ، يعتبر من زمان فى عداد نزلاء العالم الآخر ؟ من اين ؟ هل هو خيال وسراب ؟ ولماذا ؟ ولصالح من يجرى ذلك ؟ وما الذى يربطه به ؟ وكيف وصل الى هنا ؟

لم يلاحظ اندرى متى خرج ابوه من جناح العدة ، فقد رآه فجأة يقود فرسا من السقيفة . الفرس حامل فى ايامها الاخيرة . جنباها منتفخان وبطنها مقوس متدل ، وخطاها ثقيلة حذرة . تركز انتباه اندرى بالدرجة الاولى على الفرس ، فقد اثارت دهشته اكثر من اى شىء آخر . ولعله هو نفسه عاجز عن ايضاح السبب ، فاما لانه لم ير من زمان افراسا حوامل ، وقد نسى مظهرها ، بل وحتى احتمال وجودها فى العالم ، واما لانه فرح لتمكنه من عدم التطلع الى ابيه فى الحال وعدم اضطراره الى التهامه بنظراته دفعة واحدة ، حيث تهيأت له امكانية التعود عليه تدريجيا والاستعداد لذلك بشكل افضل . اخرج الاب الفرس من السقيفة وتوقف ودار حولها متفحصا ولعله يفكر فيما اذا كان من الضرورى لها ان تتمشى ام لا . ثم امسك بمقودها وواصلا سيرهما . سارا على امتداد السياج السفلى حتى بلغا ركنه واستدارا نحو الهضبة ، باتجاه المكان الذى يقف فيه اندرى . . . اضطرب وتحير . فهو لا يدرى هل يتعين عليه ان يبقى فى مكانه ام ينسحب الى اعماق الاجمة ، واخيرا ظل فى مكانه على امل ان تستره اغصان التنوب جيدا ، ولكنه جلس القرفصاء تحوطا .

عندما ودعه ابوه الى الجبهة ارتعش ولم يضبط اعصابه وساله

في آخر لحظة : «هل سيقدر لنا ان نلتقي ؟» . كان يفهم امرين لا ثالث لهما : فاما ان يلتقيا واما ان لا يلتقيا . ولكنه مـــا كان يتصور اطلاقا ان احدهمـــا سيتمكن من رؤية الآخر ، في حين ان هذا لا يرى ذاك . فهذا التصور معقد جدا بالنسبة له . وهذا بالذات ما يجرى الآن . كان الاب يقترب ، وهو يرتدى صديريا مشدودا بحزام وقبعة قطنية منزلية الصنع ذات اذنين معقوفتين الى اعلى وجزمة مشدودة عند الركبتين . انه يسير ببطء وبخطى متعبة . والارهاق باد في يديه المتدليتين العاجزتين وفي خطواته المتثاقلة ، فهو يدفع قدما ويجر القدم الاخرى بصعوبة حتى تبلغ القدم الاولى . ولاح الارهاق كذلك في بدنه الذى بدا اكثر ثقلا وهو يعرج هابطا صاعدا . انه الآن شديد الشبه بغنيمة جريحة يلاحقها الصياد ولا تتحرك الا بقوة الاستمرارية . ركز عليه اندرى انظاره ، والاب يقترب ، وكلما ازداد قربا صار اندرى ينهض ويعدل قامته ناسيا ضرورة الالتزام بالحذر ، وهو يتجمد ويتحجر من الداخل ، وتزحف غشاوة على عينيه وذهنه . وعلى مقربة من عارضة السياج انتاب السعال اباه فتوقف . وراحت الفرس تتطلع اليه من الخلف بعينين ذكيتين مفعمتين بالمشاطرة . استمر في سعاله طويلا بصوت عميق ابح وقد امسك صدره بيديه واشاح بوجهه جانبا ، ثم خف السعال فرفع راسه وتطلع الى الامام مباشرة ، الى اندرى . المسافة بينهما لا تكاد تبلغ عشرين خطوة . تحجر اندرى نهائيا . ولو استمر ابوه في نظرته تلك لما تحمل اكثر ولخرج اليه ، الا ان الاب غض بصره وسحب المقود . كانت النظرة التي سلطها على اندرى قد اعمته فلم تنطبع في ذاكرته صورة ابيه ، ولم يلاحظ كيف تغير وجهه . لقد رأى فقط ان هذا الوجه بشاربيه الاشيبين المتهدلين هو وجهه ، ولم ير اى شيء آخر . وفيما بعد ، عندما تطلع الى ظهر ابيه المبتعد ، خيل اليه انه قد استيقظ لديه انتباه خاص مستعد للتشبث باصغر نامة . بيد ان هذا الانتباه استيقظ متأخرا . فقد اقتاد الاب الفرس الى السقيفة من البوابة الجانبية واختفى . وبعد خمس دقائق رآه اندرى مرة اخرى بصورة خاطفة وهو يحمل حزمة كبيرة من القش بالمذراة . ثـــم نادى احدهم الاب ، فادرك اندرى بان عليـــه ان ينصرف .

خرج الى الطريق وسار فيه صاعدا على مهل دون ان يحاول الاختباء . ولكن الى اين يسير ؟ لم يكن يعرف الى اين ؟ كان همه ان يتحرك ليبتعد عن الناس وعما تعين عليه ان يعانيه الآن . ولكنه لم ياسف لانه اسرع الى الاسطبل . وما كان بوسعه ان يتصور بان ذاك الذى ركض من اجله سيتوجه نحوه ايضا . من يدرى ؟ الم يكن السبب في ذهابه الى هناك ، بل وفي عبوره نهر انغارا اليوم هو امله بانه قد يلتقي اباه كما حدث فعلا ؟ لقد جازف بالطبع ، ذلك شيء واضح ، ولكن فؤاده الذى كاد يلهبه ويمزقه قد تقوى الآن وغدا اكثر متانة . ففي ذلك منفعة له .

وما قيمة تلك المنفعة ؟ لقد راى اباه ، اباه الحبيب . وسوف يحسب ذلك لصالحه . وستسهل الحياة عليه : فقد ادى واحدا من الواجبات . كان ملزما بان يرى ابـــاه . فلا بد من وجود وسيلة تخبر الاب قبل الوفاة بان ابنـــه وقف امامه في صباح هذا اليوم طالبا العفو والغفـــران . لا بد من وجود وسيلة من هذا النوع . وسوف يعفو عنه ابوه ويسامحه . كيف لم يلاحظه ؟ لقد تطلع اليه مباشرة . ولعله رآه ولم يرغب بالاعتراف به فتظاهر بانه ينظر في الفراغ . كلا ، لـــم يلاحظه . والا لسأله . «اجل ، لسألك . ولكنك انت ماذا عساك ان تقول ؟ وماذا عساك ان تفعل بعد ذلك والى اين تذهب ؟ من الافضل ان لا تلقى بحملك على احد غيرك ، فاحمله لوحدك . ناستيونا تساعدك ، ومساعدتهـــا تجعل الثقل اثقل . يبدو ان من الضرورى تخليص ناستيونا ايضا من هذا العبء بالتدريج . لوحدك ، احمله لوحدك . بدون ناستيونا ؟ انك تكذب . لن تستطيع العيش بدون ناستيونا . ناستيونـــا تمنحك انفاس الحياة ، وربما ستمنحك اياها في المستقبل البعيد ، بعد مماتك» .

لم يلاحظ كيف اشرقت الشمس . فعلى المرتفع الذى تباعدت اشجاره الى الجانبين وافسحت المجال للدرب داهمت اشعة الشمس عيني غوسكوف وحملته على تضييق جفونه ، فتحرك كل شيء حواليه بغتة ، تحرك بحذر وبطء ، ولكن بتاهب كبير . النهـــار واعد معطاء ، والسماء صاحية مكشوفة . ارتخى الهواء في اشعة الشمس ،

ولاحت امارات الذوبان على جليد الطريق . كانت الثلوج لا تزال تغطى ارض الغابة ، ولكنها هبطت واخذت تتصبب ماءا ، وظهرت بينها اعشاب العام الماضى وكانما نمت خلال هذه الايام ، وبرزت بقع من الارض ذاب ثلجها نهائيا . انتصبت الاشجار وعدلت من وضعية اغصانها وتدفأت وانتعشت مرتشفة من نسغها ، رغم انها لم تستيقظ نهائيا بعد . كان طعم الهواء مرا بعض الشيء ، فخلال الليل لم يتسع له الوقت كى يرفع الى اعالى الجو بخار ذوبان ثلوج يوم امس . وانبسطت اشعة الشمس حانيـة على الارض دون ان تلمسها ، واخذت تهبط عليها اوطأ فاوطأ .

كان ينبغى لغوسكوف ان يغذ السير كى يغادر القرية باسرع ما يمكن ، ولكنه لم يكن راغبا فى الاستعجال ، فظل يسير بفتور وبخطى واهية . ولم يمر لقاؤه مع ابيه دون اثر : فقد استولت اللاابالية على اندرى . فالى اين يسير ولماذا وما الذى يبحث عنه هنا ؟ الم يكن من الافضل له ان يبقى فى منطقته دون ان يعذب نفسه . فقد اخذ يستعيد هدوءه هناك ويعتاد على حالته . اما مجيئه الى هنا فيعنى منذ البداية انه نكأ جراحه . ولكن ، كلا ، فهذا شيء ضرورى له ، ضرورى ، وسيشعر بالارتياح له فيما بعد . ليس بوسع الكائن ان يدرك فعلا بانـــه وحش كاسر الا بعد ان يرى الحيوانات الاليفة ، وليس بالامكان مواصلة الحياة الجديدة دون ازالة حبل سرة الحياة القديمة ، فى حين ان حبل السرة هذا يتدلى ويعيقه مهما حاول اخفاءه . كان يريد من مجيئه الى هنا ان يقنعه عن كثب وفى اليقظة بانـــه لن يتواجد بعد الآن ابدا فى منزله الحبيب ولن يتحدث مع ابيه وامه ، ولن يحرث هذه الحقول . لقد جاء معوّلا على القول المأثور : لن يفـل الحديد الا الحديد . وهو يدرك الآن ادراكا قاطعـــا بان الطريق الى هنـــا مسدود امامه . وسيتجاوز اخيرا تلك المعاناة الممضة التى اجّلها طويلا ، والتى لا بد له من تحملها بشكل او بآخر .

خيل اليه ان لقاءه مع ابيه كامن فى دخيلته من زمان فى انتظار الفرصة المؤاتية كى ينتفض ويأخذ بخناقه بقوة اشد . وهو يشعر الآن بانه كرس لهذا اللقاء جزءا قليلا من نفسه . ويتراءى لـه هذا اللقاء الآن كحلم انزلق بيسر على صفحة ذاكرته ولم يستقر

عليها ، بل ظل كنتوء بارز يعيقه الآن عن السير وعن التفكير . كان يعود اليه من حين لآخر ، فتـــارة يتجمد مرة اخرى من اثر دهشته لرؤية ابيه على هذه المسافـــة القريبة ، وتارة يرتعش لخوف متأخر من ان اباه يمكن ان يكون قد رآه ، ولكنه يعود الى ذلك اللقاء بحذر وبصورة خاطفة كيلا يهزه ولا يعانى منه بالم اشد . فهذه المعاناة ليست فى صالحه اليوم ، اذ انه فى ارض غريبة . غريبة ؟ وافق غوسكوف ساخرا على فكرته هذه : اجل ، غريبة . وعليه ان يكون حذرا للغاية . فلا يجوز له هنا ان ينساق وراء الخور النفسانى الذى قد يكلفه غاليا .

تذكر ، لسبب غير معروف ، تانيا الخرساء التى اختبأ عندها فى اركوتسك ، تذكرها دون مناسبة ، فطاف امام بصره وجهها بشفتيه الهامستين المتسائلتين ، وشعر غوسكوف فجأة بانه راغب فى ان يكون عندها من جديد . رغب فى ان يأخذها معه ويتوجه الى ابعد نقطة فى الارض حيث لا يوجد بشر ، فينسى هناك الكلام ، ويثأر لنفسه فيتشفى بالتهكم على تانيا والاستهزاء بها ثم يأسف لها ويعطف عليها ، ثم يستهزئ بها من جديد ، فهى تتحمل كل شيء وستسعد بالقليل القليل . وجوه البكم مسلية حقا : فهى تبتسم ، ولكن عيونها باردة خالية من المشاطرة ، وشفاهها ترتعش ولكن كل ما عداها جامد متوتر . وهو ، بالطبع ، لا يستحق حتى تانيا ، ولكنه مستعد لتقبل هذه الخطيئة . فان تانيا مهانة اصلا ، ولذا يمكن التمادى فى اهانتها . وسأل اندرى من نفسه : «لو تسنى لك ذلك ، فما الداعى لاهانتها ؟» . ربما هو الذنب يتطلب المزيد من الذنوب ، فالنفس الساقطة تبحث عن هوة سحيقة اعمق لتغوص فيها . وهو ، فى اغلب الظن ، لن يستطيع ان يفعل غير ذلك . انه بحاجة دوما الى تأكيدات وبراهين على انه تحول الى ما هو عليه الآن بالذات . فهو على هذا الاساس يشعر بثقة اكبر .

وصل غوسكـــوف الى طرف الحقول واستدار الى اليمين نحو الهضاب المنبسطة البعيدة ، حيث يتعين عليه ان يقضى النهار كله . فليس للناس ما يفعلونه هناك فى هذه الفترة . لم يكونوا ينقلون روث التسميد الى هناك فى السنوات الطيبات ، فكيف بهم الآن ، وخصوصا فى هذه الاوحال ؟ حتى اولئك الذين لا تعرف

يمشي ويسير وينشر انفاسه في كل مكان تصل اليه . فلربما لن يتسنى له القيام بذلك بعد الآن .

انهالت عليه الذكريات المنبعثة من كل مكان – من الحقول وتخومها ومن شجرة الشربين الملتوية العتيقة المنتصبة وسط حقل محروث ومن النبـــع المنبجس من تحت شجرة التنوب في اجمة صغيرة ، وحتى من السماء التي تطل من وراء الغابات برسم فريد لا مثيل له في اي مكان آخر . بيد ان غوسكوف يخشى الذكريات ، ولذا رفضها وحاول التخلص منها ، فراحت تتقطع حالما تبدأ ، ثم تتناثر هاوية . ولو انصاع لها لما استطاع منها فكاكا . ما نفع الذكريات الآن ؟ ولم هذا العذاب اذا كان من المستحيل تغيير اي شيء ؟ ومما يؤسف له ان الذاكرة لا تفهم هذه الحقيقة . فان ذاكرة واحدة صارت من نصيب شخصين غريبين على بعضهمـــا البعض غربة تامة ، وليس بالامكان اطلاقا اقتسام تلك الذاكرة . ولو تمكن من ان يبيد وينسى كليا ما عاش به في السابق لهان الامر عليه كثيرا . ولكن هيهات ، فذلك الشخص ، السابق ، لا يزال موجودا وسيبقى على قيد الحياة مقهورا منسحقا لامد طويل ، فلا مجال للتخلص منه . وسيظل هو ، غوسكوف ، الى آخر يوم من ايامه يتلوع مشردا دون ان يذوق طعم الهدوء ولا طعم الحرية .

ولكنه اكتشف فجاة انه لا يزال ، عبر موافقته على ذلك واقناع نفسه به ، بل ورغم موافقته واقتناعه ، يأمل في شيء ما . فان املا ضئيلا صامتا كان يعيش في دخيلته بخفاء تام ، حتى انه لم يتمكن دوما ان يتحسسه ، ولكنه امل يعيش ويتنفس ، وكان هو في احيان نادرة يسمع ارتعاشاته الحذرة المرتابة . بيد انه لا يوجد ما يأمل فيه ، لا يوجد اطلاقا ما يمكن ان يأمل فيه ، فلن تحدث اية معجزة . ويبدو ان غوسكوف يواجه عن كثب لاول مرة حقيقته العارية بدون أسف ولا تحفظ . فقد بدا وكانه يتحسسها ماديا ، وكانما اخترقته ومرت عبر كيانه من البداية حتى النهاية ، فارتجف لبرودتها . وهو لا يعرف ما الذي دعا تلك الحقيقة الى المثول امامه الآن بالذات ، وليس قبل او بعد هذه اللحظة التي توجه فيها الى الديار الحبيبة الملتصقة بفؤاده . اليست تلك الديار هي التي دعتها ؟ تلفت غوسكوف الى ما حواليه ولام نفسه وابتسم بسخرية وقسوة وحقد :

اقدامهم الهدوء لن يصلوا الى هناك . فما هم بحاجة اليه من الغابات يمكن ان يحصلوا عليه ليس بعيدا عن القرية . وحتى اذا وصلوا لا ضير في ذلك ، فليخافوا هم منه ، اما هو فلا ينوى الخوف منهم اليوم . لن يسمح لهم بالاقتراب منه الى حد التعرف عليه ، ولن يهمه ان ينظروا اليه من بعيد ما شاءوا وان يتحيروا في معرفة هويته . فله الحق ان يسير هنا سيدا مرفوع الرأس ، لقد عمل في هذه الحقول فيمـــا سبق ليس اقل من الاخرين ، وهو يعرف عن ظهر قلب كمية التربة في كل منها وما زرع وحصد فيها قبل الحرب . وله هو ايضا فضل سابق في كون هذه الحقول لا تزال تعطى غلالا دون ان تكتسحها الاعشاب . انه ليس غريبا هنـا ، ابدا . الهواء في هذه الارجاء يعلم الآن بانه موجود وانه يسير جنب هذه الحقول التي تمددت وتجمدت عندما تعرفت عليه . وهو الآن لا يثق الا بذاكرة الطبيعة فالناس لا يجيدون تذكر بعضهم البعض ، التيار يحملهم بسرعة كبيرة ، والارض التي عاشوا فيها هي التي يجب ان تتذكرهم . انها عاجزة عن معرفة ما حدث لهم . وهو بالنسبة لها انسان طاهر نزيه .

ارتفعت الشمس وازداد الدفء ولمعت القطرات على الطريق وسالت ، وتجمعت اولى المجارى القصيرة . غدا الثلج على الجانبين اكثر زرقة وانتفاخا وثقلا ، وغدا الهواء ثقيلا ايضا لتشبعه بالرطوبة تدريجيا . غوسكوف يرتدى جزمة لبادية (فليس لديه غيرها ، وعدته ناستيونا في اللقـــاء الاخير بالبحث عن جزمته الجلديـة العتيقة) ، وهذه الجزمة اللبادية تقلقه الآن اكثر من اى شيء آخر . خيل اليه انها تفضحه ولا تمكنه من التظاهر بانه واحد من ابناء القرية . فهي جزمة خرقاء لا تصلح لهذا الموسم حتى لكانها تفصل بينه وبين الارض التي يمشي عليهـــا . لقد غدا السير بالجزمة اللبادية عسيرا الآن . وهو لا يدرى كيف سيسير بها بعد ثلاث او اربع ساعات عندما تشتد حرارة النهار . لعل من اللازم الانتظار في مكان مـــا . هناك كوخ شتوى مهجور قرب الجدول على الهضبـــة الاخيرة، ويمكنه الانتظار فيه . كلا ، انه اليوم لا يريد الاختباء في كوخ . مل من الاختباء . ثم انه لم يصل الى هنا من اجل ذلك . ربما من الافضل خلع الجزمة والسير حافي القدمين ، بشرط ان

انتظر ، سياتيك بعد لحظة طير يعترف لك بلغة البشر فيقول : نعم هى التى دعتها . حاول غوسكوف تجاوز ضعفه ، بيد ان شيئا مجهولا بغيضا كان يستعد ويتصاعد فى فؤاده ، فصارت خطاه تتعثر رغم محاولته الاستعجال وتوسيع تلك الخطى ، وتلاحقت انفاسه واضطربت . وتلقف فجاة فكرة الطير : — «الطير . . . اننى انا نفسى كنت اعيش كواحد من طيور السماء ، فماذا كان يعوزنى ؟ ماذا ؟» .

بعد ذلك افلت جميع الاعنة وانطلق محطما جميع الاقفال والمحاذير والموانع . ولم يعد قادرا على التوقف وتهدئة النفس . وانساق وراء التبريرات :

«لو لا الحرب ، لولا الحرب اللعينة لعشت كما يعيش البشر ولعملت كما يعملون . فعمرى ثلاثون عاما . وهى اقل من نصف الحياة . لم اعش نصف حياتى وها هى النهاية قد حانت . فلماذا ؟ لماذا انا بالذات وليس غيرى ؟ ما اكثر البشر على وجه البسيطة . . . فما هو ذنبى بحق المصير حتى يتصرف معى على هذا النحو ؟ ما هو ذنبى ؟ — ندت عن صدره انة وراح يبحث عن مكان يجلس فيه ، فقد خانته قدماه . وجد امامه على جانب الطريق جذعا قذرا مبللا فهوى عليه . — لولا الحرب لعشت لا اسوا من الآخرين — تشبث بهذه الفكرة التى عنت له — ولعملت ، فقد كنت شغيلا جيدا ، والجميع يعرفون ذلك . ولتوجهت الآن لاداء عمل ما فى هذه الانحاء . . . لسرت هكذا ، وجلست هنا ودخنت سيجارة ولاديت الواجب فيما بعد وعدت الى القرية . . . — خيل اليه ان هذه الامكانية قريبة المنال وقابلة للتحقيق حتى ذهل وكاد يفقد صوابه فحاول التاكد مما اذا كانت هى كذلك فى حقيقة الامر ، ومما اذا كان قد حان الوقت لاداء العمل الذى جاء الى هنا من اجله والعودة الى القرية . كلا ، لم ينقلب شيء على وجه البسيطة ، فكل شيء ظل على حاله . لم يكن ذلك يقظة بعد حلم لذيذ ، بل هو واحد من التاكيدات الكثيرة جدا الجارية كل يوم لاثبات حالته وما آل اليه ، بيد ان ذلك التاكيد بدا له الآن مريرا ومرعبا على الخصوص . فان كل شبكة دفاعه التى نظمها بصعوبة انهارت فى لمح البصر ، فغدا عاجزا اعزل . واجتاحه خور ليّن بغيض ، فلم يتمكن حتى من ان يصرخ على نفسه ليوقفها

عند حدها ، ولكنه كان مرتاحا لضعفه هذا ، ولعجزه عن مكافحته . — كل ذلك بفعل الحرب ، انها هى السبب — عاد من جديد الى المبررات وراح يصب اللعنات على الحرب — لم تكتف بالعدد الهائل من القتلى والمشوهين ، فراحت تبحث عن امثالى . من اين جاءت تلك اللعنة الفظيعة المرعبة وانهالت على الجميع دفعة واحدة ؟ وانا ايضا ، انا ايضا وسط هذا اللهيب ، لا لشهر او شهرين ، بل لسنين كاملة . فمن اين لى القوى الكافية لتحمل اكثر مما تحملت ؟ تحملت قدر ما استطعت ، فانا لم اهرب فورا . لقد ساهمت وقدمت نفعا . فلماذا يساوونني بالآخرين ، باولئك الملاعين الذين كانت بدايتهم ضررا ونهايتهم ضررا ايضا ؟ ولماذا يعد لنا عقاب واحد ؟ الامر اسهل عليهم ، فهم لا يتعذبون نفسيا ، اما انا فلا ادرى متى ستتحجر مشاعرى وتتبلد احاسيسى . . . وحالما جئت الى هنا ، بدات اعصابى تنهار ، واستولى على ضعف النفس . . . فانا لست من عصابة فلاسوف ، اولئك الخونة الذين تحركوا ضد اهلهم وذويهم . لقد تراجعت امام الموت فقط . فهل من المعقول ان لا يؤخذ ذلك بالحسبان ؟ تراجعت امام الموت — كرر القول فرحا للتعبير الموفق الذى عثر عليه ، ثم قال متباهيا : حرب مهولة ! ومع ذلك تمكنت من الفرار . يا للشيطان ! ليس بامكان كل شخص ان يفعل ذلك» .

رفع راسه وتطلع الى مكان بعيد اعلى من الحقول التى اجتازها ، وضحك بتحد وبصوت عال .

ظل جالسا فترة اخرى ، وهو يهمس بنفس الافكار وبنفس الطريقة منساقا وراء نقاط الضعف ومتراجعا امام الالم الفظيع الذى كاد يجعله يئن كالكلاب ، ثم تجاوز هذا الالم وسيطر عليه فاخذ يسخر من نفسه متظاهرا بمرح يائس خانق غير سليم ، الى ان عاد مندفعا من جديد الى اعماقه ودخيلته فغرق فى لجتها .

وتصور بعد ذلك ان سبب هذا العذاب هو ركوده وعدم انشغاله بشيء ، فنهض ودحرج الجذع الذى كان جالسا عليه الى وسط الطريق ، فيلعمل احد ما على ازاحته ! تطلع غوسكوف حواليه وواصل سيره ، واكتنفت فؤاده برودة كئيبة ، بيد ان الخطى السريعة جعلت الافكار تتخلف بالفعل ولا تاخذ بخناقه .

كان الصباح فى اوجه ، فانسابت المياه جداول مترددة دون خرير ، وهب النسيم على الحقول مرتعشا متململا من جهة السفوح ، وبدت الغابة من خلاله بيضاء فى اشعة الشمس وكانها خط ضبابى متصاعد الى اعلى . وتهادت من القرية اصوات فرحة منتصرة للديكة التى اطلق سراحها من اوكارها ، ونعق غراب محوم بصوت شائك وخز الاذن وخزا ، وتشابكت النسمات المعانقة للارض تائهة دون وجهة محددة . اتقد وجه غوسكوف ليس من النسيم ، بل من الشمس ، اما النسيم فكان يجتذب الهواء وينفثه عليه من جديد تارة من هذه الجهة وتارة من تلك . وعلى بيدر خال قرب احد الاكواخ الشتوية انهمكت يمامتان وعصافير وسخة منفوشة الريش فى نبش قشور القمح وسط زقزقة لجوجة . وعندما اقترب غوسكوف منها فرت من معلفها ومرقت قربه بفحيح .

توقف غوسكوف عند البيدر وراح يتطلع الى العصافير . فهى لم تكن موجودة فى اندرييفسكويه بعيدا عن الناس . وفكر متسائلا : كم هو عمر العصفور ؟ الا توجد بين هذا السرب الجائع الصاخب عصافير كانت تحلق هنا عندما عمل فى هذه الانحاء ؟ بيد انه لا يعرف عمر العصافير ، فهو فى السابق لم يكن يهتى بمثل هذه التفاهات ، ومع ذلك اثار هذا الامر كآبته من جديد . خوّف العصافير واقترب من الكوخ وخلع بصعوبة بابه الذى التصق بالجدار بسبب برد الشتاء . الكوخ بارد فارغ . بحث فيه غوسكوف عما يؤكل فلم يجد شيئا ، ثم خرج . كان شىء ما يؤذيه ، ولم يتمكن من معرفة ما اذا هو بحاجة الى الطعام او النوم . لقد جلب معه شيئا من طعام ، ولكن عليه ان يحتفظ به لوقت ابعد . فهو ، لسبب ما ، يؤمل فى الحصول على طعام هنا ، مع انه لا مجال اطلاقا للحصول عليه . فهو لن يذهب بالطبع الى القرية متسولا ، وفى هذه الفترة لا ينمو شىء ولا يحتفظون بشىء خارج القرية .

ظل يراوح فى مكانه طويلا دون ان يعلم ماذا يتعين عليه ان يفعل ، ثم حاول الهاء نفسه متصورا الشىء الذى سينشغل به ، فاستدار الى ما وراء الكوخ ، حيث الشمس تضيىء من جهة الجبل ، وجلس على جذع مطروح هناك واتكا الى الجدار . فيما مضى ، بعد عام المجاعة ، عام ١٩٣٣ ، كان قد نهش تربة هذه الهضبة . وامامه

الآن ينبسط الحقل الذى حرثه بهكتارين ونصف . تطلع اليه غوسكوف بخوف ، متحاشيا الذكريات التى لا موجب لها . كان الطرف السفلى لهذا الحقل قد اكفهر واسود ، وبرزت منه بقايا واصول السنابل . اما الحقل المقابل فقد بدا له اكثر انشراحا ، وهدأ من روعه . فغفا غوسكوف متدفئا ومسترخيا بفعل الشمس . كانت اجفانه الثقيلة تنفتح من حين لآخر . فعيناه اللتان تعودتا على الحراسة وحدهما ، دون اقلاق باقى الجسم ، ترقبان ما اذا ظهرت بقعة غريبة حواليه . وكان الهدوء مخيما هناك .

غفا غوسكوف فراى احلاما مشوشة قصيرة متقطعة وغير مترابطة فى وحدة متكاملة . راى الكابتن ليبيديف آمر السرية الاستطلاعية يبعث بفصيل لممارسة الاستطلاعات ويحذره ، هو غوسكوف ، لسبب ما ، من انه اذا فر الى الالمان فسوف يبادلونه بجنرال ولا يعدمونه رميا بالرصاص . كلا ، ذلك شىء كثير عليه . سوف يعذبونه حتى الموت ثلاثة ايام بلياليها ، سيعاقبونه شر عقوبة . وراى فى منطقة محايدة هناك ، فى اراضى سمولينسك ، طاحونة اتامانوفكا ، وهو يعمل مديرا لها ، وتنهال نيران شديدة عليه من كلا الجانبين ، والحرب مستمرة الآن بسببه هو فقط ، وسيكون النصر حليفا لمن يصرعه . ثم راى نفسه فى مستشفى نوفوسيبيرسك ، حيث استدعاه الجراح ، وهو طبيب عسكرى مشورب برتبة عقيد ، الى ردهته ليتجرع قدحا من الكحول ، وطلب منه ان يحل محل مقدم كبير توفى توا . وراى نفسه من جديد فى الجبهة ضمن المفرزة القائمة على خدمة الهوتزر وقد ضيع اداة التصويب فاحالوه الى المحكمة العسكرية . وراى ميدانا ضيقا وطويلا جدا تغمره اضواء المصابيح الكاشفة ، وهو يسير فى هذا الميدان لاهثا من الحر ، والاضواء تشتد حرارة وتتحول الى نار زرقاء .

واستيقظ ، ولكنه ظل جالسا بلا حراك امدا طويلا وهو منسحق ورازح تحت ثقل هذه الاحلام الشريرة السائبة . لم يكن فيها شىء من الحقيقة . فلم يكن احد يظن به سوءا على الاطلاق . الا ان فعلته الاخيرة طغت على حياته كلها ، فحتى الاحلام تغيرت . حتى تلك الاحلام التى تظهر فى داخله صارت ضده . فكيف بما سواها ؟

الطاحونة التى رآها فى المنام جعلته يفكر فى الذهاب اليها .

المسافة بعيدة ، ولكن النهار ، بالنسبة لغوسكوف ، بدا لتوه . ولا احد فى الطاحونة الآن فى اغلب الظن ، فالموسم ليس موسم الطحن . استثار من جديد العصافير التى كرهها فجأة وجعلها تفر بعيدا عن قشور القمح ، وهبط عند طرف الحقل ثم انعطف نحو الجدول عندما انتهى الحقل . لم يكد الذوبان يمس الثلوج فى غابة التنوب الباردة ، فالشمس هنا ، حتى فى الاماكن المكشوفة ، اضعف مما فى الهضاب المنبسطة . وفى الفسحات امتدت ظلال الاشجار متفتحة واضحة المعالم كما لو كانت مطبوعة مضغوطة . خطا غوسكوف بجزمته اللبادية هنا بمزيد من الثقة فتنشط من جديد وشعر بالاضطراب المترسب من السنين السابقة . ففى زمن ما كان يحب التردد على الطاحونة . ومن لا يحب التردد عليها ؟ فان طحن القمح عمل ختامى مرح يبعث الفرح والانشراح . وبعد جمع الغلال يتوارد الناس الى الطاحونة بطابور كامل ويقضون الليل حواليها بارتياح ، ولكنهم لا ينامون : الشيوخ يدخنون ويدمدمون ، والشبان العزاب يمرحون وينشدون التسلية ، والفتيات يتصايحن من وراء الشجيرات ، ويشتعل الموقد وتغلى اباريق الشاى الواحد تلو الآخر ، اما الارحية فتدور طوال الوقت بصخب مدمدم شبعان ، ويصب الدقيق الساخن الناصع فى الاكياس .

اشاعت هذه الذكريات الدفء فى فؤاد غوسكوف فابتسم راضيا ولاحت اشراقة على محياه . ولكن لامد قصير . فعندما اقترب من الطاحونة توترت اعصابه واشراب ببدنه حذرا ، وتوقف مستجمعا ومركزا انتباهه ، وتحركت شفتاه بتذمر خافت . لم يكن هناك ، على ما يبدو ، اثر لانسان . فالباب العلوى مغلق وكذلك الباب السفلى ، والثلج يغطى السلم الذى يصعدونه عادة حاملين القمح . انتظر غوسكوف قليلا ، مقنعا نفسه بعدم الاستعجال ، ثم ترك شجيرات الصفصاف القريبة وخطا نحو الباب . القفل معلق عليه ، كالسابق ، من اجل التمويه لا اكثر . فحالما سحبه غوسكوف انفتح . وحسنا فعل ، والا فان اندرى لن يتراجع ، فلربما خلع رزة الباب او اطار النافذة ، ولن يتراجع .

الطاحونة ، من الداخل ، باردة مغبرة . فقد تركت جزمة غوسكوف آثارا بيضاء على ارضيتها . فى بادىء الامر دخل اندرى قمرة مدير

الطاحونة ووجد على رف هناك قدحا معدنيا كبيرا مطليا بالميناء وراسين من الثوم ونصف علبة من الملح ومنشارا حديديا معلقا على الحائط . وضع ذلك كله فى كيس جنفاص عثر عليه مرميا تحت المصطبة ، وتوجه لتفقد الطاحونة . صعد مرتين الى الطابق العلوى وفتش كل الزوايا والاركان ، لكنه لم يجد شيئا نافعا ، ما عدا كيسا آخر وكتبا ممزقة الاغلفة . اخذها معه ايضا . فقد يحتاج اليها .

خرج من الطاحونة الى الهواء الطلق وعلق القفل على الباب وتطلع حواليه ، فاجتاحته بغتة رغبة جنونية جامحة فى حرق الطاحونة . لم يكن ذلك امرا عسيرا . فها هو لحاء البتولا مرمى على الارض ، والثقاب فى الجيب ، والمبنى قديم جاف ، وستشتعل النار فيه بسرعة . عاد الى رشده وادرك بان حرق الطاحونة غير جائز وانه لن يتجرأ على ذلك فى آخر المطاف ، بيد ان غواية الشيطان شديدة ورغبة اندرى جامحة فى ترك ذكرى ساخنة عنه ، حتى انه لم يعد يعلق املا على ضبط النفس ولا يثق بارادته فغذ السير واستعجل مبتعدا عن الطاحونة وعن الغواية والخطيئة . وعندما بلغ البركة توقف للحظة ، اوقفه لمع الجليد الزجاجى الاخضر الصافى الذى كان الماء يترجرج تحته على نحو يسحر الابصار . وتصور غوسكوف كيف ستتطاير الى هذا الجليد وتوسخه الجذوات المستعرة التى ينبعث منها الدخان بفحيح ، وانتعشت فى مخيلته من جديد رغبة شديدة لرؤية هذا المشهد ، ولكنه انصرف الى الهضاب المنبسطة ، الى الحقول . قضى النهار كله وهو يجوب تلك الهضاب ، تارة يخرج الى الاماكن المكشوفة وتارة يختبىء فى الغابة . وفى بعض الاحيان ينفد صبره وتشتد به الرغبة ، الى حد الحقد ، لكى يرى الناس ولكى يراه الناس ايضا ، يروه فيقلقوا لجهلهم بهويته . وبعد ذلك تجتاحه ، دونما سبب ، نوبات من الرعب . فيقف لامد طويل جامدا دون ان يتجرأ على تحريك ساكن . خرير الجداول ينبعث خفيفا ، والبخار يتصاعد من التربة التى سخنتها الشمس والروائح المخدرة اللزجة تدوخ الراس . وبسببها او بسبب آخر انتابته موجة من الذهول المحموم . فقد ضيع جزءا كبيرا من النهار ، لساعتين او ثلاث بعد الظهر ، دون ان يتذكر ماذا فعل به . وعندما حاول فيما بعد ان يتذكر اين كان وماذا فعل لم يوفق فى ذلك ، ولم يرجع

هذا الذهول الا خرير الماء وصدى صياح الديكة القادم من القرية ليمزق نياط قلبه . تبللت جزمته اللبادية عن آخرها ، واخذت قدماه فيها تبقبقان وتؤلمانه بعض الشيء ، لكنه واصل السير على غير هدى دون ان ينتبه الى الطريق ودون ان يختار الاماكن الاكثر صلابة وجفافا .

فى المساء لم يقدر الوقت بدقة فهبط على القرية فى اواخر الغسق حيث كاد الظلام يعم ، ولكن الاشياء والمبانى لا تزال بارزة المعالم . بحث عن حمامه بالنظرات حتى عثر عليه فلم ير الدخان يتصاعد منه . اقشعر بدنه . فطوال النهار لم يخامره شك بانه سيرى الدخان ، حتى انه راح يحسب واثقا من ان ناستيونا الآن تحمل الماء ، وقد سخنت المدفأة . . . احقا ان ذلك هو الاخفاق بعينه ؟ ولاول مرة فى حياة التشرد ، على ما يبدو ، ابتهل غوسكوف الى الله : «يا الهى لا تتركنى . يا الهى ، اجعل الحمام يتسخن ، فانت على كل شيء قدير ، والوقت ليس متاخرا بعد . حقق ذلك فقط ثم افعل بى ما تشاء ، فانا موافق على كل ما تفعله» . انتابته فجاة قشعريرة عصبية على موجات طويلة متتالية ، ثم تركته بصورة غير ملحوظة بعد ان زعزعت اركانه وكانها توحى له شيئا . ثم اخترق بدنه ضعف ممض . جلس غوسكوف على اول قرمة يصادفها وظل ينتظر حلول الليل .

نبحت الكلاب ثم صمتت . وتهادت اصداء حية منبعثة من البشر ، ومن حين لآخر كان يسمع اصواتا ، ولكن ذلك كله يبلغ مسامعه على موجات باهتة لا يعرف احد مصدرها . وكما كان حاله فى الصباح الباكر ، تجمدت مشاعره من جديد ، ولم يعد يفكر الا فى شيء واحد هو الاهم : ماذا حدث لناستيونا ؟ بيد ان انوار النوافذ استثارت غوسكوف . فقد تصور السماور على المائدة ، والمدفأة المشتعلة وظلال النار على الجدار والوسائد المصفوفة بعناية على السرير ، والحصير تحت الاقدام الحافية . وتنسم عطر الاهل الذى تالم له الفؤاد بفرحة يائسة . تالم الفؤاد وانكمش متفهما . واشاح غوسكوف ببصره عن الانوار واغلق عينيه . وغدا فى الظلام الدامس اشبه بجذع شجرة .

بعد ان هدات القرية نهض بحزم فى اللحظة المقررة مسبقا ،

ورسم شارة الصليب بهزات قصيرة من رأسه دون ان يستخدم يده لهذا الغرض ، وخطا هابطا الى نهر انغارا . سار على الجليد حتى بلغ المكان المقابل للحمام ، فتسلق الضفة العالية وتوقف عند السياج متاملا . لم يكن ذلك بسبب الحذر ، بل بسبب اهمية اللحظة التالية . اجتاز السياج . وعندما اقترب من الباب احس بالدفء ينبعث من الداخل .

دخل الحمام واغلق الباب خلفه وخلع دون استعجال جزمته الثقيلة البليلة التى مل منها طوال النهار . وبعد ذلك فقط تاهب لضحكة انبعثت بحشرجة حاقدة منتصرة . ضبط نفسه بصعوبة كيلا يضج ويصرخ ويغنى ويقلب كل شيء حواليه ليعبر بكل طلاقة وحرية عن فرحته العارمة .

لم يفكر بناستيونا هنا ، بل ولم يتذكرها كما ينبغى . فقد اكتفى بان وجد الحمام ساخنا .

١٤

واخيرا بدات المشاكل . بدات فجاة بالرغم من حذر ناستيونا واستعدادها لها .

ففى نيسان ، حالما ذابت الثلوج ، شرع ميخيتش وناستيونا باعداد الحطب . كانا ينجران الجذوع ليس بعيدا عن القرية ، لكى يتمكنا ، حينما تتوافق اوقات الفراغ لديهما ، من الذهاب الى هناك لساعة او ساعتين فيستخدما المنشار على قدر المستطاع ثم يعودا . وفى اغلب الاحيان يتوجه ميخيتش لوحده عندما تستدعى الحاجة العمل بالفاس . وبعد ذلك تذهب ناستيونا ، فى طلعات مماثلة ، لكى تصف الاحطاب التى يقطعها ميخيتش . الا ان العمل هذه المرة يسير بشكل سيىء . فان ميخيتش ، خلافا لعادته ، يشعر بالتعب سريعا ، ويكاد ياخذ قسطا من الراحة بعد كل حطبة يعدها . ولم يكن بالامكان الاستغناء عن حطب الجذوع فى الماضى ايضا ، اما الآن فالآمال كلها معلقة عليه لاجل الشتاء القادم .

لم ياخذ ميخيتش البندقية معه ، فهو ليس بحاجة اليها هنا على بعد كيلومتر واحد من القرية . بيد ان العمل فى الغابة استثار ،

على ما يبدو ، هواية الصيد لديه . فاعد الخراطيش ونظف بندقيته . وذات مرة ، قبيل الذهاب الى الغابة ، اغلق باب العنبر بعدان صرف وقتا طويلا فيه ، وسال من ناستيونا بغتة :

– الم ترى ، يا بنتى ، بندقية اندرى ؟ بحثت عنها فى كل مكان فلم اجدها .

تخشبت ناستيونا وبيدها المنشار عند البوابة حيث كانت تنتظر حماها ليذهبا الى الغابة . كانت تخشى هذا السؤال دوما وقد استعدت للاجابة عليه ومع ذلك باغتها ميخيتش به . الا ان الوقت غير مناست اطلاقا للبحث فى هذا الموضوع . كرر ميخيتش سؤاله بدون الحاح ظاهر :

– الم تريها فى مكان ما ؟

– رايتها سابقا – اجابت ناستيونا بابتسامة مرتبكة خرقاء ، واقتربت منه كيلا تتكلم بصوت عال : – لقد بعتها ، يا ابتى – فى حالات خاصة كانت تناديه ، مثلما يناديه اندرى : يا ابتى .

– بعتها ؟ متى ؟ لمن ؟

– من زمان . كنت اخاف ان اخبرك ، اخاف ان تزعل . بعتها عندما رافقت المفوض الى كاردا . . . كنت آنذاك زعلانا على بسبب السندات . وبالفعل ، فمن اين لنا مثل هذا المبلغ الكبير ؟ فلت لسانى بسبب غبائى ، فمن اين لنا هذا المبلغ ؟ اما هو فقد اعجبته البندقية والح على ان ابيعها عليه ، فبعتها . . . اقنعنى باصراره .

– ماذا تقولين ؟ اعجبت من ؟ من الذى اقنعك ؟ اننى لا افهم شيئا .

– رجل فى كاردا . انا لا اعرفه ، اتذكر انه كان فى معطف عسكرى . تعرفه كاتيا خليستوفا كنة افاناسى خليستوف ، فقد تحدثت معه وكانه من معارفها . ولم يكن من المناسب ان استفسر منها عنه . لقد اتفقنا وكفى .

– ماذا ؟ هل اخذت البندقية معك ؟

– اخذتها . كنت اخشى العودة لوحدى فى الظلام . . .

– وبعتها ؟

– بعتها .

ظل ميخيتش واقفا على مدخل العنبر ، حيث صعقه النبأ ، فانكمش

وجهه وتجمد بشكل غير جميل بسبب توتره : فمه مفتوح ورأسه مشرئب نحو ناستيونا ، وعيناه ترمشان دون ان تفهما شيئا . وسالها دون ان يصدق ما سمع :

– هل تمزحين معى يا ناستيونا ؟ ام انك تقولين الحقيقة ؟

– الحقيقة . كان يجب ان اقولها فى حينه . . . ولكننى كنت اؤجلها كل مرة بسبب الخوف .

– وماذا تعتقدين : اذا جاء اندرى فهل سيشكرنا على هذه الصفقة ؟ ام ماذا ؟

– عندما ياتى سنشترى غيرها ولا بد . فقد اردت ان احل مشكلة . ولم افعل ذلك من اجل مصلحتى .

– سنشترى . . . – كرر ميخيتش وهز راسه مرارا ، ولعله كان متفقا ليس مع ناستيونا ، بل مع فكرة غير سارة تبادرت الى ذهنه آنذاك . لزم الصمت كى يصل بهذه الفكرة الى القرار النهائى ، وتذكر فسال من ناستيونا وقد ادار وجهه جانبا وقرب اذنه منها كى يسمعها بشكل افضل : – آ . . . وبكم بعتها ؟

حلت اطرف واصعب لحظة فى هذه الحادثة .

– تمهل – قالت ناستيونا ودخلت المنزل فاحضرت من الرف الساعة التى قدمها لها اندرى فى حينه وهى ملفوفة بقطعة من القماش . وعندما عادت كان ميخيتش قد هبط من مدخل العنبر وجلس على درجته ، فقدمت له ناستيونا الساعة : – خذ .

مال ميخيتش مشيحا بوجهه عن الساعة ونهض .

– ما هذا . . . ما هذا ؟ – سال خائفا وانكمش وجهه من جديد وهو يركز انتباهه .

– ساعة . هذه ساعة – اوضحت له ناستيونا على عجل – فانا لم استلم نقودا لقاء البندقية ، بل استلمت هذه الساعة . انها مبادلة . بيع الساعة اسهل . قال ذلك الشخص انها ساعة تختلف عن غيرها . فهى ساعة اجنبية ثمينة . انظر ، فيها ثلاثة عقارب . – ادارت ناستيونا على عجل زر التشغيل الذى لمسته ، على ما يبدو ، اكثر من مرة ، ودست الساعة فى يد ميخيتش : – لاحظ ، العقرب الطويل الرفيع يركض بسرعة ، انظر كيف يركض بسرعة . لم ار مثل هذه الساعة مطلقا . كيف تمكنوا من صنع هذه التحفة

الجميلة ؟ . . انها ساعة دقيقة دوما لا تقدم ولا تؤخر – اخذ ميخيتش الساعة مرتعبا كما لو انه امسك بقنبلة يدوية ، واسند احدى راحتيه بالاخرى واعاد الساعة الى ناستيونا فى الحال – فى الظلام تشع ضوءا ، هذه النقاط تلمع بضوء ابيض ، وكل شىء مرئى فيها – اضافت ناستيونا باعجاب يائس اعمى ثم لزمت الصمت . فقال حموها بعد ان استعاد هدوءه :

– كيف يمكن مبادلة بندقية بساعة ؟ بلعبة ؟

– بيع الساعة اسهل . . . لكل شخص هنا بندقية . اما الساعة . . . وخصوصا اذا كانت مثل هذه . . . سينتزعونها مع اليد حالما نعرضها للبيع .

– ينبغى ان ننتزع منك «شيئا ما» على ما فعلت ، لكى تفكرى قليلا ، قبل ان تفعلى دون تفكير . على من ستبيعينها ؟ ومن هو بحاجة اليها ؟ ها هى الشمس تدور . – ثم تذكر ما عرضته ناستيونا من مزايا الساعة فغضب وبصق وقال : «تشع فى الظلام» . ما فائدة هذا الضوء ؟ هل ابحث فيه عن القمل ؟

– سيشتريها اينوكينتى ايفانوفيتش – قالت ناستيونا دون ان تتراجع – انا واثقة من انه سيعجب بها ، فهو يحب هذه الاشياء . سيشتريها حالما نعرضها عليه . فالمفوض الذى رافقته طلبها منى بالفى روبل – قالت للمزيد من الاقناع – وقد الح فى الطلب . . .

– بكم ؟ بكم ؟

– بالفى روبل .

– لماذا لم تبيعيها اذا كنت قد وجدت مثل هذا الاحمق ؟

– محتمل ان ثمنها اكثر .

– ابحثى عن الاكثر . وسنرى كيف ستجدينه . بالفى روبل . . . كان المفوض يضحك عليك ، اما انت فقد صدقته . كفاية . فلنذهب . – قال فى الاخير – ضيعنا الوقت بسبب ساعتك . افرحتينى ، ولا داعى للمزيد . خذيها ، اخفيها عن انظارى لوجه المسيح .

وذهبا . بيد ان ناستيونا ادركت ان لهذا الحديث بقية وان ميخيتش لن يتحمل وسيعود اليه مرة اخرى . فسيظلان معا امدا طويلا ، وليس من السهل اطلاقا التحدث عن شىء آخر بعد كل ما

اثاره ذلك فى نفسيهما . شعرت ناستيونا بالتهيب والخوف مع ان افظع ما يمكن ان يحدث اليوم قد حدث فعلا ولن يتكرر كما تأمل . يلزمها الآن ان تتمسك باقوالها ولا تحيد عنها وان تتظاهر بالبلاهة كالسابق . وثوابها فى ذلك ان توقعا مرهقا كالكابوس قد انحسر وتبدد . فقد توفرت المبررات لواحد من الاشياء المفقودة ، ولا اهمية لما اذا كانت تلك المبررات مقبولة ام لا . واذا استمر الحال على هذا المنوال من السرية والخفاء سيكون الامر اسهل ، الى ان تحين بالطبع تلك اللحظة الحرجة التى تستدعى فيها الحاجة تبريرا آخر ليس لما ضاع ، بل لما وجد ، للجنين . الا انه لا يزال فى الوقت متسع ، مع انه لم يبق مجال للشك فى ذلك .

عندما وصلا المكان المطلوب انهمكا فورا بمعالجة الصنوبرة التى وقع الاختيار عليها مسبقا . ضرب ميخيتش جذع الصنوبرة بالفاس عدة ضربات من الجهة الاكثر اغصانا . واخذا يعالجانها بالمنشار من الجهة المقابلة . لم يكن الجذع سميكا ، فقد اختارا شجرة سهلة ، ولكن المنشار لم يعمل بيسر فاستنزف قواهما . وسرعان ما ضاقت انفاس ميخيتش وراح يسعل . انتظرت ناستيونا حتى يهدأ ، فجلست على الارض ولاحظت بين اعشاب العام المنصرم عشبة خضراء باهتة ، لمعت بين تلك الاعشاب واختفت ، الا ان ناستيونا انحنت على تلك البقعة وبحثت عنها حتى وجدتها ، ووجدت عشيبات خضراء اخرى على مقربة منها . اقتلعت احداها وراحت تداعبها بيدها وتتأمل مقتربة ، كما خيل اليها ، من فكرة بعيدة هامة يمكن ان تحمل لها املا ، الا ان هذه الفكرة العنيدة لم تنزل عند رغبة ناستيونا ، بل تملصت منها . كف ميخيتش عن السعال واقترب من ناستيونا فعرضت عليه العشبة قائلة :

– انظر ، ظهر عشب جديد . وقد رأيته لاول مرة هذا العام .

لم يجبها بشىء ، وسحب المنشار الى جهته . اسفت ناستيونا لما قالته . فقد يفسر كلامها بانها تتملق لحميها فى محاولة للتقليل من ذنبها بالحديث عن هذه الاعشاب .

كان النهار صاحيا ولكن دون افراط ، وكان هادئا ناعسا رغم ان الشمس مشرقة فى السماء . بدت الشمس نحيلة باهتة وكانها فى النفس الاخير ، وظل نورها الضعيف معلقا فى الهواء فلا يكاد

يصل الارض . وفى مكان ما انبعث صفير سنجاب ، وتهادى من الهضبة البعيدة نباح كلب ، وسمع صرير شجرة قديمة ، بيد ان هذه الاصوات لم تعكر صفو السكون ، بل خففت من ثقله ، حتى بدا وكان النهار لاذ باذيال الصمت والهدوء خصيصا من اجل ان تبزغ الاعشاب من الظلمة وتنتفخ براعم الاشجار دون خوف او وجل .

واخيرا طقطقت الصنوبرة تحت المنشار وارتعشت قمتها وتجمدت باذلة جهودا مستميتة للصمود ولكن دون جدوى ، فقد مالت وهوت مقطعة ما تبقى فى اسفل جذعها من نياط . قفز ميخيتش وناستيونا مبتعدين . تهشم اسفل الجذع على القرمة . التف الجذع فى الهواء وهوى نتطاير فى الاعالى غصن انفصل من الشجرة واهتزت الشجيرات المجاورة ودوى الصدى وراء النهر . التقط ميخيتش الفأس من الارض وانهمك فى قطع الاغصان ، بينما راحت ناستيونا ، كالعادة ، تجمعها فى كومة واحدة .

بعد اعداد الصنوبرة للنشر جلسا يستريحان ، فسألها ميخيتش :

– الا تعرفين ، يا ناستيونا ، اين اندرى ؟

ذلك ما لم تكن تتوقعه . فهى تتوقع كل شىء ما عدا هذا السؤال . كان ذلك مبعثا للرعب حقا . فهتفت مندهشة ولفع الرعب دهشتها بشكل موفق :

– اندرى ؟ من اين لى ان اعرف ؟ ولماذا تسألنى ؟

– يعنى انك لا تعرفين ، آ ؟

– لا اعرف شيئا على الاطلاق . كل ما اعرفه تعرفه انت . فمن اين لى ان اعرف اكثر ؟ نحن نعيش فى منزل واحد على ما اعتقد .

القى عليها نظرة متفحصة مؤلمة . تطلع اليها وكأنه يستجوبها غير واثق من كلماتها ، بل يريد ان يعرف من مظهرها ومن تصرفها ما تخفيه من معلومات .

– ظننت بانك ربما تعرفين شيئا ولا تريدين ان تقوليه . اليس كذلك ؟ خبرينى ، يا ناستيونا ، خبرينى انا وحدى ، ولا تخفى على .

– بماذا اخبرك ؟ – استعادت قوتها فراحت تجيب بثقة اكبر –

ما الذى استطيع ان اخبرك به يا ترى ؟ ولو كان عندى ما اقوله فلم لا اقوله ؟ اننى اعرف قدر ما تعرف انت .

– سألت مجرد سؤال لا اكثر . . . وسألت لانك فى الفترة الاخيرة لم تعودى على حالك .

– لماذا ؟ – سألت ناستيونا بدهشة حذرة وبحب استطلاع .

– لست على حالك . وربما خيل الى ذلك . . . لكننى لا اتصور مطلقا بانك يمكن ان تبادلى البندقية بساعة دون استشارة احد . فانا لم الاحظ عليك مثل هذا فى السابق . وبالاضافة الى البندقية يبدو ان شيئا حدث لك يا بنتى . فانت كأنما تخافين طوال الوقت . . . وتستعجلين طوال الوقت . . . ربما تنوين تركنا ؟

– الى اين اتركم ؟ ساعيش هنا الى ان تطردونى بانفسكم – اجابت ناستيونا بصدق ، بذلك الصدق الدفين الذى تعودت عليه – ربما ستنتهى الحرب قريبا ، وسيحدث شىء من كل بد .

– اين هو ؟

– لا ادرى اين هو ، قلت لك لا ادرى .

– اننى الآن اتساءل ولا اسال منك يا بنتى .

انهمكا بجر المنشار من جديد . ناستيونا تدفعه الى الامام وتسحبه ، ثم تدفعه وتسحبه ، وتلقى ، خلسة ، نظرات على حميها كى تتأكد مما اذا كان قد صدقها ام لا . ان مجرد ارتيابه وتصوره بانها تعرف ، لوحدها ، شيئا عن اندرى لا يبشر بخير اطلاقا . فمن الواضح انه سيتعقبها من الآن فصاعدا ، سيتعقبها عفويا حتى اذا صدق بما قالت . فليس التخلص من الارتياب بالامر اليسير ، اذ انه اذا ظهر يبقى قائما بحد ذاته ، ثم يسيطر على الانسان فيما بعد ولا يسيطر عليه الانسان . يتعين عليها الآن ان تضاعف الحذر مرات وان تحسب الحساب لكل خطوة تخطوها . كيف لها ان تحسب وان تلتزم بالحذر اذا كان بطنها سيبرز بعد زهاء شهرين ، وليس بالامكان التحجج باية حجج كما فى حالة البندقية . فهذه ساعة تدق بصوت عال وبدون توقف . لم تكن ناستيونا تتصور ما الذى ينتظرها . فان تصورها عاجز عن ذلك . وما سينهال عليها لا يحتمل المقارنة مع اى شىء آخر ، ولا بد من انتظاره بانصياع دون ان تفعل شيئا الى ان ينكشف امام الملأ ما

حدث لها ، والى ان يشيروا اليها بالسبابة ويسألونها : من اين لك هذا ؟ عند ذاك ستزحف وتتملص معتمدة على قواها الخاصة فقط ، لان احدا لن يعينها ولن ينجدها . لا احد يعينها سوى قواها الخاصة التى يجب عليها وحدها ان تنقذهم ، ثلاثتهم . فهل ستكفيها تلك القوى ؟ لا تعرف ذلك ، ولا تريد ان تفكر فيه قبل الاوان ، مؤملة ، مع ذلك ، بانها ليست من ضعاف النفوس ، وخائفة ، فى الوقت ذاته ، من ان ذلك قد يتطلب ، بالاضافة الى القوى والصبر ، شيئا آخر لن يكون متوفرا لديها . ربما يتمكن المرء من تحمل العار ، ايا كان ، ولكن هل يمكن خدع جميع الناس ، والعالم كله دفعة واحدة ، كيلا يكتشف احد ، اطلاقا ، حقيقة الامر ؟ وهل يكفى شخص واحد لتحقيق هذه المهمة مهما وفق فى حيله وبراعته ؟ افليست الخطيئة التى يتحملها كبيرة جدا؟ انها اكبر منه ، اكبر من باقى حياته الذى يلزمه كى يكفر عن تلك الخطيئة ويحظى بالصفح والغفران .

فى لحظة مناسبة ارادت ان تصارح حماها بانها حامل ، لكى تتخلص ، دفعة واحدة ، من ذلك الخوف الشديد ، خوفها من الفضيحة المرتقبة . فاذا عظمت المصيبة هانت . واذا تحمل هو وصبر على ذلك فى آخر المطاف ، وان بصعوبة وتردد ، فسيسهل الامر عليها كثيرا ، وستتحمل هى الباقى بشكل ما . الا ان ناستيونا شعرت بالاسى لميخيتش . فقد تصورت سلفا كيف سيتجمد مرتعبا ويطاطىء راسه تحت ثقل الافكار المتجهمة مترددا فى السؤال عما ينبغى السؤال عنه فى مثل هذه الاحوال . كلا . يكفيه ما عاناه اليوم من قصة البندقية ، ويكفيها هى الحوار الذى جرى بينهما . ناستيونا تخشى من ان اعترافها سيجعل حماها يصر على ارتيابه ويقنعه بصحة ما قد يخيل اليه الان مجرد تخيل . وهى تخشى من ان ميخيتش يعرفها افضل مما يعرفها الآخرون فلا يصدق باكاذيبها الخرقاء . وعند ذاك ستتوافق شكوك كثيرة جدا فتشير الى اندرى وتدل عليه . وهذا ما لا تمتلك حقا فيه . فقد منع عليها اى تلميح واى تهاون فى التزام منتهى الحيطة .

نشرا الصنوبرة وهمّا بالانصراف ، فلم يبق لديهما وقت . مال النهار الى الافول حتى قارب خاتمته . وبزغ الهلال على الجانب

المقابل للشمس فى رقعة واحدة من السماء الواسعة . الهلال الرفيع الحاد كالمنجل يلمع باصرار غاضب فى ضوء الشمس الباهت . وناستيونا تشعر بالخوف كلما ترى الشمس والقمر معا ، ولا تفهم لماذا لا يستطيعان ان يفترقا كما هو المفروض . وشعرت بالخوف الآن ايضا . لكنها لم تضيق جفونها . تطلعت بعينين مفتحتين الى الشمس ، وخيل اليها ان اشعة الهلال الباردة تصل اليها وتخز بدنها .

قبيل ان يغادرا الغابة جلس ميخيتش على مقطع من جذع ، فتاهبت ناستيونا استعدادا لاحتمال عودته من جديد الى الحديث عن اندرى . لم تجرؤ على الذهاب لوحدها ، فلم تكن راغبة فى جعله يظن بانها تتحاشاه . اشعل غليونه ودخن دقيقتين ثم نهض . وتذكرت ناستيونا انه لا يحب التدخين ماشيا . عادا الى القرية صامتين تشدهما ببعضهما البعض رغبة ممضة فى اكمال الحديث المبتور .

اثناء تدبير شؤون المنزل داهمت ناستيونا ، عدة مرات خلال المساء ، فكرة محيرة مخيفة هى ان ناستيونا نفسها انسان حاول تضليل ميخيتش فلم يفلح الا فى اثارة حذره وشكوكه . وهى انسان يبعث التفكير فيه وتصور ما سيحدث له الرعب والهلع ويرتكب حماقة تلو حماقة وكانه يتعمد فى البحث عن هلاكه . وسينقطع حبل مستقبله فى الشهور القليلة القادمة بعد ان تمزق حاضره اشلاء متناثرة متنافرة . انتابها رعب ثقيل اناخ على فؤادها ليجرب قوة احتماله وكانه لا يريد ان يفلته امدا طويلا ، ولكنه رعب مغناج مطواع يمكن التخلص منه وابعاده عند الاقتضاء . فهو يبتعد وكانه يقول ان وقته المشروع لم يحن بعد ، ثم ينتاب الفؤاد مرة اخرى ويبتعد عنه من جديد مخلفا قلقا ممضا مؤلما . وها هو القلق لا يريد ان يتضاءل . وها هى ناستيونا عاجزة عن السيطرة عليه . لاحظت ان حياتها اليوم حققت انعطافا كبيرا نحو ذاك الذى لا مناص ولا مفر من وقوعه . فالسر الذى يجب ان تمتلكه وحدها ومض اليوم ، على ما يبدو ، امام اعين اخرى . وليس بالامكان ، والحال هذه ، ان يحافظ المرء على هدوئه . لامت

ناستيونا نفسها على ذلك . فربما لم تبتدع الاكاذيب اللازمة ، ولم تتكلم بالشكل المطلوب ، ولم تتمكن ، كما ينبغى ، من اخفاء ما يستدعى عناية كبيرة وحرصا فائقا ، ولم توفق فى اقناع ميخيتش بانها لا تزال هى هى ، نفس تلك المرأة الصريحة الطيعة . . .

ظلت ناستيونا على احر من الجمر وهى تنتظر عودة حميها من العمل لكى ترى كيف ستكون معاملته لها وماذا سيقول لها . ينبغى لها ان تبقى جنبه ، فحتى فى اسوأ الاحوال ، اذا كان الحال سيسوء حقا ، يغدو الامر اوضح واهون عليها من المحاذير والمخاوف الغامضة المشوشة . كانت تأمل بان ميخيتش ، اذا دار فى باله شىء ، لن يصبر وسيذكر ذلك الشىء ، وحتى اذا لم يذكره صراحة فستدل عليه تصرفاته بصورة غير مباشرة . فهو انسان صريح غير مخادع ، وهو يحب الوضوح ووضع النقاط على الحروف .

غير ان ميخيتش ، كما تعلم ناستيونا ، يعود من الاسطبل متاخرا ، بعد هبوط الظلام . ولذا توجهت ناستيونا ، بعد قضاء الشؤون المنزلية ، الى نادكا كى تشغل نفسها بشىء ولا تعذبها جزافا .

فى منزل نادكا كانوا يتناولون العشاء ، او على الاصح تأهبوا لتناوله . امام كل منهم على المائدة كمية من البطاطس التى وزعت حسب الاعمار : امام ليدكا ، البنت الصغرى ، اربع حبات ، وامام بيتكا خمس حبات ، وامام رودكا والام ست حبات لكل منهما . وقطعة خبز للفرد الواحد . دعوا ناستيونا لتناول الطعام فجلست قرب ليدكا واكتفت بان صبت لنفسها قدحا من الشاى . منظر ليدكا يثير الشفقة . فقد التهمت خبزها بلمح البصر وانهمكت فى تناول البطاطس وهى تسلط نظرات سريعة جائعة على خبز اخويها . نهرتها نادكا كيلا تغص بالبطاطس . واحست ناستيونا ، وهى تراقب ليدكا ، بالتعب من الفكرة المرهقة المعتادة : متى سينتهى ذلك ؟ متى يتم تصحيح الحياة الطبيعية التى تتوقف على الانسان نفسه وليس على قساوة جهنمية خارجة عن ارادته ؟ متى يأكل الاطفال على الاقل حتى الشبع ؟ فما هو ذنب الاطفال ؟

التهمت ليدكا البطاطس بنفس تلك السرعة المسعورة ، وندت

عنها صرخة مستغربة عندما لم تجد شيئا آخر امامها . ظلت يداها معلقتين فى الهواء وراحت عيناها الجائعتان تبحثان هنا وهناك .

لم يكن احد يريد الالتفات الى حيرتها . فالام وزعت الطعام بالذات كى يعول كل على حصته فقط .

– اشربى شايك واذهبى الى الفراش – حثتها امها فشرعت البنت باحتساء الشاى طائعة .

لم تتحمل ناستيونا فنهضت وتوجهت الى ركن المطبخ حيث لاحظت رغيف يوم غد مغطى بمنشفة . جازفت باقتطاع طرف صغير من الرغيف ، مع انها تعلم بان نادكا يمكن ان تثور لذلك ، وقدمته الى ليدكا كى تتمكن هذه من ترويض الجوع وتخفف من غلوائه على الاقل . لزمت نادكا الصمت . ولكنها قالت بزعل وتحد ساخر فيما بعد ، عندما احتضنت ناستيونا الطفلة وحنت على بدنها الصغير النحيل المرتعش :

– الا تريدين تبنيها ؟

– لماذا آخذ منك ؟ ربما سأالد انا قريبا . فانت لا تعلمين .

اجابت بهذه الصورة واسفت ، فما الذى جعلها تجيب على هذا النحو ؟ وفيما بعد ، عندما تلاحظ نادكا شيئا ستتذكر هذه الكلمات ، وستساعدها هذه الكلمات بالذات على معرفة الحقيقة قبل الآخرين . وربما لاحظت الآن ، من الصوت ومن الثقة والتحدى اللذين اجابت بهما ، ان هذا الجواب ليس مجرد رد بسيط ، فهو ينطوى على مغزى .

– لماذا لم تلدى فى السابق اذن ؟ – سألت نادكا بلهجة معقولة تماما .

– لم اكن راغبة .

– انظروا : لم تكن راغبة . انتظرى الى ان تمر الحرب ، اليس كذلك ؟ ما ادهاكن جميعا ! لماذا لم تهمسن فى اذنى بان الاستعدادات للحرب جارية . فلو كنت اعلم بذلك لما حبلت بهم كل مرة ولاجلتهم فترة من الزمن .

ضحكت ناستيونا متخيلة نادكا وهى تنتظر خمس سنوات قبل اندلاع الحرب واربع سنوات حتى انتهائها دون ان تسمح لاحد

بالتقرب منها ، لا زوجها فيتيا ولا غيره . وقالت ناستيونا ذلك لنادكا فقهقت هذه ايضا واضافت موافقة :

– كيف استطيع ذلك ؟ من اين لى الصبر الكافى ؟ لو كان الامر بيدى لحبلت بواحد كل عام ، وتبقى ثلاثة شهور لطفل آخر . فانا خصبة احمل من اول لقاء . كل شىء عندى جاهز دوما ، وليس مثل بعضهن – لم تتحمل فوخزت ناستيونا – ولو لم اكن حذرة لفتحت دار حضانة لوحدى : الد فارضع ، ثم الد فارضع . ولن يلحق بى اى حريم . هل سمعت بالحريم ؟ حدثنى عنه فيتيا من احد الكتب . ما قيمة النساء اذا كان رجل واحد بحاجة الى الكثيرات منهن ؟ فهو يتبختر امامهن مثل الديك ويختار هذه اذا اراد ويترك تلك مكتئبة حزينة . ولو تبختر امامى راعى النساء الراسمالى هذا لدست عجرفته بقدمى ولراى منى شر ما يمكن ان يراه . حقا ، اية نساء تلك اللواتى يحتاج الرجل الى قطيع منهن كى ينجبن له بعض الاطفال ؟ فانا وحدى استطيع اكثر منهن . – كانت نادكا تسخر من نفسها متباهية . فهى قد ادت واجبها النسوى . تلك حقيقة لا جدال فيها . فيما مضى ربما كان تباهى نادكا يجرح شعور ناستيونا ، الا انها هذه المرة شعرت بالارتياح لسماعه .

داعبت ناستيونا الطفلة حتى غفت . وارتاحت ناستيونا لوجود ليدكا غافية فى حضنها ، فقد خيل اليها ان الجنين الذى بداخلها يستجيب لذلك ويشعر بالغيرة فيستعجل فى هذه اللحظات اكثر مما فى اى وقت آخر .

عادت الى المنزل فرات مشهدا لم تتوقع رؤيته ابدا . كان ميخيتش يدرب سيميونوفنا على السير بعكازين . اعد العكازين من زمان ، ولكن سيميونوفنا رفضت استخدامهما رفضا باتا . بيد ان ميخيتش تمكن اليوم ، بمعجزة على ما يبدو ، من اقناعها . كانت سيميونوفنا تتعذب . فبعد ان غرزت العكازين تحت ابطيها راحت تلقى بهما الى الامام دفعة واحدة ، ،كفرس معقودة القوائم ، ثم تتحاشى السقوط ، فتهبط بثقلها على قدميها المريضتين الخائرتين ، وتتشبث بكل ما يقع بين يديها وتتاوه وتندب حظها العاثر . وكان ميخيتش يرشدها قائلا :

– حركيهما على التوالى ، الواحد بعد الآخر . فلماذا لا تفهمينى ؟

لا داعى للقفز ، فقد انتهى زمان القفز ، كفاية . البعض بدون رجلين ولكنهم يسيرون ، اما انت فرجلاك لا تزالان حيتين ، ويمكن الاستعانة بهما قليلا . تعلمى الخطو فى البداية ، وبعد ذلك يمكن ان تستعجلى .

– يا الهى – ولولت سيميونوفنا بانين – لماذا تعذبنى فى آخر ايامى ؟ اعطفى انت على يا مريم العذراء . وقولى لهذا العجوز الاحمق بانى شاذهب الى القبر بدون عكازيه . لا تضعهما معى فى التابوت على الاقل – التفتت الى ميخيتش مهاجمة – فلا تجلب على العار هناك . عجيب : اشتطاع ان يرفعنى من دكة الفرن وقال : تعالى . الى اين ؟ الى اين ؟

– اجلسى لترتاحى طالما تعبت – اجلسها على التخت – هل تؤلمك قدماك ؟

– كيف لا ؟ تؤلمانى بالطبع ، يا الهى . . . نار حامية تخرج منهما ، ومع ذلك يشالنى : تؤلمانك ؟

وضعت ناستيونا السماور قرب الفرن الحجرى ووجهت كوع مدخنته نحو مدخنة الفرن ، وهمت باشعال المصباح ، لكن ميخيتش اوقفها قائلا بان الكيروسين يكاد ينفد وينبغى الاقتصاد فيه . اشعل المدفاة المتصلة بالفرن . وزعلت ناستيونا ، فقد تصورت بانها لو لم تبدأ باشعال المصباح لاشعله حموها بنفسه بعد لحظة ، ولكنه اعترض عليها عمدا . لم يسخنوا المدفاة منذ زهاء شهر ، منذ ان استطال النهار ، ولكنه تذكرها وذهب لاحضار الاغصان الجافة ، وربما تذكر ايضا النقاش الصامت المتشدد الذى جرى بينهما .

وشوش السماور وطقطق الحطب فى المدفاة . انبعثت منها ظلال اللهيب الطويلة الساحرة وانطبعت على الجدران والنوافذ ، وتدفأ المنزل وانتعش . جلست سيميونوفنا بوجه متجهم ساهم وانحنت لتمسد رجليها بحركات ذاوية من يديها . فناداها ميخيتش قائلا :

– ماذا يا عجوز ، هل نواصل ؟

– اتريد ان تقضى على ؟ – سالته بصوت متحد تخنقه العبرات .

– من يدرى ؟!

– هيا ، اقض على ولا تراف بحالى .

همت بالنهوض بتصميم حاقد مقهور . فى البداية تزحزحت من على التخت ونهضت قليلا على رجليها المحنيتين كما كانتا وهى جالسة ، ثم راحت تعدل قامتها بالتدريج ضاغطة على ركبتيها بيديها . دس ميخيتش العكازين تحت ابطيها من جديد . واستدارت ناستيونا الى الجهة الثانية استعدادا لتلقف حماتها فيما لو سقطت . الا ان سيميونوفنا سرعان ما تمكنت هذه المرة ، ويا للدهشة ، من ان تتفهم طريقة الخطو فى هذا السير الجديد عليها : فقد استندت الى احد العكازين ونقلت العكاز الثانى بخشونة الى الامام ثم استندت اليه . ولاحت فى صوتها ، كما فى صوت طفل اتقن هذه الحرفة لاول مرة ، نبرة الممانعة اللجوجة المتباهية :

– ابتعدا ، اتركانى . شأمشى بنفشى .

سارت فى الغرفة من ركن الى آخر وصرفت وقتا طويلا فى الاستدارة ثم عادت الى موقع التخت وجلست متأوهة بارتياح . ضحك ميخيتش بصوت مكتوم وهو يراقبها وكتفاه ترتعشان وشارباه يتقافزان . وقالت سيميونوفنا موافقة بصوت متعب ودون ان تلتفت اليه :

– لا باش ، قدماى شالحتان للمشى . واذا دربتهما على المشى يمكن ان اقف عليهما .

– هكذا اذن . – قال ميخيتش مرحا – والا فان رجلى السليمة لا تكفى وحدها لشخصين ، ولن نسير عليها بعيدا . اما الآن فلدينا ثلاث ارجل ، اثنتان يمكن علاجهما ، والثالثة سليمة .

– آه ، لو رآنى اندرى اتعكز لضحك على . . . حقا ، انها مصيبة مضحكة .

– لا يجوز لنا ، يا عجوز ، ان نبقى على دكة الفرن اطلاقا – قال ميخيتش بلهجة خصوصية واثقة ، دافئة ومتشددة ، فيها قصد وتعمد كما خيل لناستيونا – يجب ان نتحرك ولو بعكازين .

احست ناستيونا بان هذه الكلمات تنطوى على مغزى خفى مكتوم له علاقة بحديث اليوم . فهذا الحديث لم يتبدد جزافا بالنسبة لحميها . فقد فهم شيئا وصمم على امر . وهو امر حمله فورا على

ارغام سيميونوفنا على استخدام العكازين . افلا يعدها للاستغناء عن ناستيونا قريبا ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

– وعندما ياتى الصيف ستتدفأ رجلاك وربما ستتركين العكازين . – قال مشجعا العجوز ، فاجابته :

– حبذا ، يا ليت .

– هل تتذكرين كيف كنت تصعدين الهضبة قبل الآخرين ؟

– اتذكر . . . كيف لا اتذكر ؟ . . . ولكن ما الداعى لذكر ذلك يا فيودور ؟ لماذا تثير احزانى ؟

ارتعشت ناستيونا . فالعجوزان لم يسميا بعضهما البعض بالاسم الاول من زمان . وقد نسيت ان اسم حميها فيودور . فهذا الاسم لم يعد الا صدى عابرا لشبابهما الفوار البعيد . التفتت ناستيونا الى العجوزين فوجدتهما صامتين منشغلين بالذكريات .

وفجاة اكتنفها غيظ عفوى غامض لا تعرف مصدره ، وشعرت بانها وحيدة تعيسة لعينة ، وغريبة مضللة ، وهالكة عبثا ، فاختنقت بعبراتها وكادت تنتحب بمرارة من اعماق الفؤاد ، ولكنها تمالكت نفسها ، فالبكاء ممنوع ، اذ انه قد يفصح عن شىء له علاقة باندرى . وانتهزت الفرصة المؤاتية عندما توجه ميخيتش الى ركن المطبخ فلحقت به على عجل وسألته بهمس متسارع :

– الست زعلانا على يا ابتى بسبب البندقية ؟ الست زعلانا ، آ ؟

– بسبب البندقية ؟ – كان لا يزال غارقا فى عالم الذكريات فلم يفهم كلامها فى الحال – كلا ، يا بنتى ، لست زعلانا . فما شأن البندقية ؟ . .

وكان هذا الجواب المبتور قد ضاعف القلق فى فؤادها التائه الحائر .

١٥

جاء غوسكوف الى الحمام آخر مرة فى اواسط نيسان سائرا على جليد هش غير مأمون . اخذ الكيس الكبير من تحت المصطبة ونقله الى الكوخ . وجد فيه بطاطس وبضعة رؤوس من البصل وراسين

من الفجل وحقا يحتوى ، كالمرة السابقة ، على دقيق الحمص ومعه زهاء عشر بيضات ، ورغيف خبز ملفوفا بقطعة قماش . كما وجد فى قطعة قماش اخرى ، غليظة مما يخصص للف القدم بمثابة جوارب ، جزمة جلدية عتيقة بداخلها قطعة من الجلد وخيط مشمع وابرة اسكافية لترقيع الجزمة . وبالاضافة الى ذلك وجد فى الكيس قميصا قاتم اللون ومقصا صدئا لجز الصوف وبقية من قلم كوبيا وقليلا من الملح ومن اوراق التبغ وكسرة من صابونة سوداء وقنينة صغيرة من العرق المنزلى اثارت دهشة اندرى . كان يتعين على اندرى غوسكوف ان يعيش بهذا المتاع امدا لا يعلمه الا الله ، ولكن لا اقل من شهر ، حتى تصل ناستيونا على قارب بمياه الفيضان . عندما افرغ الكيس خيل اليه ان محتوياته كثيرة ، ولكنه بعد ثلاثة ايام تعين عليه ان يحسب الحساب لكل حبة من البطاطس وكل حفنة من الدقيق . كان يخلط التبغ بالطحلب الجاف مناصفة ، ومع ذلك ارغم نفسه على تدخين هذا الخليط المقرف لا اكثر من ثلاث مرات فى اليوم ، بل ومرتين فيما بعد ، صباحا ومساءا .

رقّ جليد انغارا وازرقّ كالعليل بعد ان كان صلبا متينا فى الشتاء . ولاحت ثغرات ذاب جليدها عند الضفاف ، وليس عند الضفاف وحدها . واسودّ الدرب عبر النهر ونتأ بعد ان ذاب جانباه ، وراحت الغربان تجوبه وهى تنعق متذمرة . وفى هواء الربيع الصافى بدت اشجار الشربين العوجاء فى الجزيرة كالحة مشوهة وكانما اتلفتها عمدا نزوة شريرة ، مع ان من الواضح ان الاشجار هناك ، فى مهب الريح المتواصلة ، تلاقى صعوبة فى النهوض باستقامة وبلا عيوب . وفى كل مكان وكل غابة ، حتى فى اجمات البتولا النيرة ، تبدو الحقبة بين ذوبان الثلج وظهور الخضرة اكثر الازمان كآبة واسى ، حيث تتوتر المشاعر البشرية الى حد اللوعة والجوع ولا تريد السكوت على الخواء والسواد والعفونة التى تكتنف مطلع ربيع الشمال ولا اثر لها فى خريفه .

خلع غوسكوف اخيرا الجزمة اللبادية البغيضة وارتدى الجزمة الجلدية الخفيفة المريحة للقدمين وصار يمشى كثيرا ، فالسير والتحرك لا على التعيين هما افضل حالة ترتاح لها نفسه . والافكار تتبسط اثناء المسير ، ويمكن اشغال الفكر بما يصادفه فى

الطريق . كان يأخذ البندقية معه ولكنه لا يطلق النار منها ، بل ولم يكن هناك ما يستدعى استخدامها . فالوحوش فى نيسان – ايار تلتزم الحذر اكثر مما فى اى وقت آخر ، ولا توجد هنا اماكن لتزاوج الطيهوج والقطا . والطيور عموما قليلة فى هذه البقاع الخالية من الحقول .

كلما اقترب الصيف واشتد الدفء شعر غوسكوف برغبة متزايدة للبحث عن الثلج ، عن بقايا الشتاء التى ظلت قابعة فى الزوايا النائية المظلمة . وكان يعثر على بقايا الثلج المستوية القذرة الرطبة فيقف امامها ليودعها بفكر متحجر ثقيل وهو على ثقة راسخة بانه لن يرى ثلج الشتاء القادم . كان يعد نفسه ليسير فى الحلقة الاخيرة التى يعرف بانها ستنغلق قريبا : فقد عاش خريفه الاخير وشتاءه الاخير ، وهو يعيش الربيع الاخير ، وامامه آخر صيف فى العمر . عندما يتطلع غوسكوف الى الثلج الذائب يشعر بصلة قربى غامضة معه : فقد عاشا هنا فى وقت واحد ، والثلج او الجليد هو الشىء الاخير الذى قدر له ان يودعه ، اما ما تبقى فسيبقى من بعده . حدد غوسكوف لنفسه المنعطف الاخير الذى تحل بعده مهلة قصيرة لوجوده . وهذا المنعطف هو اليوم الذى يتحرك فيه جليد نهر انغارا فينتقل اندرى الى الكوخ العلوى . اعد هذا الكوخ ونقل اليه بعض الحاجيات التى يمكنه الاستغناء عنها الآن وفرش التخت باغصان التنوب كى تجف حتى ذلك الحين فلا تفصح لمن يراها عن وقت اقتطاعها . ومنع غوسكوف نفسه من التفكير بالانتقال حتى ذلك اليوم ، فآنذاك بالذات ، فى عيد النهر وانتعاشه وانتعاش كل ما حواليه يدخل مأواه الاخير ويطلق العنان لنفسه فورا كى تغرق فى خضم الدهشة المرعبة حيث سيرى مياه الفيضان من فوق . وسيحقق بذلك هدفه النهائى من وجوده هنا ، وهو الهدف الذى رسمه عندما فر من الجبهة . آنذاك بدا له هذا الهدف بعيدا جدا ، ولكن ها هو يبلغه بسرعة كبيرة ! ولم يكن قد ابتدع لنفسه هدفا آخر . كان يتصور ان الصيف بعيد عنه على مدى عمر كامل ، وها هو العمر يقصر ويمر ، وها هو الصيف على الابواب . فماذا بعد ؟ سيخرج قنينة العرق التى وضعتها له ناستيونا فى الكيس وسيتجرعها متطلعا الى النهر

المنطلق الفوار ، دليل تحقق امنيته . سيتجرع العرق وينساق للسكر يتيما ميتما ، وسيخلط فى بوتقة الانفعال ، الالم بالعار ، بالامل والاستقرار ، باليأس والرعب . وسيصب هذا الخليط الحارق على روحه ، وسيختمر لديه شعور بسيط واحد ، وضاء كالنافذة المنيرة : انا موجود ، رغم كل ما سيحدث غدا ، اليوم انا موجود . كان يعرف تماما انه سيفعل ذلك ، فكان يخشى هذا اليوم ويفرح له مسبقا وينتظر بدهشة باردة حلوله من كل بد .

كان نومه متقطعا . وصارت الليالى المنيرة بضوء القمر تقلقه ، فيستيقظ فى توجس ثقيل بلا سبب ويغادر الكوخ . فى هذه الاوقات يشتد الم صدره الجريح اكثر من المعتاد . وكلما كان ضوء القمر اشد سطوعا كلما ازداد قلقه الخانق . كان ، فى تصوراته عن الآخرة ، يرى البدر الدائم بدون بزوغ ولا افول ، يراه جامدا فى السماء الواطئة المسطحة كسقف الدار ، ويتعالى منه الدخان لسبب ما .

كان يتوجه عادة الى شاطىء النهر ويجلس فى ظلال الليل ويتطلع طويلا الى الجليد ويحسده على اصراره اللامجدى ويصاب بعدوى هذا الاصرار . وحتى فى الليل ، حيث يشتد الصقيع ، كان الجليد يستنفد قواه . فالماء ينخره من تحت ويحركه ، وكان ركامه يتساقط ويتحطم بشكل اصابع متناثرة . وبلمح البصر تتشقق الكتل فينبعث منها صفير عابر كالزقزقة . وتترجرج وتتاوه القشرة المتجمدة الرقيقة على فجوات الجليد . غوسكوف يتربص كالوحش ويتجاوب مع كل نأمة وكل نفس . تعلم اخضاع جميع احاسيسه لاحساس واحد والتغلغل الى اعماق ليست فى متناول الانسان ، فيخيل اليه انه يسمع ضوء القمر يغرد على الجليد فيكرر نغما خفيفا رنانا مستديما بشكل حلقات بطيئة . ويركز انتباهه فيرى مجرى النهر الجبار يخترقه من الاعلى لمع جليدى اخضر مكتوم ، او يرى اشارة ما على الماء فيتابع سيرها وتحركها فيلمح النقطة التى تصل اليها فى اللحظة التالية . كان فى ساعات الليل تلك يعيش بالحدس وحده ولا يفكر بشىء . ويقوده حدسه هذا عند انبلاج الفجر الى الكوخ ويلقى به فى يم الكرى .

تعود استكمال نومه نهارا ، حيث يرقد فى مكان ما من الغابة تحت اشعة الشمس ويتطلع الى السماء بضع دقائق ، وسرعان ما

يتعب من خوائها النورانى اللانهائى فيغط فى النوم . وفيما بعد يستيقظ جائعا مرتجفا فيتلفت الى ما حواليه متذمرا : الى اين الآن ؟ هذا السؤال يواجهه طوال الوقت ، وفى اغلب الاحيان يعجز غوسكوف عن الاجابة عليه فيسير على غير هدى ، لمجرد السير لا اكثر .

كان يمشى ويتشمم ويتفحص ما حواليه ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، ويشرع احيانا بملاحقة شخص وهمى ، ويتصور ، من اجل تسلية متبطرة لا معنى لها اطلاقا ولا تبلغ حتى مستوى تسلية الصبيان ، بانه يلاحق ذلك الشخص حتى يكاد يمسك به ، او ، على العكس ، يهرب منه فيخطو بحذر ويتحاشى الاماكن المكشوفة ويختبىء فى اجمة التنوب . وبعد ان يمل من التسلية يضحك على نفسه ، فيقهقه بصوت عال حاقد وبصراحة منذرة متوعدة . وفى هذه اللحظات تتبلد ذاكرته فيرفض التصديق بانه قاتل فى الجبهة وعاش بين الناس ، ويعتقد انه كان دوما وحيدا مثلما هو الآن يتسكع دونما عمل ودونما واجب ، وان هذا المصير بالذات قد اعد له منذ البداية .

انه جائع دوما ، فيتصور كل ما حواليه جائعا نهما مثله . حتى الهواء يؤذيه ، ذلك الهواء المصاص الواخز ، فهو كثير جدا على الانسان الوحيد . غوسكوف يشرق ويختنق به ، شاعرا بان التنفس الملحاح المفرط يستنزف آخر قواه .

فى اليوم الاخير من نيسان استعد لجولة فى اعالى النهر حيث يمكنه الرمى بالبندقية . استعد لتلك الجولة كما ينبغى : فبالاضافة الى البندقية اخذ الفأس ، وكذلك الكيس احتياطا ، وكلاهما نافعان فى المبيت . النهار وحده لا يكفى لمثل هذه الجولة فى تقديراته . فقد رغب فى التحويم حول اماكن السكن والتطلع الى البشر . واقرب قرية اليه تبعد بما لا يقل عن ثلاثين كيلومترا . لم يكن يعرف على وجه التحديد هل سيذهب اليها ام لا ، ولكن الرغبة فى الذهاب موجودة ، وقد حل اجل مقلق يدفعه الى تذكير نفسه بوجود البشر والى اقلاقهم بوجوده هو ان امكن . ربما لم يكن راغبا فى اقلاقهم ، ربما اراد مجرد التطلع اليهم عن كثب وسماع اصواتهم البشرية وفهم ما يتحدثون عنه وما يعايشونه ، وملء الفراغ اللجوج المتشدد فى

دخيلته ، ثم العودة الى ماواه . لم يجرؤ على الذهاب الى قرية ريبنايا حيث يحتمل ان يراه احد ويتعرف عليه . وافضل ما يصلح لهذا الغرض قرية لا تعرفه ولا يعرفها . فالحذر يغلب القدر كما يقال .

خرج مع انبلاج الفجر . وقبيل الظهر بلغ الشاطىء المقابل للجزيرة الصخرية التى اصطاد فيها المعز شتاءا . برزت الجزيرة عارية خرقاء الآن وسط الجليد المزرق الذى نخرته اشعة الشمس من فوق والمياه من تحت . بيد ان غوسكوف رغب فى الذهاب اليها دون ابطاء ، رغب فى ذلك من اجل المغارة التى بات فيها اثناء الصيد وحالفه الحظ بفضلها . فلو لم يبق فيها آنذاك لما كان معروفا ما اذا كان سيحالفه الحظ ام لا . استهوته تلك المغارة بتسلط باطنى خاص ، تسلط محظور ومحبب اليه ، استهوته كذلك لاجل سر يمكن ان ينكشف او يخبأ هناك . لا يزال غوسكوف يعتقد بان المغارة لم تعترض طريقه صدفة ، فالقدر هو الذى جعله يعثر عليها . وفى الاونة الاخيرة صارت تستهويه على العموم الاماكن الخالية المنزوية التى يصادفها فى الغابات حتى اصغرها واقلها منفعة . فيتوقف فجاة امام جحور الفئران وينبشها بعصا وكانما يفكر فى امكانية الاستفادة منها ، ويهبط فى الحفر الصغيرة ويجلس هناك ليتاكد مما اذا كان بالامكان الاختباء فيها ، ويقف طويلا قرب الحفر العميقة الكبيرة التى لا يزال الجليد يسبح فى مائها ويعجب بالانحدار الشديد لجوانبها ويحاول ذهنيا قياس اعماقها ، ويتطلع الى ما تحت جذور الاشجار الضخمة الساقطة المقلوبة ويحلم بالعثور تحتها على وجار دببة فارغ ، ويحب السير فى المنخفضات ، واثناء مشيه بخطى هادئة يقفز فجاة ويختبىء وراء شجرة ويتطلع الى ما حواليه ويدس بدنه وسط اجمة متشابكة منزوية وكانه يخبىء نفسه جزءا جزءا ، قطعة هنا وقطعة هناك ، على امل التلاشى كما فى طاقية الاخفاء . ولا بد للمخبأ الحجرى فى الجزيرة الخالية المهجورة من ان يعجبه . ففيه يتجمع بشكل موفق للغاية كل ما يبحث عنه حبة حبة .

الشاطىء المقابل للجزيرة واسع مكشوف ، وقد جف الماء الذى خلفه عليه ذوبان الثلوج . وبزغت الاعشاب الجديدة عليه

كصبغة خضراء فاتحة شفافة تنبع من الارض . وخيم على النهر دوى متثاقل مكبوت ينبعث من تململ الجليد . وفى القريب العاجل ، بعد ايام قلائل ، سيتحرك الجليد محطما القيود وسيندفع الى الاسفل مع التيار . فكل شىء حواليه يدل على اقتراب تلك اللحظة الرنانة . وكل شىء حواليه ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر ، حتى يخيل للمرء انه حالما يتحطم جليد نهر انغارا يحل الصيف دون تاخير ، ويمتلىء فورا ، دفعة واحدة ، بالاخضرار والازدهار والحر ، وينطلق مندفعا دون تلفت الى الوراء . وفى الحال يجىء مصير جديد آخر ، مصير مشبع بالانعطاف الحاسم . وفجاة احس غوسكوف ايضا بنفاد الصبر : يجب القيام بشىء ، يجب الاسراع الى جهة ما ، يجب الانشغال بعمل ما . التهم طعامه على عجل واغترف ماء من فجوة مترجرجة وسط الجليد وغذ السير .

فى الطريق اصطاد زاغا واسف على البارود الذى انفقه عليه . لكن غوسكوف يعلم ان التعب سيأخذ منه مأخذه عند المساء ، وينبغى له ان يواصل السير غدا ، فلا بد ، اذن ، من تناول طعام دسم .

لم يحاول الاقتراب من القرية التى رآها عند انحناءة النهر والشمس مشرقة ، بل تجنبها واستدار باتجاه الجبل ، وحمل نفسه على الابتعاد عنها رغم التعب والارهاق . لم يعد يخاف الوحوش من زمان ، ولكنه غير راغب فى ترك آثاره للبشر . وفى الصباح التالى عندما توجه نحو المنازل ، قام بادىء ذى بدء بدورة كبيرة على السفح فاستدار حول القرية وهبط عليها من طرفها الشمالى .

ها هو من جديد يسمع صياح الديكة وذلك الدوى الخفيف المبهم والمرتعش المتواصل الذى يخيم على كل نزل بشرى . حتى الديكة هنا ، ويا للعجب ، تصيح على غير ما فى اتامانوفكا ، فهى هنا تغرد ولا تجار باعلى اصواتها كما فى مسقط راسه . ذلك هو تاثير اختلاف البقاع . ففى الغرب ، فى دروب الجبهة ، حيثما تسنى له سماع صياح الديكة كان يلاحظ كل مرة انها هناك اضعف من ديكة انغارا واكثر حرصا وتحفظا وربما اكثر تحايلا ، بيد انه

تأكد الآن من ان الديكة على نهر انغارا ايضا تتصايح باصوات متباينة .

هبط غوسكوف من السفح فراى عبر اشجار البتولا حظيرة سياجها العلوى متموج ومثقوب فى احد اركانه . ولعل النساء بنين هذا السياج ابان الحرب ، فالعيدان موزعة كيفما اتفق باوتاد وبدون اوتاد وقد دقت بمسامير او ربطت ربطا الى الاشجار ، فمالت وتدلت ولم يكن الوقت ، على ما يبدو ، يتسع لاصلاحها . وعندما ينتهى موسم البذار سيضطرون الى اصلاحها . مد غوسكوف عنقه وتطلع الى اليسار حيث ينتصب على مسافة كيلومتر منه او اكثر آخر منزل فى القرية . وراح يفكر بكيفية الاقتراب من القرية لكى يرى ما يجرى فيها . كان خائفا ، ولكنه يتحرق شوقا الى اختبار نفسه عبر المخاطر ، انه يريد اقتراف شىء ما ليرعب نفسه والآخرين . بدا الدم الفاسد المتجمع فى عروقه يتسخن شيئا فشيئا ، وتشابكت فى صدره رغبات متعارضة غير محددة . انه لا يفهم السبب الذى دعاه للمجىء الى هنا ، على مسافة ثلاثين كيلومترا . فهو لم يات لاجل الوقوف امام هذا السياج والعودة من حيث جاء . كلا ، يجب العثور على ما جعله يتحمل مشاق هذه الجولة المرهقة .

طقطق غصن على مسافة قريبة فارتعش غوسكوف ، ورأى وراء شجيرات البطمة فى الحظيرة ، رأى الآن فقط ، بقرة ضخمة رقطاء ببقع سوداء كبيرة على بياض او ، على العكس ، ببقع بيضاء على سواد . ولم يلاحظها سابقا لانها رقطاء كاشجار البتولا المنتصبة امامه . وعلى مقربة من البقرة عجل حولى ابلق مثل امه وله من العمر ثلاثة او اربعة شهور . وعلى منبت القرنين فى راسه نتوءان قصيران . فرح غوسكوف لعثوره على ما يشغل به نفسه وراح يراقبهما . كانت البقرة تبحث عن شىء ما فى الارض مع ان قضم العشب الذى لم يبزغ فى الواقع انما يضاهى احتساء قطر الندى . ولعل العجل ادرك هذه الحقيقة افضل من امه فحاول ان يغرز بوزه فى ضرعها الا انها مانعت ورفسته برفق وابتعدت عنه . واجرى العجل محاولة اخرى ، وعند ذاك استدارت نحوه وابعدته بنطحة خفيفة من جبهتها المستوية الملساء .

تابعهما غوسكوف بنفس الاهتمام المتمعن الخاص الذى ابداه

بالمهر الحولى فى باحة الاسطبل قبل شهر عندما ذهب لرؤية ابيه . غدا هذا الاهتمام اكثر حدة وتركزا ، ويبدو ان ذلك ليس عبثا ، فقد شعر بانه لن تتهيا له الفرصة فى المستقبل ابدا كى يتعامل مع ماشية اليفة نافعة للانسان ، فصار ، بعد ان افترق عنها من زمان ، يميل اليها بشدة تتزايد بقدر ما يتعين عليه ان يبتعد عنها . هذه الخسارة ليست الافدح بالمقارنة مع خسائره الاخرى ، الا انها مؤلمة غامضة . فهناك شىء ما فى نفسه لم يسمح له بالسكوت عليها والرضوخ لها .

بديهى ان البقرة تمكنت بالصدفة من اصطحاب رضيعها من الحوش . فما من ربة بيت تسمح للرضيع بالتجول فى مثل هذا الوقت . ومهما مانعت البقرة فستعود اليوم الى المنزل بدون لبن . ابتسم غوسكوف راضيا ، فقد خيل اليه انه هو الذى دبر هروب العجل . ولو لم يات هو الى هنا لكان من المحتمل تماما ان يظل العجل فى البيت . ولكن طالما خرجت من البيت يا عجل فلا تتراجع : اغرز بوزك وارضع ومص اللبن حتى آخر قطرة ، فسيكون لصاحبتك ما تتحدث عنه فى المساء .

بيد ان الوقت حان للتوجه بهدوء الى القرية ، حيث ينتظره العمل الذى جاء من اجله ولا يعرف ماهيته بعد . لعل من الحكمة الانتظار حتى يتصرم النهار وبعد ذلك فقط يمكنه ان يذهب الى هناك حيث لم يدعه احد ولا ينتظره احد . الا ان غوسكوف لا يريد الانتظار ، لا تزال اللجاجة تلسعه وتدفعه الى الامام ، فقد اشتدت وغدت اكثر غيظا وشراسة . غوسكوف يعرف انه لن يجازف عبثا ولن يرتكب آخر الحماقات ، وهو يأمل بان الوقت سيتسع له كى يختفى مهما حدث . فهو ليس سهل المنال ولن يستسلم دون مقاومة .

سار بحذر على امتداد السياج وتوقف مرارا وهو يتطلع الى ما حواليه . وسرعان ما تكشف طرف القرية امام انظاره ، وحالما رآه سمع اصوات الاكورديون . تذكر غوسكوف مندهشا ان اليوم ليس يوما عاديا ، فهو عيد اول آيار . ما اعجب هؤلاء الناس . انهم يحتفلون بالعيد ويمرحون وكأن رحى الحرب لا تدور . علقوا علما احمر واخرجوا الاكورديون من حافظته ، وفى المساء سيتنقلون من

منزل لآخر منشدين راقصين منطلقى الاسارير . كلا ، يبدو ان هؤلاء الناس لن يطاطئوا الرؤوس لاية مصيبة . انهم يمرحون الآن فى اتامانوفكا ايضا . لم يتعرض غوسكوف لليأس والقنوط ، ولم يشعر بالغيظ ، فما نفع الغيظ الآن ؟ لقد انتابته دهشة مرتابة : انهم يحتفلون بالعيد ، كما كانوا يحتفلون به قبل الحرب ، وكانها لم تنشب وليست قائمة . ولا يهمهم اطلاقا انه هو ، غوسكوف ، يتسكع قريبا منهم ، فهو غير موجود بالنسبة لهم .

وفهم غوسكوف الآن كيف تمكن العجل من مغادرة الحوش حرا طليقا . فالناس فى عيد اليوم ، وهم يمرحون ولا يعبأون بالمشاغل الصغيرة . التفت غوسكوف الى الوراء فراى البقرة تتقدم ببطء نحو غابة البتولا ولم تعد بعيدة عن المكان الذى تركه لتوه . واصل سيره ، ثم التفت من جديد وهو يتطلع بانتباه الى العجل وقد راودته فجاة فكرة قاسية . رفس العجل شيئا غير منظور بقائمتيه الخلفيتين وكان احدا لدغه او وخزه ، وقفز الى جانب ثم هدأ وراح يهز ذيله بتكاسل . والقى غوسكوف نظرة على القرية – كان الدرب منها الى الحظيرة خاليا – فعاد ادراجه بعزم وتصميم .

ارتفعت الشمس عاليا ، وتعلق فى الهواء الحار الصافى رنين خفيف نشيط نشأ بفعل الاشعة وملأ السكون . وحالما اختفت القرية عن الانظار خفت الاكورديون واختلطت جميع الاصوات فى مجرى واحد ، رحب عريض ولانهائى . حاول غوسكوف ان يوقف نزوته فتوقف لحظة قرب السياج الواطىء الذى صمم على اجتيازه واصاخ السمع من جديد وتطلع الى ما حواليه الا انه قفز عبر السياج على عجل خوفا من التراجع عما عزم عليه . التقط غصنا فى الطريق وهبط على البقرة من المؤخرة . عندما شعرت البقرة بوجود انسان ادارت راسها صوبه وحملقت فيه بعينين واسعتين بليليتين وبريئتين الى درجة جعلت عينى غوسكوف تدمعان . هش البقرة بالغصن موجها اياها نحو الحبل عبر ثغرة فى السياج ، فسارت طائعة . والتصق العجل بأمه . بيد ان البقرة توجهت يسارا الى القرية حالما خرجت من الحظيرة . ومن حسن الحظ ان اشجار البتولا هناك اعاقتها عن الهرب فتمكن غوسكوف من اعادتها . فاحرنت

وصدر عنها خوار عال مسعور استجاب له العجل بخوار قصير . فاضطرب غوسكوف واستعجل اكثر .

وجههما نحو الجدول الذى سار على امتداده هابطا فى الصباح ، وهو يعلم بانه لن يصادف اليوم احدا هناك ، فى تلك البقعة الخالية . غير ان البقرة لم تكن راغبة فى الذهاب الى تلك الجهة بالذات ، فراحت تميل ذات اليمين وذات الشمال كى تتملص من الانسان وتعود ادراجها . اما العجل الذى احس بالنوايا السيئة فلم يعد يتخلف عن امه . تثاقلت انفاس البقرة ، وانتفخ جنباها وسال اللعاب من خطمها . وراح غوسكوف يلهث هو الآخر . واثقلت البندقية على ظهره فخلعها واخذها بيده . وانقضى زهاء نصف ساعة فى الغابة ، بينما لا يزال الجدول بعيدا .

كان الانسان والبقرة يتوقفان بعد كل محاولة لخدع بعضهما البعض فيتبادلان نظرات حاقدة . وكانت البقرة تخور متألمة وقد نبعت قطرات من العرق وسالت على بقعها البيضاء .

وبعد ان اخذ الاعياء من غوسكوف ماخذه فكر فى العمل على نحو آخر . خلع حزامه وترك البقرة وشانها وراح يتعقب العجل خلسة . من الافضل ، طبعا ، القيام بذلك بعيدا عن القرية ولكن ليس فى الامر حيلة . ثم ان العجل هو الآخر لا يريد ان يستسلم . ففى آخر لحظة كان يحرن ويتملص . وكان غوسكوف يركض وراءه قافزا كى يدس راس العجل فى انشوطة الحزام ولكنه يخفق فى ذلك . اشتاط الانسان غضبا واهتاج فصار مستعدا لان يضغط على الزناد كى ينهى دفعة واحدة هذا القنص الاحمق الذى طال امده دون جدوى . الا ان الخوف من الافتضاح حال دون اطلاق النار .

ومع ذلك حالفه الحظ : فقد تمكن اخيرا من محاصرة العجل فى اجمة كثيفة . حاول العجل ان يتخلص من الشجيرات المتشابكة وعند ذاك استطاع غوسكوف ان يلبس الانشوطة على رقبته . هوى العجل وجثا على ركبتيه ثم نهض وتقافز وترافس فى محاولة للتملص ، الا ان الانسان يعرف كيف يتحكم بالماشية فى مثل هذه الاحوال . فقد امسك بذيله بيده الاخرى واداره وسحبه من بين الشجيرات . انتحب العجل من الغيظ والرعب ، فسحبه الانسان راكضا الى الجدول قبل ان يتمكن من الانتباه على نفسه . وتبعتهما البقرة تخور

راكضة . وصدر عن العجل خوار حزين ، وانبعثت من حنجرته المخنوقة اصوات مبحوحة مكتومة شبيهة بالمواء .

توقف غوسكوف قرب الجدول ليلتقط انفاسه ، فلم يعد قادرا على التحمل . ربط العجل الى شجرة وحاول طرد البقرة ، ولكنها لا تريد ان تنصرف . فهى تهرب قليلا ثم تتوقف ، وحالما يبتعد غوسكوف تهرع من جديد الى العجل فتتشممه وتلمسه وتدفعه براسها وكانها تقنعه بان يقطع رباطه ويهرب ما دام فى الوقت متسع . وبتاثير ملاطفة الام الملحة الخائفة اخذ العجل يئن مترنحا . لقد خارت قواه وضعف بدنه – خارت ذاكرته وضعف فهمه وحدسه ، خار كل شىء فيه .

التقط غوسكوف انفاسه فاخذ مقود العجل وسحبه من جديد . وصمم على عبور الجدول مؤملا بان الجليد سيمنع البقرة من العبور . ولكنه لم يمنعها . فقد تبعتهما دون تردد وداست على الجليد وانفرجت قوائمها ، فهوت بصورة خرقاء بقائمتيها الاماميتين المنفرجتين الى الجانبين وبذلت جهودا يائسة لكى تنهض ولكنها لم تتمكن فزحفت على ركبتيها ، والاصح انها تزحلقت على الجليد نحو الضفة الاخرى . هددها غوسكوف باخمص البندقية ليمنعها من العبور ولكنها قفزت قفزة مستميتة الى الامام فبلغت الضفة .

ابتعدوا عن القرية لا اقل من ثلاثة كيلومترات . وتحوطا لاسوا الاحتمالات سحب غوسكوف العجل مسافة اخرى الى سفح الجبل واختار مكانا جافا ومنزويا فربط العجل الى شجرة من جديد . وقفت البقرة وراحت تراقب عن كثب كل حركة يقوم بها الانسان . احتدم غضب حانق مفاجىء فى صدره فامتشق الفاس من زناره وهجم بها على البقرة . فولت الادبار بصخب وهى تجرجر قوائمها المتشابكة المتعثرة المتالمة وتحطم الاغصان فى ركضها ، ولكنها توقفت حالما توقف . لم يكن هناك اى مجال او حيلة للتخلص منها . عاد الانسان ادراجه فراى العجل رابضا . خارت قواه فلم تعد قوائمه قادرة على حمله . ادار العجل راسه مرتعبا نحو الانسان الذى اقترب منه وسدد اليه ، بسرعة وتصويب ، ضربة فورية من مؤخرة الفاس على جبهته الممدودة ، فانّ الراس وهوى وتدلى من سير الحزام . وفى تلك اللحظة ندت صرخة عن البقرة من خلفه . فجن غوسكوف وهجم

على البقرة ناويا قتلها هى ايضا ، ولكنه توقف عندما رآها واقفة لا تتزحزح من مكانها . فتكفيه اليوم جريمة قتل واحدة ، والا فسيغص وينفق .

طوال الفترة التى سلخ فيها العجل الذبيح كانت البقرة واقفة فى نفس المكان دون ان تحيد ببصرها عن الانسان ، فجعلته بدوره يتابعها بنظراته خائفا . كانت بين حين وآخر تخور بانين ضعيف . وشعر غوسكوف بالغثيان من رائحة اللحم الطازج الذى لم يفقد بعد نبض الحياة . اقتطع من لحم العجل الفخذين واضاف اليهما شريحة اخرى ودسها فى الكيس ، اما الباقى فخباه ، كما تفعل الدببة ، تحت الاوراق اليابسة ووضع فوقه اغصانا . وقبل ان ينصرف القى نظرة اخيرة على البقرة . طاطات راسها وتطلعت اليه بنفس النظرة الثاقبة الثابتة ، فراى فى عينيها تهديدا بالخطر . وهو خطر آخر غير منبعث من البقرة نفسها . انه الخطر الذى يمكن ان يحدث . واسرع غوسكوف منصرفا .

فى طريق العودة بات الليل فى غابات التايغا مقابل الجزيرة الصخرية . فهذا المكان لا يزال يستهوى غوسكوف بالحاح شديد غير مفهوم . ولكى يصل اليه فى المساء سار متثاقلا بآخر ما تبقى لديه من قوى . فى منتصف الليل استيقظ على دوى متقطع قادم من جهة انغارا . كان جليد النهر يتحطم . لم يدهش غوسكوف لذلك ولم يفرح . فما فى الكيس ارهق كل احاسيسه وجرده منها على ما يبدو . فهو لا يعرف لحد الآن هل اجهز على العجل من اجل لحمه فقط ، ام ارضاءا لشىء استحوذ عليه منذ ذلك الحين بتسلط وصلافة .

وبعد اسبوع ، عندما انتقل غوسكوف الى الكوخ العلوى ، سمع ذات مرة فى وضح النهار اطلاق رصاص مشوشا متكررا من جهة اتامانوفكا . وادرك بان الحرب انتهت .

١٦

انتهت الحرب .

وصل من كاردا رسول على صهوة جواد وتلفظ هاتين

الكلمتين مناديا باعلى صوته ، فاجتاح اتامانوفكا الرعد الذى طال انتظاره . وهاجت القرية وماجت .

كان نسطور ، كما هى العادة ، اول من التقط البندقيـــة ، واستجاب له الآخرون فلعلع رصاص لم تسمع بمثله اتامانوفكا منذ ان وجدت . تعانقت النسوة صارخات مولولات عارضات على الملأ الفرحة والاسى والصبر المرهق الذى طفح فى الحـــال ، وتراكض الاطفال الى هنا وهناك منصعقين للنبأ الذى كان اكبر من قابليتهم على الاستيعاب واكبر من كل ما عانوه حتى الآن ، ذلك النبأ الذى لا يعرفون ماذا يفعلون به والى اين يحملونه . ثم ان الكبار تحيروا ايضا ، فالمشاعر الانسانية البسيطـــة التى تعودوا على الاكتفاء بها ليست كافية لهذه المناسبة . فالناس بعد ان ذرفوا الدموع وتعانقوا واهتزوا للنبأ فى اللحظات الاولى لم يتحملوا تلك الفرحة وراحـــوا يتنقلون من ركن لآخر بذهـــول وارتباك ، فيفترقون ويلتقون من جديد ويصيخون السمع لشىء ما ، ويتوقعون شيئا ما ، وينتظرون اوامر ما . جاء نسطور فامر بتعليق الاعلام . ومع ان نسطور لم يعد يتمتع باية سلطة بعد ان سلم مقاليد رئاسة التعاونية قبل شهر الى مكسيم فولوغجين ، الا ان الناس انصاعوا لامره وراحوا يبحثون عن كل قماش احمر اللون . عثر بعضهم عليه ولم يعثر البعض الآخر ، بيد ان القرية تزينت ، على قدر المستطاع ، بافضل ما لديها . استخرج الناس اجمل الحلل التى حفظوها طوال سنين وارتدوها ، وراح الاطفال هنا وهناك يرفعون على البوابات وعلى سطوح المنازل اعلاما اعدت كيفما اتفق . وشدت اغافيا سوموفا قميص ابنها الاحمر الى رمح طويل بعد ان تيتم منذ الخريف المنصرم ولكنه ظل محتفظا بلونه . اسرع اليها نسطور على حصانه وصاح بها كى تنزل هذا «العلم» ، الا ان اغافيا ما كانت لتفكر بالانصياع لاوامره ، ولزمت نوبـــة حراسة عند البوابة كيلا ينزل احد «علمها» .

وحتى النهار الذى بدا كالحا منذ الصباح ابتهج وانشرح . فقد تبددت الغيوم فى السماء وتنشطت الشمس وتسخنت ساكبة ضوءا مرحا فرحا على كل ما تحتها .

عندما لعلع الرصاص فى القريـــة كانت ناستيونا تعمل مع

فاسيليسا الحكيمة فى حراثة حقل الحمص على اقرب هضبـــة منبسطة ، حيث تسير احداهما وراء الاخرى فى شـــوط واحد . ادركت فاسيليسا الحكيمة قبل ناستيونا حقيقـــة الامر فاسرعت لفك اعنة الخيل . وحذت ناستيونا حذوها فى الحال . وصلتا الى اتامانوفكا فى معمعان الاحداث حيث كانت القرية تمور وتضطرب . اطلقت ناستيونا سراح الخيل عند البوابـــة وهرعت الى المنزل منفعلة لاهثة فاثارت قلق العجوزين : نهضت سيميونوفنا من على المصطبة مرتعبة لملاقاتها ، واستدار ميخيتش بشدة من النافذة . فقد كانا منفعلين للنبأ السعيد وكانا ينتظران نبأ آخر . وفى الحال انتبهت ناستيونا على نفسها عند العتبـــة : فالى اين هى مسرعة ؟ وماذا تريد ان تقول لهما ؟

– سمعنا لعلعة الرصاص . . . – اخذت توضح ما لا يحتاج الى توضيح . واضافت بلهجة عشوائية ممططـــة وكان احدا قد قاطعها : – . . . وفهمنا .

– يا الهى ! – ابتهلت سيميونوفنا ورسمت شارة الصليب على صدرها امام الايقونـــة – أحقا انتهت الحرب ؟ لا بد وان يخبرونا الآن اين ابننا اندرى ؟

– لا بد ، يا عجوز ، لا بد . – قال ميخيتش والقى بنظرة حذرة على ناستيونا .

– شوف يشرّحون الجميع ويرشلونهم الى اهلهم . . . الى امهاتهم وزوجاتهم . . .

– لا يمكن ان يسرحوا الجميع على الفور .

– لماذا ؟

– الله يعلم ماذا يمكن ان يحدث . فلا يجوز البقاء بدون قوات مسلحة .

لزمت سيميونوفنا الصمت ثم تذكرت قائلة :

– فى الحرب الفائتة لم يعلنوا الشلام كما اعلنوه الآن . ولم يكن احد يعرف انتهت الحرب ام لا . . . طردوا الالمان ثم تحاربوا فيما بينهم وتقاتلوا بشدة اكبر . ويمكن القول انه ما كان هناك شلام اطلاقا . حاربوا من اجل الكومونات وحاربوا من اجل التعاونيات . ولم نعرف الهدوء ولا يوما واحدا .

انزوت ناستيونا فى غرفتها الجانبية واستبدلت ملابسها . كان فؤادها الذى تطاير فرحا وهى فى الحقل لا يزال غارقا فى تلك الفرحة راغبا فى الخروج الى الناس ، ولكن شيئا ما فى داخلها منعها من ذلك ، وراح يكرر قائلا ان هذا اليوم ليس يومها وان النصر ليس نصرها وانها لا تمت له باية صلة . ان لاى انسان مهما كان صلة بالنصر ، اما هى فلا . لا تدرى ناستيونا الى اين تولى ، فاضطجعت على حافة السرير وتلمست بطنها كعادتها ، ولكن بذهول وحيرة وبدون اى احساس ، فقد لمست يداها ذلك المكان وهداتا لا اكثر . وتهادت صيحات من الشارع ، ومرق احدهم وهو يستحث جواده ، وانشد رجل غريب مقطعا من اغنية :

على الحصان الحديدى
نجوب كل الحقول
نحرث ونزرع ونجمع المحصول

هرعت ناستيونا الى النافذة : هل من المعقول ان احدا تمكن ان يصل من الجبهة اليوم ؟ سار على قارعة الطريق رجل نحيف فارع القامة لا تعرفه ناستيونا . سار وسط حشد من الاطفال بقدمين عاثرتين وصدرى مفتوح وراس مكشوف . وسمعت ناستيونا ميخيتش فى غرفة الاستقبال يوضح لسيميونوفنا قائلا :

– انه من كاردا . . . ذاك الذى جاء بالنبا . لقد سقوه خمرا بالمناسبة السعيدة ، فلم يرفض . . . وهل يمكن الرفض فى هذه المناسبة . . .

– ايها . . . النا . . . س ! – جار الرجل فجاة وتوقف ناشرا يديه الى الجانبين كى يحافظ على توازنه – اشتركوا جميعا فى المظا . . هرة ! الموت لهتلر ! – واعقب ذلك بشتمة بذيئة جاءت سجعا مع العبارة الاخيرة ، وهز راسه هزة شديدة وكانه يتخلص من صيحته ، ثم تمايل وواصل الانشاد :

خطانا سديدة
ولن نسمح للاعداء

ان يدوسوا اراضينا

كان هذا الصياح وتلك الاغنية التى جاءت بالصدفة ، متاخرة بالنسبة لهذا اليوم ، ليوم النصر ، قد وخزا بمزيد من الشدة قلب ناستيونا المنفعل المتالم الذى راح يخفق بشكل متقطع ويتقافز ويبحث عن شىء ما . خرجت ناستيونا الى الحوش وتطلعت عبر السياج فشاهدت حركة فى الطرف العلوى للشارع ، ولكنها لم تكن راغبة فى معرفة السائرين فلم تمعن النظر وعادت ادراجها الى المنزل . تذكرت اندرى عرضا ، ولكنها تذكرته بغضب غير متوقع : فبسببه ، بسببه لا يحق لها ان تتمتع كالآخرين بفرحة النصر . ثم فكرت ناستيونا بان حاله ستكون اسوا بكثير عندما يسمع بان الحرب انتهت ، وسيتالم لنفسه ، ثم عادت الى رشدها فرق قلبها فى الحال ، ومع ذلك اسفت له بشعور ممض غاضب ، واحست ، فجاة ، برغبة فى الذهاب اليه كى تكون معه اليوم . ويجدر بهما اليوم بالذات ان يكونا معا . وافق شن طبقة . بعيدا عن سائر الناس ، بعيدا عن العيد الذى يخص الجميع ولا يخصهما هما . «لماذا لا يخصنى انا ؟ – رفضت بغيظ مدافعة عن نفسها لتعيدها الى حظيرة البشر – الم اعمل طوال الحرب ؟ الم اجد واجتهد ؟ الم ابذل جهودى كالآخرين كى يحل هذا اليوم ؟ سانهض واذهب اليهم . سأذهب اليهم فى الحال» – راحت تستحث نفسها دون ان تتزحزح من مكانها وكانها تنتظر دفعة حازمة ترفعها وتوجهها نحو الناس .

وجاءت تلك الدفعة فعلا . فقد سمعت وقع سنابك ثم صوت شخص يوقف حصانه قرب النافذة . انه نسطور الفوار الذى لا يقر له قرار . مال من على السرج وطرق زجاج النافذة بشدة وصاح بلهجة خشنة :

– ايه ، يا اموات ويا احياء ! اذهبوا لحضور الاجتماع فى المكتبة ! اذهبوا لحضور الاجتماع الاحتفالى الحاشد ! يا ميخيتش ، اين انت ؟ هيا يا ناستيونا !

– ماذا ؟ – نهض ميخيتش واقترب من النافذة ببطء – لماذا تجار وتصيح ؟

– اذهبوا لحضور الاجتماع الاحتفالى الحاشد . بمناسبة عيد النصر . امر عاجل . وخذوا معكم الى مبنى المكتبة كل ما لديكم . فالجميع يشاركون فى اعداد الوليمة . خذ عرق الطرسون معك يا ميخيتش ولا تبخل به . اقول خذ العرق معك ، مفهوم ؟

– مفهوم ، مفهوم – دمدم ميخيتش – انت لا تهتم بغير العرق .

بيد ان نسطور لم يسمعه ، فقد لكز حصانه وانطلق بلمح البصر .

هزت سيميونوفنا راسها خائفة وقالت بلهجتها الشينية :

– انه وحش كاشر . كل ابناء آل اغابوف يحبون الضجيج والشياح ، ولكن هذا يشيح ويشرخ اكثر الكل .

وقال ميخيتش مخاطبا ناستيونا وانزلقت ابتسامة حزينة متاملة على شاربيه المتهدلين :

– اذهبى يا ناستيونا . – ثم فكر قليلا وكرر بمزيد من الحزم : – اذهبى ، وساتى انا ايضا فيما بعد . فالبقاء فى البيت اليوم حرام . اما العرق فهو موجود . احضريه ، انه وراء الخشبة على اليمين فى السرداب . احضريه ، فليشربوا ويحتفلوا ، واحتفلى انت ايضا . اذهبى .

فتدخلت سيميونوفنا قائلة :

– تريد ان تعطيهم الشراب ، وماذا ستفعل عندما ياتى اندرى ؟

– عندما ياتى اندرى سنجد شرابا . من يدرى متى سياتى ؟ اما عيد هذا اليوم فلن يتكرر . انزلى يا ناستيونا الى السرداب واحضرى الشراب .

انه عرق منزلى عادى اعد من الحبوب الوافرة قبل الحرب ، ولكنه يسمى منذ القدم بكلمة «طرسون» المقتبسة من اللغة البورياتية . ناستيونا تعرف بمكانه . ففى اواخر الشتاء شاهدت ، وهى تجرف البطاطس ، سدادة بارزة من الارض كالفتيل وتحسست تحتها خابية مخبأة ليس عنها ، ليس عن ناستيونا ، وليس عن اى شخص آخر ، بل خباوها لمجرد ان لا تلحظها الانظار لحين من الزمن ولا تثير شجن النفوس عبثا . وفيما بعد صبت ناستيونا

عرقا من الخابية فى قنينة صغيرة ودستها فى كيس اندرى . فهى يمكن ان ترفه عن الرجل بعض الوقت وتعينه فى محنته وتحجب عن عينيه ما يعانيه . فما الذى يسليه ؟ والى اين يولى هربا من الكآبة والمصيبة ؟ انه وحيد دوما . وحيد طوال الاسابيع والشهور . اما هى فستذهب الآن للاختلاط بالناس . افلا تستحق ذلك ؟ لا بد وانها تستحقه !

اصرت سيميونوفنا على رأيها . فصبوا كمية من العرق من الخابية التى لم تكن مليئة اصلا فى علبة خباوها فى الحال ، وصبت ناستيونا الباقى فى صفيحة اللبن كيلا تخدع الناس بمظهر الخابية الكبيرة . حملت الصفيحة وخرجت من البوابة فتوقفت لتشد حيلها وتطلعت بحذر الى جانبى الطريق على التوالى كما تفعل العجائز .

لم يكن الشارع قد شهد مثل هذا الهرج والمرج من زمان . تقع المكتبة وسط القرية على بعد ثلاثة احواش عن منزل غوسكوف . ومن هناك تهادت اصوات منفعلة عالية ، ووصلت رائحة الدخان . واستجابة لاضطراب البشر هاجت الكلاب وماجت نابحة ، وتصايحت الديكة مطبطبة باجنحتها ، وقوقات الدجاجات وزعقت الخنانيص واصطفقت الابواب وصرت خوخات الاسيجة ، والى جانب هذا وذاك راح الاطفال يتراكضون اسرابا اسرابا . ورفرف ، فوق هذا الصخب واللغط والضجيج صوت عذب متميز آخر ، يرن ويتداخل ببهجة وصفاء كصفاء الزجاج . وهو صوت تعرفه ناستيونا جيدا ، ولكنه منسى او ضائع . رفعت راسها باحثة عن مصدره ، فرات على سطح السقيفة القريبة ثلاث سنونوات جاثمات فى صف واحد ، منهمكات فى التغريد وفى نش انشودة رقيقة . عاد السنونو اذن . عاد فى الوقت المناسب : اليوم بالذات ، لا قبله ولا بعده . عاد السنونو اللطيف لقضاء الصيف فى الاراضى التى احبها ولبناء الاعشاش ووضع البيض والتفريخ . وها هى حياة السلام تعود الى ارضها بعد ان اقتلعوها منها كما تقتلع العشبة . عادت مرهقة معذبة مشوهة ، ولكنها ، على ما يبدو ، حياة سلام حقا . شىء لا يصدق : فقد نسيها الناس ، واكتنفتهم المصائب والرعب . السنونوات تغرد وتمجد واعدة شاكرة ، وترتل آياتها البلورية

الرقيقة ، وربما لا تعلم بان الحرب وضعت اوزارها . من يدرى ؟ لعلها تعلم بهذا النبأ العظيم ، ولعلها عادت مسرعة عمدا لكى يسمع الناس تغريدها فيرفعوا رؤوسهم ويدركوا بان نهاية الآلام قد حلت اليوم .

منذ تلك اللحظة رقص فؤاد ناستيونا فاجتاحها ضعف سعيد احمق ، ودهشة حساسة راضية بكل ما تراه ، بتلك السنونوات ، والاكثر من ذلك استولت عليها رغبة بان تبين انها ليست اسوا من الآخرين وانها لا تخشى احدا على الاطلاق .

امام المكتبة ينتصب منزل اينوكينتى ايفانوفيتش الكبير عاليا بشوشا بسطحه المنحدر . ويعيش فى نصفه العجوزان اينوكينتى ايفانوفيتش ودومنا ، والنصف الآخر المخصص لابنهما المتبنى فاسكا (فهما لم ينجبا اولادا) لا يزال فارغا منذ ربيعين ، بعد ان جند فاسكا حينما كبر وارسلوه الى الجبهة . ظل هذا النصف فارغا ولكن دون ان يفقد معالم الحياة . فهو مؤثث دافئ ، وعلى رف احدى النوافذ مزهريات ، وعلى جانبى كل منها ستائر . وليس بالامكان ان يعرف المرء على وجه التحديد اى نصف من المنزل اختاره العجوزان الآن . فالناس نادرا ما يزورانهما ، ولا يبدى اينوكينتى ايفانوفيتش ترحابا بالضيوف مع انه يعيش فى بحبوحة ولديه القدر الكافى من الطعام والشراب واللباس . كان يعيش دوما فى بحبوحة ونعمة سابغة ، فقد ولد لمثل هذه العيشة بالذات ، ولا تناسبه اية عيشة اخرى ، كما لا تناسب البسة الصبى رجلا كبيرا فارع القامة .

عندما مرت ناستيونا بالمنزل صر مزلاج البوابة فانفتحت وظهر اينوكينتى ايفانوفيتش انيقا متصابيا فى سترة عسكرية زرقاء داكنة مشدودة بازرار معدنية لماعة ، تلوح من تحتها على الرقبة نقوش ياقة القميص الجانبية ، وفى بنطال جديد بنفس اللون وقد دس اذياله فى جزمة جلدية ليست جديدة ولكنها جيدة مطلية بطبقة كثيفة من دهان ذى رائحة مقبولة . فرحت ناستيونا بمجئ اينوكينتى ايفانوفيتش فرحها بقريب لها ، وخطت بضع خطوات لملاقاته باسمة معجبة بمظهره المتسم بالبسالة ، وقالت بصوت عال :

– طال انتظار النصر ، يا اينوكينتى ايفانوفيتش !

– طال فتحقق – اجاب برزانة وسألها : – الا توجد اخبار من زوجك ؟

– كلا – اجابت بضحكة قصيرة وتطلعت بشجاعة الى عينيه – كلا ، لا كلمة ولا حتى نصف كلمة .

ثم فكرت قليلا واضافت :

– الا تعرف انت اين هو ؟ خبرنى .

ارتعد اينوكينتى ايفانوفيتش وقال مندهشا :

– من اين لى ان اعرف ؟ انك تهذرين يا امراة .

– اذا كنت تعرف فقل لى ولا تخف علي . – اضافت بنفس الضحكة القصيرة المرتابة – اما انا فساخبرك . ساخبرك من كل بد ، يا اينوكينتى ايفانوفيتش .

انيرت الاضواء فى باحة المكتبة ، والطعام يغلى فى قزانين . فقد سمح مكسيم فولوغجين ، الرئيس الجديد للتعاونية ، بنحر خروف من خرافها بمناسبة عيد النصر . وجلست نسوة على جذوع الاشجار وانهمكن فى تقشير البطاطس . احتشد الناس فلم يبق محط رجل . فقد اجتمعت القرية كلها . فى المبنى نصبوا الطاولات فى صف واحد وغطوها كل بما جاء به . وتجمع الكثير من القليل الذى احضره كل منهم : كرنب وخيار فى آنية عميقة ، وجبن ولبن رائب فى قلل وسمك طازج وفجل مفروم ومخبوزات وبيض ونصف كعكة بثمار البطمة – لم يبخلوا بشىء ، احضروا كل ما تبقى لديهم . بعثوا جماعة من صغار الاولاد الى الغابة لاحضار نسغ البتولا كى يشربوه اذا لم تكفهم كمية الشراب الموجودة ، وجلست جماعة اخرى من الاولاد الاكبر سنا على ضفة النهر تصطاد السمك . وكلما اصطادوا بنية او بوريا بل وحتى زميرا صغيرا نقلوه على الفور حيا ووضعوه على المائدة ، فيلبط عليها ويقفز تارة الى الصحون ويقع تارة اخرى على الارضية . النوافذ مفتوحة وعلى رف احداها راح الحاكى يصيح باعلى صوته ، ووقفت قربه ليدكا ابنة نادكا وهى تضغط بمفتاح تشغيل الحاكى الى صدرها . وانهمكت نادكا ايضا فى تقشير البطاطس . اقتربت منها ناستيونا وجلست امامها القرفصاء واوقفتها عن العمل وقالت بضحكة مخنوقة بالعبرات :

– طال انتظار النصر ، يا نادكا ، آ ؟

الا ان نادكا اشاحت ببصرها دون ان تجيب .

واقتربت ناستيونا من ليزا فولوغجينا وعانقتها .

– ماذا بك يا ناستيونا ؟ – دمدمت ليزا المشغولة قرب القزانين والتفتت الى ناستيونا بوجه هادئ محمر من النار – هل انت مسرورة ؟

– مسرورة .

– وهل تنتظرين اندرى ؟

– بالطبع .

قبلت ناستيونا مكسيم ولفت يديها حول عنقه على الملأ ، فصاح مرتبكا ومسرورا :

– هل من مزيد ؟ من يرغب فليتقدم ما دامت ليزا راضية .

– سأريك كم انا راضية . – قالت ليزا مازحة جادة فى وقت معا . – لن اسمح الا لناستيونا ، وحتى لها بالدين ، الى ان يصل اندرى ، ولن يسمح لغيرها .

راحت ناستيونا تحشر نفسها بين الناس وتهمس بصوت متزلف مرتعش ، وهى تبتسم ابتسامة غامضة كمن شعر بذنبه او تقهقه كانسان غير سوى ، وتقول بصيغة تتراوح بين الاستفهام والتذكير : «طال انتظار النصر ؟!» – ولم تستطع ان تقول اكثر من ذلك . بيد ان كل شىء فى هذا اليوم كان على ما يرام . فقد عانقت الآخرين وعانقوها ، وسالت دموعها وردوا عليها بدموعهم ، وحاولت ان تضحك فاستجابوا لها . لقد نسيت نفسها وغدت عرضة لمرض نفسانى نادر ، وخانتها مشاعرها المتعودة على الحياة البسيطة المفهومة والتى ارهقتها ونهشتها دوامة محمومة تحملها على البكاء والاسى تارة وعلى الضحك والفرح والاشراق تارة اخرى وعلى التجمد من الرعب والفظاعة تارة ثالثة ، – خانتها مشاعرها التى تحيرت وانسحقت نهائيا اليوم حتى توجهت منصاعة الى هناك بعد ان غدت فى الآونة الاخيرة ، عادة ، حذرة متحفظة تعرف كيف تجيب ولا توجه الاسئلة . وفيما بعد شعرت بالاحراج لانها لم تنتبه حتى الى لزوم مساعدة النسوة ، بل تناولت ما اعده الآخرون . كانت تتذكر انه خيل اليها ، لسبب ما ، ان هذا اليوم هو آخر

يوم يمكنها ان تجتمع فيه الى الناس ، وغدا ستبقى وحيدة ، وحيدة تماما ، فى فراغ مطبق لا امل فى الخلاص منه .

جلسوا حول المائدة . واحتل مكسيم فولوغجين مكان الصدارة عن جدارة واستحقاق كجندى عائد من الجبهة وكرئيس للتعاونية . وجلس الى يساره نسطور بالطبع ، والى يمينه رسول كاردا الذى يغلق عينيه بين الفينة والفينة ويخر رأسه على كتفه فيضعه فى مكانه كل مرة .

نهض مكسيم فرنت المداليات على صدره وبدأ كلامه بصوت رفيع تعثر داخله ، فخيم السكون على الحاضرين :

– ايها الناس ! لست خطيبا من الخطباء ، حبذا لو استمعنا الآن الى شخص آخر يجيد الكلام . ولكن ما يمكن ان نقوله ؟ ما الذى يمكن ان نقوله اذا كنا قد انتصرنا ؟ لم يبتدع احد بعد الكلمات التى يمكن ان تقال فى مثل هذه المناسبة . لقد صمدنا ، بذلنا قصارى جهدنا وصمدنا ثم زحفنا وقصمنا ظهر الوحش الكاسر ، ظهر هتلر اللعين . كنت انا هناك ، وانا اعرف فظاعة ما حدث . الفؤاد يغلى . . . – واستنشق مكسيم الهواء ملء صدره وزفره مرتعشا – كلكم تعلمون . جميع رفاقى من المحاربين الذين ظلوا على قيد الحياة يتوقون للعودة الى الديار كى يدفعوا عجلة حياتنا الى الامام . لقد تكبدنا خسائر جسيمة . ففى الاماكن التى اجتاحتها الحرب ارتفعت الارض كلها بسبب القبور . اتسعت الاراضى وتقلصت الايادى . واقول الحق انه ما كان بوسعنا ان نصمد هناك لولاكم ، لولا الذين ظلوا هنا . فالرجل يحارب والمرأة تطعمه ، الرجل يسلط غضبه على الاعداء والمرأة ، على بعد آلاف الكيلومترات ، تجعل هى والعائلة هذا القلب يرق ولا يتحول الى صخر . لولاكم لما حققنا اى شىء ، ولما كان هذا اليوم . بلادنا شاسعة هائلة ، ومع ذلك لا يمكن الاستغناء عن قريتنا اتامانوفكا . فنحن حاربنا هناك وانتم ساعدتمونا من هنا . انهضوا يا ناس ولننظر بعيون مفتحة الى يومنا هذا ونحفظ ذكراه الى ابد الآبدين . لم يشهد التاريخ مثل هذه الحرب ، ولم يشهد بالتالى مثل هذا النصر . فلنشرب نخبه اذن .

ونهض الحاضرون وتعالى طرق الاقداح ، وتاوهوا جميعا بحسرة

واحدة وجلسوا صامتين . مدت ناستيونا قدحها لتمس به قدح نادكا الجالسة قربها ، الا ان نادكا كانت قد احتست قدحها قبل الجميع . كانت هذه المرة صامتـــة ، ويا للعجب ، فلم تدخل فى نقاش مع احد بل راحت تتطلع بانتباه الى ما حواليها وكأنها لا تفهم ما حدث ولا تدرك السبب الذى اخل بنظام ايام العذاب المعتادة . كانت حياتها ، شأنها شأن اية حياة اخرى ، بحاجـــة الى السلام ، ولكنها الآن ، بعد ان حل السلام ، تفكر بقلق مرعب كيف ارتسمت فى هذه اللحظات بوضوح لا رحمة فيه سعادة البعض وتعاســـة البعض الآخر .

تجرع رسول كاردا قدحه وانشد من جديد :

خطانا سديدة
ولن نسمح للاعداء
ان يدوسوا اراضينا

وانبته احدى النساء برقة :

– اوى ، انه سكران ، فكيف سيذهب الى منزله ؟

وقالت امراة اخرى :

– الا يكذب علينا . . . بان الحرب انتهت ؟ انـــه سكران جدا ، ومن يدرى ماذا يخيل اليه . . .

– انا اكذب ؟! – سمعها الرســـول وحاول النهوض ، حتى نهض بشق الانفس ، ولمعت الدموع فى عينيه ، وسأل مسلطا على الجميع نظرة يائسة مستعطفـــة مستنكرة : – انا اكذب ؟ ماذا تقولون ؟ كيف تقولون ؟! – صاح بجهد اقوى فاختنق وراح يبحث عن صوته فلم يجده فى الحال : – من يتجرأ على الكذب ؟! هل تفكرون فيما تقولون ؟ لقد اسرعت اليكـــم . . . لكى تعلموا . اسرعت اليكم وتركت اهلى . وهذا جزائى . . . هل يوجد انسان لديه القدر الكافى من الحقد والدناءة كى يكذب فى مثل هذه الحال ؟ ماذا تقولون ؟!

هرعوا اليه يهدئونه :

– كلا ، انك تقول الحق . . . كل شىء واضح .

– حقا من الذى يتجرأ على مثل هذه الكذبة ؟

– كان صاحيا عندما جاء بالنبأ . وهنا سقوه بالمناسبة حتى سكر .

– لماذا تتهمون الرجل عبثا ؟ . . قطع عشرين كيلومترا ، فهل هذا بالامر الهين ؟

– صبوا له ، فليشرب ، وليعذرنـــا نحن الذين لا نعرف الخجل . حقا اننا لا نعرف الخجل . . .

شرب الرسول وسامحهم ، واخذ يحدثهم كيف سمع نبأ النصر وكيف وافق على السفر الى اتامانوفكا ليخبرهم به .

فسأل مكسيم بصوت عال كى يغطى على الضجيج :

– هل الجميع عندنا يعرفون بالنبأ ؟

– طبعا . كيف لا ؟!

– لعلعة الرصاص وصلت حتى الى آذان الموتى .

– والجد ستيبان ؟ – تذكرت ليزا فجأة وهتفت متحمسة : – انه يصلح عطلا فى الطاحونة منذ يوم امس . الجد ستيبان لا يعرف بالنبأ !

– الم يسمع اطلاق الرصاص ؟

– كيف يسمع اذا كان اطرش تماما ؟

– حقا ، الجد لا يزال يحارب .

– يجب ارسال شخص لاحضاره . عيب يا جماعة .

وتململ الرسول من جديد راغبا فى الذهاب الى الطاحونة لكى «يؤدى واجبه حتى آخر شخص فى القرية ، حتى الجد الطحان» . ولكنهم اجلسوه واقنعوه بان يبقى . وقفز نسطور الذى ظل حصانه مسرجا ينتظر فى الباحة منذ ان امتطاه طوال النهار . ولحق به شخصان . وصاحت النسوة عليهم من النافذة :

– لا تقولوا له شيئا هناك . احضروه فقط .

– اربطوه واحضروه .

– لا تربطوه والا سيموت .

جلسوا حول المائدة من جديد ، وصبوا فى الاقداح ، صبوا هذه المرة جعة مركزة اسرع اينوكينتى ايفانوفيتش الى منزله لاحضارها. لم يكن قد احضر شيئا كالآخرين . فقد انتظر اللحظة المناسبـــة واعلن بان لديه جعة لكى يعلم كل شخص ان تلك هى جعـــة

اينوكينتى ايفانوفيتش . كانت الجعة ممتازة حقا : مسكرة مدبغة ذات طعم عسلى . اعربت النسوة عن اعجابهن بها وتمطقن وتلمظن ورحن يتذكرن كيف كان يجرى اعدادها قبل الحرب ، وكيف كانت موائد الولائم والاعياد تنوء بما عليها ، ومن ايـــة منازل كانوا يبداون جولاتهم المرحة . وصاح مكسيم منطلق الاسارير بوجهه المحمر ويده الجريحة ترتعش :

– سنمرح ، يا نساء ، سنمرح . فكل هم الى فرج . وستكون الامور على ما يرام . سيعود الرجال قريبا . . .

– من الذى سيعود ؟ – سألت فيرا اورلوفا الارملة الشابة التى ظلت مع طفلها الوحيد ، سألت بصوت واطئ ، ولكنه واضح سمعه الجميع . فاجاب مكسيم متلعثما :

– ل . . لا بد ان يعود احد . . .

– على علمى – نهض اينوكينتى ايفانوفيتش وافاد : – يجب ان يعود ستة اشخاص ، ومن بينهم . . . – وراحت نظراته تبحث عن ناستيونا بين الحاضرين – اندرى غوسكوف الذى ضاع كل اثر له .

– ومن غيره ؟

– لماذا تسالون ؟ افلا نعرفهم ؟

الا ان اينوكينتى ايفانوفيتش عدد اسماءهم . فتكلمت نادكا فجاة بعد ان انتهى اينوكينتى ايفانوفيتش ، تكلمت دفعة واحدة بتشدد وغضب كمن انفلت من عقاله :

– ورجلى ، لماذا لا تحسبه ؟ ام انك لا تجيد العد اكثر من ستة ، ايها المحاسب ؟

– لم احسبه لانك تسلمت اشعارا بالوفاة . – ليس التشويش على اينوكينتى ايفانوفيتش بالامر اليسير ، فهو يعرف بم يجيب .

– وما قيمة الاشعار ؟ عليك ان تحسبـــه . فسياتى . انا اقول : سياتى – احتدت نادكا وهى تخاطب الجميع متحديـــة – سترون بانفسكم ، ولا تاملوا بانه لن يعود . سيعود وسيشوش حسابك . فالافضل ان تحسبه فى الحال . ليس ستة ، بل سبعة ، قل سبعة .

– اذن فسياتى رجلى ايضا – قالت فيرا اورلوفا بصـــوت مكتوم دون ان تنظر الى احد .

– لا ادرى بخصوص رجلك ، اما رجلى فسيعود .

وتكلمت النسوة بارتباك :

– محتمل . . . حدث مثل هذا فى كاردا ، فقـــد عاد زوج عديلة ناستاسيا . . .

– يقال ان احدى الزوجات فى براتسكويه استلمت اشعارين يؤكد احدهما ان زوجها قتل بشكل ويؤكد الثانى انه قتل بشكل آخر . ولكنه عاد بعد ذلك حيا . . . فهل يمكن التصديق باشعارات الوفاة ؟!

فى تلك اللحظة احضروا الطحان الجد ستيبـــان . ادخلـــه نسطور من الباب موجها البندقية اليه وقد ربطوا يديه الى ظهره . اقترح احدهم هذه الطريقة دون تفكير فنفذها نسطور بحماقة . تعثر الجد بالعتبة وسلط على الحاضرين نظرة باهتـــة من عينين صغيرتين غارقتين تحت حاجبين كثيفين دون ان يعرب عن دهشته او خوفه ، وكانه يتوقع ان يرى هنا ما رآه .

رفع نسطور راسه وافاد مخاطبا الصور النصفية المعلقة على الجدار وليس الحاضرين :

– تلبية لامركم احضرنا العنصر الهارب . وجدناه مختبئا فى الطاحونة .

– انت احمق يا نسطور – قالت نادكا التى انتبهت قبـــل غيرها – كيف لم نهلك مع هذا الاحمق حتى الآن ؟

– يا جد ! – صاحت عشرات الاصوات متاسفة .

هرعوا اليه ، فكوا رباطه ، ورفعوه على الايدى ثم اجلسوه ، وتدافعوا حوله كى يتمكن كل منهم ان يصيح فى اذنه :

– يا جد ، انتهت الحرب !

– يا جدى ، يا عزيزى ، اين كنت ؟

– بدانا بدونك . نسيناك . فلا تزعل . الجميع مجانين .

– جلسنا ، وافتقدنا احدا ، وسالنا من هو الغائب ؟ الجـــد غائب . يا الهى !

تلفت ذات اليمين وذات الشمال براسه الكبير الاشعث ولمّح

بصمت وهدوء الى انه يفهمهم ويسامحهم وهز راسه برصانة وحكمة . تطلعت اليه النسوة المختنقات بالعبرات وانتحبن جوقة واحدة . فبعد ان اخبرن آخر انسان حي في اتامانوفكا بما حدث ، صدقن هن اخيرا بان الحرب انتهت .

١٧

انزل الجميع قواربهم الى الماء وبدأوا يستخدمونها رويدا رويدا ، ما عدا ميخيتش الذى بدا وكانه يتعمد فى عدم الاستعجال. فقد انبطح قاربه وحيدا مقلوبا على الضفة دون ان يقير بعد . نفد صبر ناستيونا ، ولكنها لم تجرأ على حث حميها . فلا يجوز ان يحزر بان القارب يلزمها لغرض ما . ومع ذلك لم يعد بوسعها ان تبقى مكتوفة الايدى الآن وهى تجهل احوال اندرى ، لم يعد بوسعها الا تحرك ساكنا فى حين ان الطريق الى رجلها غدا مفتوحا . خيل اليها انه طالما وضعت الحرب اوزارها فان امرا ما سيتقرر الآن فى مصيره ، وفى مصيرها بالطبع ، ولذا ينبغى الالتقاء بالرجل دون تاخير ومعرفة ما ينوى فعله والوجهة التى سيتجه اليها . فخلال هذه الاسابيع الطويلة كالاعوام والتى لم يلتقيا فيها كانت ناستيونا مستعدة اكثر من مرة حتى للتحليق اليه بجناحين كى تهدئه وتهدئ نفسها . خيل اليها ان اندرى الآن ، حيث يتفتح الصيف عن كل جماله وحيث انبجست الاعشاب من الارض وسبحت الغابات بالخضرة وتخلص نهر انغارا من الجليد وراح يجتذب الناس بجريانه وزرقته الساحرة ، وحيث تغدو النفس البشرية اكثر استجابة واريحية مما فى اى وقت آخر ، الآن بالذات يمكن ان لا يتحمل اندرى ويقدم على فعلة تؤذيه وتؤدى الى هلاكه . ثم ان احلامها مقلقة مشوشة غير قابلة للتفسير . فتارة ترى فى المنام شخصا يدغدغها ، شخصا مجهولا خفيا ، وهى تغرق فى الضحك وتنكمش راكضة باقصى السرعة وتلقى بنفسها على السرير كى تختبئ تحت اللحاف . وتارة ترى انها تتكلم مع البقرة مايكا ، والبقرة تجيبها بفطنة وذكاء ، وتارة ثالثة ترى نفسها ، وهى

المرأة المتزوجة تعلم السباحة فى النهر بنتا صغيرة هى ناستيونا نفسها عندما كانت تعيش فى الطفولة بضواحى اركوتسك ، وما الى ذلك . كانت ناستيونا تستيقظ بسبب هذه الاحلام وتبقى راقدة امدا طويلا بلا حراك وقلبها يخفق بشدة واضطراب ، وهى تفكر باندرى وحده وتحبه حبا مريرا مفعما بالحنان . كانت تحبه باسف وتاسف له بحب ، واندمج هذان الشعوران فى فؤادها باحساس واحد لا ينفصم . لقد اسقط فى يدها ، فهى تلوم اندرى ، وخصوصا الآن ، حيث انتهت الحرب ، فيخيل اليها انه كان من الممكن ان يبقى حيا معافى مثل كل الذين ظلوا على قيد الحياة ، وهى اذ تلومه احيانا بشدة تبلغ حد الغضب والحقد والقنوط ، تتراجع ايضا بيأس وقنوط : فهى زوجته . وما دامت زوجته فهى اما ان تتخلى عنه كليا وتعلن على رؤوس الاشهاد بانها براء منه ، او ان تظل معه حتى النهاية ولو الى المقصلة . فليس من قبيل الصدفة ان يتحدثوا عن الرباط المقدس بين الزوج والزوجة . والامر اصعب على اندرى بالف مرة ، فهو معرض لميتة بشعة شنيعة . ثم انه لا يريد اخبار احد ولا الظهور امام احد كيلا يخلف من بعده ذكرى السوء . انه مذنب ، ولا احد ينكر ذلك . ولكن اين يجد الآن تلك القوة التى تعيده الى المكان الذى قفز منه نحو الجهة التى لا يجوز القفز اليها . انه مستعد لدفع اى ثمن لقاء هذه القوة ، ولكن اين هى ؟

كلا ، لا بد من رؤية اندرى باسرع ما يمكن ، ومعرفة ما ينوى القيام به .

انتفخ بطن ناستيونا . وعندما عرته قبيل المنام بدا واضحا تماما انها حبلى . مسدت بطنها برقة وهدوء فاكتنفها السكون ، وبعد ان ارتاحت قليلا فى هذه المرحلة الاولى ، اكتنفها سكون اعمق مطبق فحلقت وعرجت بخفة الى جو ما ، الى وحدة داخلية رائعة نسيت فى هدوئها وفراغها كل الموجودات ورأت وتحسست كل ذرة من كيانها . ورأت كذلك الجنين الذى يتحول بالتدريج الى طفل ، واخذت مشاعرها تلمسه وترسم لها كل ما فيه – بأية هيئة يرقد وبأى الحاح متواصل كسول يمتص منها نسغ الامومة . رأته ، كما اراد اندرى ، ذكرا ، فاثار ذلك بعض الخوف لديها :

فلو كان انثى لظل هناك امل بميلاد آخرين ، اخوة واخوات لها من جهة الاب والام ، اما الذكر فقد يكون هو الطفل الاخير . الا ان تلك التأملات خطرت على بالها فيما بعد ، عندما عادت من الاستبطان الغيبى الرهيف الذى كانت تستمع فيه الى نفسها عن كثب ، وفهمت بادراك ضعيف ، بعد عودتها ، اين هى وماذا يجرى لها . كانت تخشى ساعة افتضاح حملها ، ولكنها ، رغم خوفها ، تتمنى ان تحل تلك الساعة باسرع ما يمكن ، فهى لن تضطر عند ذاك الى بذل جهد لسحب بطنها واخفائه ، ولن تضطر الى التلفت والتخوف مما اذا كان احد سينتبه الى انها ليست وحيدة وانها تحمل جنينا فى احشائها . ثم ان انتظار تلك الساعة ارهق ناستيونا واتعبها . بدنها مكتنز ، ولن يدرك احد انها حبلى شهرا آخر فى اغلب الظن ، وبعد ذلك ستنزل الصاعقة فورا . ويخيل لناستيونا باطراد ان قوة ما تجتذبها الى فوهة ضيقة وستظل تضيق عليها الخناق الى ادنى قدر من التنفس ، ثم ترمى بها الى مكان ما فى آخر لحظة مخنوقة متحشرجة بين الموت والحياة . ولم تتمكن من القاء نظرة على تلك الحياة الجديدة ، فهى ، فى نظرها ، ملفعة بظلام دامس كظلمة القبور .

تعين على ناستيونا ان تبتدع حيلة لتعبر النهر . فذهبت الى مراقب العوامات الشيخ ماتفى فى قمرته الواقعة على الضفة المرتفعة الجميلة على بعد نصف كيلومتر عن القرية من طرفها العلوى . الشيخ ماتفى هو شقيق اينوكينتى ايفانوفيتش ، ولكن العلاقات بين الاخوين فاترة جدا . اينوكينتى ايفانوفيتش يتمتع بمنزلة رفيعة ، فهو شخصية متعلمة بارزة ، يدرك مكنون السياسة . وقد غادر القرية مرارا قبل الحرب فسافر الى ارجاء بعيدة واطلع على الحياة هناك . اما اخوه الاكبر ماتفى العجوز فلا يقوى لسان احد على مخاطبته باسمه واسم ابيه معا ، ماتفى ايفانوفيتش ، كما هى العادة عند الروس عندما يعربون عن احترامهم لمحدثهم . فهو غاية فى البساطة والتواضع والنزاهة . واذا كان قد غادر اتامانوفكا مرة فلمسافة لا تتجاوز كاردا . عاش بمعزل عن التعاونية الزراعية ، ولكنه يبدى مساعدته دوما لفلاحيها اثناء موسم الحصاد ، ويحب خصوصا جنى الحمص الذى يقوم به الفلاحون عادة

على مضض ، كما يهوى العمل فوق اكوام القش الضخمة اثناء التكويم .

ذهبت ناستيونا الى الشيخ ماتفى بعد ان تذكرت انه طلب من مكسيم فولوغجين يوم امس ان يرسل له فتى ليوم واحد كى يساعده فى نقل العوامات ونصبها على الماء لموسم الصيف .

واوضح الشيخ ماتفى آنذاك قائلا :

– لم تعد لدى القوى الكافية . ولن استطيع القيام بذلك لوحدى . ويخيل الى ان من غير اللائق ان اكلف احدا بدون ترخيص . فانتم مشغولون بالبذار ، وعندما ياتى موسم الحش ساعمل معكم ان شاء الله . وسأسدد هذا الدين .

بالامس لم تبد ناستيونا اى اهتمام بهذا الكلام ، اما اليوم فقد اسفت لانها لم تعرب عن استعدادها لمساعدة الشيخ ماتفى ، فلربما كان بوسعها ان تجد وسيلة لبلوغ ما تريد . فكيف لم تفكر بذلك فى الحال ؟ صحيح ان ناستيونا التى لا تجيد السباحة تخشى العمل فى النهر ، ولكنها لا بد وان تتمكن بشكل ما من ان تتجاوز خوفها وتتحمل ليوم واحد . فهل هذا ما يتعين عليها الآن ان تخاف منه ؟

جاءت الى القمرة قبيل المساء حيث هبطت الشمس وراء نهر انغارا ، فى نفس المنخفض المنبسط عند الافق والذى تقع فيه اندرييفسكويه . كان ظل خفيف واضح المعالم يغطى نصف النهر ، بيد ان التيار هناك اشد واقوى مما فى النصف المضاء . وفى نور الشمس كان الماء يلمع ويترجرج بسطوع يغشى الابصار ، وكانه يتلهى ويلف ويدور ليقيد حركته بنفسه . كانت الاسماك تسبح كثيرا ببهجة وسرور واعجاب وغرور . فصغيرها يتقافز باستماتة فى الهواء المرة تلو المرة ويخلف على الماء دوائر ودرجات كالسلم المخرم ، وكبيرها يفجر الماء بعيدا من الداخل فيصدر عنه صوت هادئ كمن يتمطق بارتياح . وفى اسفل الضفة المرتفعة كانت هناك بقايا من الجليد المقنفذ الوسخ الممزق ، تسيل منها غدران شقت طريقها وسط الرمال والصخور . وتجوب الشاطئ طيور صغيرة سريعة لجوجة مذعورة ذات اذناب طويلة مدببة ، وهى تسمى فى اماكن طفولة ناستيونا بطيور الذعرة ، بينما يسمونها

هنا بابى فصادة . وكذلك السميكات التى تجوب مياه الشاطئ اسرابا تسمى هناك بالفراخ ، بينما تسمى هنا بالابراميس ، تكريما لسمك الابراميس المعروف فى بحيرة بايكال والذى لا يعيش فى نهر انغارا . وعندما سمعت سميكات الابراميس خطوات ناستيونا خاضت الماء بصخب وغاصت فى الاعماق وقامت بنصف دورة ، ثم سبحت قليلا مع التيار واتجهت نحو الشاطئ من جديد بعد مرور الانسان . ومرقت الخطاطيف فوق راس ناستيونا بخفيف شديد ، وفاحت رائحة الرطوبة التى تزكم الانف ، وبقبقت بتكاسل موجة ضعيفة انبعثت تلقائيا من الداخل ، فالهواء ساكن موات ، وتهادى خرير الماء من بعيد ، من الراس العلوى لجزيرة المروج . كان الظل يتقحم حتى لتكاد العين ترى زحفه ، وحالما غابت الشمس هب النسيم ، وكانه يغلق باب النهار ، ثم سكن من جديد . وجرى النهر كله من الشاطئ حتى الشاطئ بسرعة اكبر . فان ناستيونا تعتقد منذ الطفولة ان التيار فى الظلام اسرع واشد مما فى الضوء .

انهمك الشيخ ماتفى فى اعداد القوارب ، ولديه منها ، بوصفه مراقبا للعوامات ، اربعة صنعها بنفسه جميعا . وعلى حصى الشاطئ استقرت العوامات الجاهزة للنقل وهى تلمع بطلائها الطازج — ثلاث بلون احمر واثنتان بلون ابيض . هبطت ناستيونا على الدرجات المحفورة فى التربة والمغلفة بالاخشاب كالسلم وحيت الشيخ ماتفى وتطلعت الى العوامات باهتمام كبير . وسألته فى الحال :

— ماذا ايها الجد ، من الذى بعثه مكسيم لمساعدتك ؟

— من ؟ . . — غسل الشيخ يديه بدون استعجال ومسحهما ببنطاله ونزل من القارب — مكسيم ذكى . قال لى خذ من تتمكن من اقناعه ، اما انا فليس لى حق ان اعين شخصا لمثل هذا العمل . — تنحنح وانحنى يبحث عن شىء ما فى الارض وقال موضحا : — ضيعت الفتيلة . ابحثى عنها انت ايضا ، فنظرك حاد . الفتائل العريضة نادرة جدا هذه الايام . كانت بيدى الآن ، ولا ادرى اين ضيعتها .

عثرا على الفتيلة تحت مقعد القارب ، فاخذها العجوز ودسها فى جيبه .

— انا بحاجة الى مساعدة فى نصب عوامتين فقط . اما الباقيات فسانصبها بنفسى . ولكنى لا استطيع نصب هاتين بدون مساعدة . احداهما قرب الجزيرة ، فالماء هناك خبيث ويصعب على العوامة ان تصمد امامه . والثانية ، بيضاء ايضا ، مقابل المضحل وراء القرية ، عند الراس الاجرد . اعتقد انك تتذكرين موقعهما فى العام الماضى . اما الحمر فسانقلها لوحدى بالتدريج . علي ان اذهب الآن لاقناع احد بمساعدتى ، والا فسيصل زورق المفتشين اليوم او غدا . ولا اريد ان اكون اسوأ من غيرى .

— خذنى معك يا جدى ، وساساعدك على قدر المستطاع — قالت ناستيونا والقت نظرة اخرى على العوامات فشعرت بالخوف من العوامتين البيضاوين الاثقل . تطلع اليها الشيخ بحذر ولزم الصمت حائرا هل يصدقها ام لا . ثم قال :

— لم لا ، اذا كنت لا تمزحين ؟ فمن آخذه يا ترى ؟ هل ستذهبين معى حقا ؟

— بالطبع يا جدى ، ولكن اسمح لى فيما بعد ان استخدم القارب لوقت قصير فى العصر . فانا اريد ان اقتطع اغصان صفصاف فى الجزيرة . وقاربنا لا يزال على الضفة حتى الآن .

— ساساعدك فى تقطيع الصفصاف ، فتلك قضية بسيطة .

— كلا ، يا جدى ، لا داعى لذلك ، ساقصها بنفسى على مهل . — قالت ناستيونا مرتعبة واضافت كيلا يلاحظ رعبها : — على كل حال ، سنرى فيما بعد . . .

— كما تشائين . فانا مستعد لمساعدتك . تلك قضية بسيطة . من اين بعثك الي الله يا بنتى ؟ — ضيق الشيخ ماتفى ، من فرط التوفيق غير المتوقع ، جفونه المحفوفة بحاجبين ابيضين باهتين وبرموش بيضاء ايضا ، وتنهد بارتياح : — اما انا فكنت افكر متحيرا : من يمكننى ان استعطفه ؟ الجميع مشغولون . وطالما ستذهبين معى فلنذهب من الصباح الباكر . فلا تشبعى نوما غدا . هل ستأتين ؟ الا تخدعيننى ؟

— سآتى يا جدى من كل بد . سآتى مع طلوع الشمس ، بل وقبلها . ولكن لا تقل لمكسيم اننى اقترحت عليك بنفسى . قل له

انك انت طلبت منى ذلك . فانا لا اريد ان اذهب للحراثة غدا ، مللت منها . وسأستريح قليلا .

– بالطبع ، بديهى انى ساقول له كما تامرين .

صرفت ناستيونا النهار كله فى النهر . شرعا بالعمل حالما انبلج الفجر ، والهواء منعش بارد والسكون مطبق ناعس لا يسمع فيه الا خرير المياه عند المضحل البعيد وحفيف الجريان الذى لا تكاد الاذن تميزه . بدا النهر قاتما كثيفا ، وعند الضفتين ارتعشت المياه متموجة ، وفى رواق واسع وسط تلك الارتعاشات الخفيفة جرى الماء لماعا كالزيت . استقلا قاربا كبيرا عريضا كالنش ، بيد انه يتطلب قوى هائلة لدفعه ولسحب العوامة الثقيلة الخرقاء من خلفه . فى البداية سحباه بالحبل الى اعلى النهر ، ثم جلست ناستيونا فى مقدمة القارب ، بينما جلس الشيخ ماتفى فى مؤخرته لتحريك المجذاف الفردى . ابتعدا عن الشاطئ ، ومذ ذاك حاولت ناستيونا ان لا تتطلع الى الماء ، فوجهت انظارها الى قعر القارب عند اسفل قدميها وهى تخشى التفكير بان من اللازم بعد قليل ان تنهض بكل قامتها وسط القارب وتقوم بعمل ما لمساعدة الشيخ ماتفى .

تعذبا كثيرا فى نصب هذه العوامة الاولى . فقد افرطا فى الجذف وفوتا المكان المطلوب وتعين عليهما ان يعودا اليه ، فباءت بالفشل كل محاولاتهما للرجوع ولو قليلا ضد التيار فى وسط النهر ، بل ومن العبث الامل فى ذلك . فالماء هنا يجرى بمسيل قوى مشدود ومدو ، وهو يصفع القارب فيتطاير رذاذا الى متنه . لام الشيخ ماتفى نفسه على حماقته واعلن استسلامه . جذفا نحو الشاطئ الايسر ، الاقرب الآن ، والذى تتحرق ناستيونا شوقا للنزول عليه ولكن بدون العوامة وبدون الشيخ طبعا . ومع ذلك عندما اقتربا من الشاطئ ارادت ان تبتدع عذرا وتبقى على هذا الشاطئ وتقنع الشيخ ماتفى بان يعود اليها قبيل المساء ، وعند ذاك بوسعهما ان يثبتا هذه العوامة اللعينة . لكنها تعرف ان ذلك غير ممكن . وبعد استراحة قصيرة اتجها الى اعلى من جديد ، وجذفا قليلا فى طريق العودة تحوطا ، ثم القيا ، قبل الاوان بعض الشىء ، حجر الاسناد فاضطرا الى سحبه وتحريكه كى يتزحزح من

مكانه ويحمله التيار الى الموقع المطلوب . كان عمل ناستيونا يتلخص فى الجذف لتقييد القارب حسب توجيهات الشيخ ماتفى . وبعد ان نصب الشيخ العوامة كما يجب تنفس الصعداء واشعل سيجارة . واعترف قائلا :

– هذه العوامة هى الاثقل . وانا انيرها واطفئها عادة قبل الاخريات . انظرى الى الماء الفوار الشرير . فهو يهجم ولا يمكن وقفه .

وبالفعل كان نصب العوامة الثانية اسهل . ووافقت ناستيونا على المساهمة فى نصب العوامة الثالثة ، فالوقت كاف ، الا ان الشيخ رفض واطلق سراحها وقال مرحا ومرتاحا :

– كفاية . اتفقنا على اثنتين فقط . اما الباقيات فلا اجد صعوبة فى نصبها . غدا سانصبها لوحدى بالتدريج . فاذهبى الى اين اردت طالما النهار لم ينقض بعد . هل تريدين ان اساعدك ؟

– سافعل بنفسى يا جدى .

– كما تشائين .

عرض عليها قاربا آخر خفيفا وسريعا ، الا ان ناستيونا ظلت فى القارب الكبير ، فقد تعودت عليه خلال النهار وصارت تخاف من القارب الاصغر . فالقارب الخفيف الذى ينصاع لاية موجة ولاية هبة من الريح يثير مخاوفها ، اذ ربما تهب الريح الجنوبية او تحدث مصيبة اخرى وتفسد الامور . فالعجلة من الشيطان . والانسان يجب ان يموت على الارض ، راقدا او سائرا ، بالصدفة او بدونها ، ولكن على الارض من كل بد ، حيث تتواجد الصلابة المعتادة تحت القدمين ، وحيث الهواء يسعى بنفسه الى التغلغل فى الرئتين . لم تر ناستيونا غريقا الا مرة واحدة قبل الحرب بزمن طويل ، وحالما تتذكره ، حتى الآن ، يقشعر بدنها .

انزلت الشيخ قرب قمرته ورفضت احتساء الشاى معه وتوجهت لعبور النهر فى الحال . وعندما ظلت لوحدها واقترب اخيرا ، بعد فراق طال حوالى شهرين ، ذلك اللقاء الذى سعت اليه بكل الوسائل ، بالحق والباطل (باى حق ؟ بالباطل وحده !) ، اكتنفت ناستيونا رغبة مترددة حذرة فى تأجيل هذا اللقاء وترك الامور على حالها . فما الذى بوسعها ان تقوله الآن لاندرى ؟ انتهت

الحرب وعاد الى القرية مقاتل آخر هو النصير السابق لوقا سمولين ، وهو رجل كهل صموت التحق بالخيالة منذ البداية ، وخدم فيها طوال الحرب سائسا للخيول . وقبل ثلاثة ايام ارغمها ميخيتش ، هى ناستيونا ، على الكتابة الى التحريات والسؤال عن مصير اندرى ، وسلم الرسالة بنفسه الى ساعى البريد . سيميونوفنا تسير على قدميها بشكل افضل وبدون عكازين ، ولعل دفء الجو هو الذى ساعدها . قدرة سيميونوفنا على المشى امر جيد بالطبع ، ولكن ناستيونا كادت ترتاب فى ذلك وترى فيه فالا سيئا بالنسبة لها . وماذا بعد ؟ البطن . . . سيراه بنفسه . ثم انها تجرات مؤخرا وباعت الساعة على اينوكينتى ايفانوفيتش ، باعتها بثمن بخس طبعا ، وسددت بثمنها قسط السندات المستحق ، فقد حل موعد التسديد ولم يكن لها فى الامر حيلة .

وماذا سيقول هو ؟ ماذا عساه ان يقول ؟ ستنظر اليه وستفهم كل شىء بدون كلمات : كيف كانت احواله فى الفترة التى لم يلتقيا بها ، وما الذى ينوى فعله . لا يمكن ان تستمر الامور على هذا الحال طويلا . فيجب اتخاذ قرار ما والاتجاه الى وجهة ما . ولكن اى قرار واية وجهة ؟ . . القصاص قريب ، قريب جدا ، ولا فرق اذا كان قصاص الناس او الله او النفس . فلا شىء يضيع جزافا فى الدنيا .

الشمس لا تزال مرتفعة ، والهواء العذب يكتنف النهر ، فالنسيم يهب من جهة الشمال . ناستيونا تندهش دوما عندما ترى الريح فى الصيف تهب بعكس التيار ، اذ يخيل اليها ان النهر بتياره العريض الجبار يجب ان يسحب الهواء ايضا وراءه .

جذفت بدون استعجال . ولكنها شعرت بآثار المجذافين الثقيلين خلال النهار بعد الانقطاع الطويل . فقد تخدر ساعداها ، وتخشب الظهر من تلك الحركة المتكررة المتواصلة ودبت فيه القشعريرة . ويتهادى الى الاذنين حفيف لذيذ من سطح الماء الممزق ، ينبعث رقيقا متناغما كرنين نواقيس صغيرة هالكة . كما ينبعث من الجذف صوت آخر ثقيل هو صوت الماء الذى يدفعه المجذافان بصرير وانين . ومن منتصف النهر تبدو الرؤية شاملة بعيدة كما فى الاعالى . كان كل شىء يسبح ويتمايل — المنازل

والغابات والسماء والحقول المحروثة على الهضبة والشاطئ . كل شىء بدا مزعزعا رقراقا على اساس من الرمل . وفى اعالى الجو تعلق باشق كنقطة صغيرة فوق النهر وراح يتطلع ويتأمل . شعرت ناستيونا لاول مرة فى حياتها ، دون موجب اطلاقا ، بالعطف على هذا الطير الضار ، فهو ايضا يعانى من ضنك العيش . وخيل لناستيونا فى الآونة الاخيرة على العموم انها لا تمتلك حقا فى لوم احد ، لا من البشر ولا من الوحوش ولا من الطيور . فكل منها يعيش حياته الاسيرة خارج ارادته وهو عاجز عن تغييرها .

تشبثت بالطرف السفلى للجزيرة ، ثم سارت الى اعلى على امتداد الجهة الاخرى المستورة عن القرية ، وهناك غرزت مقدمة القارب فى ارض الشاطئ . ولم يبق عليها الا ان تعبر المجرى وهو ضيق اقصر بثلاث مرات من المسافة التى قطعتها . بيد انها توقفت ليس بسبب التعب . فقد داهمها خور آخر ، خور نفسانى . احست ناستيونا فى دخيلتها تشابكا وتشويشا اختلطت فيهما فرحة اقتراب لقاء اندرى وخوف من هذا اللقاء ، خوف من التطلع الى الغور الملفع بالظلام . وتعين عليها ان تحل النظام والترتيب فى مشاعرها وتوجهها فى وجهة واحدة ثم تواصل السير . جلست تتطلع الى الماء عبثا وابتسمت ابتسامة متعمدة متكلفة موجهة الى داخل فؤادها لعل الاطمئنان يتسرب معها اليه كثيفا كالزيت . بيد انه لم يتسرب الى هناك ولم يظهر له اثر ، ولم يتبدد القلق والاضطراب . ظلت ناستيونا جالسة بدون تلك الابتسامة التى اختفت ولم يبق منها الا قناعها على الوجه ، وتذكرت كيف باعت الساعة على اينوكينتى ايفانوفيتش . ولو تذكرت شيئا آخر لربما هدأ من روعها ، اما قصة الساعة فليس بوسعها ان تهدئها .

راح اينوكينتى ايفانوفيتش يقلب الساعة بيديه طويلا ، ويقربها من اذنه ومن عينه ويلقى على ناستيونا نظرات متفحصة ثاقبة . كان واضحا ان الساعة اعجبته ، وهو راغب فى الحصول عليها ، الا ان رغبته اشد فى معرفة سرها وايضاح الكيفية التى وصلت بها الى هنا وعن طريق من . قربها من عينيه بالذات لكى يرى ما اذا تبقت عليها آثار ما ، كتابة او اشارة تدل على مصدرها او توضح شيئا بخصوصها . ولكنه لم يعثر على اى اثر . تمالك

اعصابه وانتظر قليلا وشاغل نفسه وناستيونا ثم سأل فى الاخير وكانما عرضا :

– من اين لك ؟ هل بعثها اندرى ؟

جواب ناستيونا جاهز ، فقالت وكانها ، هى ايضا ، تلعب لعبة القط والفارة :

– من اين له ؟ . . انا اشتريتها له ، لاندرى ، فى كاردا العام الماضى . والآن نحن مضطرون لبيعها . ليس لدينا ما نسدد به قيمة السندات . عندما يعود اندرى سيشترى لنفسه ساعة اخرى . لقد تأسفت مرارا لانى اشتريتها .

– بكم اشتريتها ؟

– بالفين .

كانت تخشى ان تقول له ، كما قالت لميخيتش ، انها بادلتها بالبندقية . فحالما يمسك هذا براس الخيط يسحب الشليلة كلها .

هز اينوكينتى ايفانوفيتش راسه وقال :

– لا املك مثل هذا المبلغ الضخم . عجيب امركم . دفعت الفين على الفور ، وكانك تدفعين روبلين . ومع ذلك تتظاهرون بالفقر . ومن الذى باعها لك فى كاردا ؟

– لا اعرفه . اعتقد انه عسكرى ، فقد كان يرتدى معطفا عسكريا . اعجبتنى الساعة جدا ، فاشتريتها دون تفكير . بعت البلوز والشال وجمعت كل ما عندى – تمادت ناستيونا فى كذبها وتطلعت الى وجه اينوكينتى ايفانوفيتش دون خوف او وجل – ولو عرضها على الآن فهل يمكننى ان اشتريها ؟ كلا ، بالطبع .

– لا املك الفين . فلست غنيا مثلك – قال اينوكينتى ايفانوفيتش وهو يتظاهر بالفقر ويبحث عن وسيلة للتأثير على ناستيونا دون ان يحيد بنظرته المتفحصة عنها – يمكن ان اجد الفا بمنتهى الصعوبة ، ولن اجد اكثر .

فكرت ناستيونا وقالت متنهدة :

– اذن خذها بالف . فعلى من ابيعها هنا ؟ اما فى كاردا فاضيع نهارا ، بل وحتى نهارين . ليس لدى وقت الآن .

عد لها اينوكينتى ايفانوفيتش الالف ولكنه لم يصدقها . فقد لاحظت انه لم يصدقها . ما كان ينبغى لها ان تعرض عليه

الساعة ، ولكنه لم يكن هناك من تعرضها عليه . ففى اتامانوفكا لا يوجد شخص غيره يمتلك نقودا . زد على ذلك ان شيئا ما دفع ناستيونا اليه بالذات ، رغما عنها . فهو يحب التشمم وتقفى آثار الغير ومعرفة كل ما تمكن معرفته اكثر من الآخرين وقبل الآخرين . خذ وتشمم ، اننى اقدم لك بنفسى قطعة تفوح منها رائحة القلى والسلق . فتشمم بانفك الطويل ما استطعت ، وسوف اقدم لك قطعة اخرى فى القريب العاجل . ولا اخاف منك .

فى حين كان يتعين عليها ان تخاف منه . فهو ليس ملاكا من الملائكة . كلا ، يبدو ان كل ما تفعله ينقلب ضدها .

١٨

ناستيونا تعلم ان اندرى الآن فى الكوخ العلوى ، ولكنها لا تدرى ماذا تفعل بالقارب : فاما تهبط به وتخبئه فى الجدول ، واما تتركه عند الشاطئ مقابل الجزيرة . وهو غير مرئى من تلك الجهة ، وعلى هذه الجهة لا يمكن اخفاؤه اذا جاء شخص ما . فالافضل اذن ان يبقى دون اخفاء . أفلا يحق لها ان تأتى بقارب لقضاء حاجة ما وراء النهر ؟! من اجل تقطيع اغصان الصفصاف ، مثلا ، كى يستخدمها حموها فى صنع السلال والاقفاص . والصفصاف هنا اكثر مما فى اى مكان آخر . كان ميخيتش قد اعرب مرة عن رغبته فى الذهاب الى الجزيرة لاحضار تلك الاغصان . صحيح انه قصد الجزيرة وليس ابعد منها ، لكن الامر سيان تقريبا . ستقول لميخيتش انها قطعت الصفصاف من الجزيرة ، وسيدهش ، ولن يكون لديه سبب للاعتراض . فهو الذى اعرب عن تلك الرغبة ، وقد ارادت هى ان تفعل ما يسره . ثم ما الذى يجعله يعترض اذا كانت هى قد عملت معروفا ؟ لقد صارت ترى الريبة والشكوك فى كل مكان حتى عندما لا يوجد ادنى اثر للريبة والشكوك .

الا ان احدا كان يتعقبها هذه المرة . فحالما سحبت مقدمة القارب الى اليابسة والقت نظرة عجلى على ما حواليها وصعدت الضفة غير العالية خرج شخص من الشجيرات الكثيفة المطلة على الماء الى

اليمين . لم تنتبه ناستيونا اليه ولم تلاحظ كيف ظهر ، بل سمعت فقط طقطقة الحصى من خلفها فالتفتت مرتعبة وراته منحنيا على القارب يحرك مقدمته بهزات شديدة على حصى الشاطئ . فندت عنها صرخة ، ولكنه بادرها قائلا وهو يتوجه اليها محنى الظهر قليلا :

– كيف تتركين القارب على هذه الصورة ؟ يمكن ان يحمله التيار بعيدا .

كان ذلك الشخص هو اندرى . هرعت اليه ناستيونا بقلب متفطر من الرعب والفرح وهى ترتعش بشدة وتتاوه ، ولكنه لم يسمح لها بمعانقته ، بل اقتادها بسرعة الى ما وراء الشجيرات حيث لا يمكن ان يراهما احد من جهة النهر وعانقها هناك فعصرها بشدة بين ذراعيه وتلاحقت انفاسه وهو يتطلع الى محياها .

– كنت اعلم انك ستاتين اليوم ، عرفت ذلك منذ الصباح – تمتم بلهفات سريعة وضاقت جفونه لانه يراها عن كثب – سمعت فى الصباح اصواتا على النهر وعرفت صوتك . وايقنت بانك ستاتين . فصرت انتظر طوال النهار . وبعد ذلك رايتك قادمة .

ضغطها بشدة اكبر . فدفعته وابرزت له بطنها :

– على مهلك يا دب ، والا ستسحقه . افلا ترى ؟

– موجود ؟ – سال بايجاز وقد اسكرته هذه الفرحة .

– فهل تعتقد بانى ملأت بطنى عصيدة ؟

ضحك بدوى متقطع كمن نسى الضحك من زمان ولم يعد يجيده ، واخذ يتلمس بطنها حذرا براحته العريضة الطويلة الاصابع لكى يتاكد من مرونته . وشعرت ناستيونا بالارتياح لهذه اللمسات فتنهدت برقة وعمق . وقال هو :

– غير واضح بعد .

– كيف ذلك ؟ . .

التقطت راحته ووضعتها على النتوء الذى يدل على مكان وجود الجنين . وسالته :

– واضح ؟

– يخيل الى انه موجود .

– يخيل اليك . . . انك انت نفسك خيال لا اكثر . اما هو فموجود . وانا اعرف انه صبى .

– تعرفين . من اين تعرفين ؟ – قال مدمدما .

– فلنتراهن ، انا اقول صبى واذا فزت فى الرهان تمنحنى صبية .

– فليولد هذا اولا .

– سيولد . فلماذا لا يولد ؟ هل سمعت يوما بان طفلا بقى هناك ؟ – اثارت هذه الكلمات ضحك ناستيونا نفسها فراحت تقهقه .

ولكنها بردت عندما تطلعت الى اندرى بامعان ، وخف انفعالها السعيد الذى اثاره لقاؤها المباغت معه قبل الآوان . كان ماء وجهه قد نضب ، ونحل فكاه فرات ، حتى عبر لحيته ، كيف تهدلت وجنتاه عليهما . وتجمدت عيناه وهما تنظران من الاعماق بالم ممض . ولم تعد اللحية تبدو سوداء ، بل كالحة مبقعة جعلتها الخصل المجعدة الشعثاء اكثر تشويشا . كان راسه مشرئبا وكانه يحدق دوما فى شىء امامه او يتسمع اليه بانتباه . ولعل الامر كذلك فعلا . كان قد قص مؤخرا شعر راسه وحلقه عشوائيا ، فقد تدلى بخصل شعثاء غير متساوية . وعيناه ، عيناه هما اللتان ارعبتا ناستيونا اكثر من اى شىء آخر . فقد تغيرتا وتبدلتا منذ اللقاء الاخير لدرجة كبيرة وامتلاتا بالكآبة والاسى وفقدتا اى تعبير ما عدا الانتباه . . . لاحظ اندرى عذابها وهى تتطلع اليه فقال مرتعشا :

– ماذا ؟ الا اعجبك ؟

– اندرى . . . – غرزت ناستيونا وجهها فى صدره كيلا ترد على سؤاله ، ومن هناك ، من اعماق الصدر همست له بصوت مخنوق بما كانت تعتبره اهم شىء الآن : – اندرى ، انت لا تعرف بعد : الحرب انتهت .

– اعرف ذلك . – قال بهدوء .

فابتعدت عنه ناستيونا على عجل :

– من اين تعرف ؟ من قال لك ؟

– سمعت طلقات الابتهاج .

– آ . . . اجل اطلقنا الرصاص .

– عيناى واذناى حادة جدا الآن . . . ارى واسمع عن بعد كبير – قال ذلك وكانه يريد تحويل مجرى الحديث ، ولربما يريد

التفاخر فعلا – وانا احسد نفسى بنفسى . فى الصباح كنتما تجذفان بعيدا فى المجرى الرئيسى للنهر ، اما انا فعرفت ان القارب يسير . سمعت ذلك من هناك ، من الكوخ على الهضبة . وحالما اقتربتما من الجزيرة عرفتك .

– لم استطع ان احضر لك شيئا . – قالت ناستيونا شاردة الذهن ببطء واغتراب . – ما عدا قطعة من الرغيف والبيض . خشيت ان ينتبه احد لذلك .

– لست بحاجة الآن . غابات التايغا ستطعمنى . انا بحاجة الى كلة يا ناستيونا . فالبعوض سيهجم قريبا ، وسيفترسنى اذا بقيت بدون كلة .

– الكلة . . . حقا ، كيف نسيت الكلة ؟

– احضريها فى المرة التالية .

– ساحضرها بالطبع . . .

اخذت تفكر بكيفية الحصول على الكلة . كلته هو ، القديمة المصنوعة من شعر الخيل ، تمزقت من زمان . وليس فى المنزل كلة احتياطية . يجب العثور على كلة . فالبعوض هنا اسوا من الوحوش المفترسة . واندرى هو الانسان الوحيد الموجود هنا ، وسيهجم البعوض كله عليه .

كانا لا يزالان واقفين يراوحان الواحد قرب الآخر ، والى جانبهما اشجار بتولا فتية متفتحة بنفس ارتفاعهما . انبثقت اوراقها واتسعت بعد ان كانت براعم ملتوية ، ولكنها لا تزال صغيرة شاحبة فى ضوء الشمس بعروق متغضنة عميقة .

لاح نهر انغارا من وراء اشجار البتولا . ولم تكن القرية مرئية ، فقد حجبتها الجزيرة . وحنت الشمس على تلك الجهة فسلطت عليها اشعة مائلة مركزة . الشاطئ هنا واسع جميل موشى باشجار البطمة والبتولا الموزعة هنا وهناك على مرجه الاخضر . وهو ينحدر بشكل لا يكاد يلحظ نحو الماء وينبسط صامتا وكانه مسحور او مهجور . وانشغلت فى نبش الاعشاب طيور صغيرة صامتة بظهور مخططة بالطول ورؤوس مرتفعة . ومن بعيد ، من جهة هذا الشاطئ ، راح وقواق يندب من زمان بصوته الرتيب وكانه يتوقع ان يجد من يحسب بقية سنى عمره استنادا الى

وقوقته ، كما هى العادة الشائعة فى هذه الانحاء . ارادت ناستيونا ، منذ ان كانت فى النهر ، ان تحسب تلك البقية ، ولكنها خافت من انقطاع الوقوقة ، اما الآن فواضح انها لو حسبت لبلغت مائتى عام او اكثر . وسألها اندرى وهو يتلفت بدون سبب :

– هل تريدين ان نذهب الى الكوخ ؟

فقالت ناستيونا مترددة :

– انه بعيد ولا بد . واذا تركت القارب . . . ربما يختطفه احد .

– من الذى يختطفه هنا ؟ . .

هبطت ناستيونا الى القارب واخذت من مقدمته صرة الطعام . لكنهما لم يذهبا الى الكوخ . بحثا عن مكان مناسب فعثرا على فسحة دائرية منزوية قسمها الى نصفين جذع ابيض صلب كالعظم ، وجلسا عليه . سلمت ناستيونا الصرة لاندرى ، ففتحها على مهل وهو يتطلع بعيدا الى الامام ، ولكنه عندما راى قطعة الخبز لم يتمالك نفسه فغرز فيها اسنانه . حاولت ناستيونا ان لا تنظر اليه وهو ياكل بنهم ، فانزلقت من على الجذع ومدت بشكل مريح رجليها اللتين تخشبتا فى القارب . كانت ترفع راسها بين الحين والآخر وتنظر خلسة الى اندرى وهى مندهشة متعجبة ليس له ولا لجوعه ، بل لان هذا الرجل المبهدل الاشعث الذى يلتقط الآن فتات الخبز الساقط على لحيته ويأكله انما هو ذاك الذى تسهر الليالى من اجله وتسعى الى لقياه بكل ما لديها من جهد وطاقة . يا الهى ، ما اكثر تقلبات المشاعر البشرية وما اشد غموضها ! وما اكثر تبدلها ولجاجتها ! فهل سعت هى اليه بالذات ، الى هذا الانسان ؟ وهل هو الذى عانت الامرين من اجله ؟ احقا هو المتسلط عليها بكل ما فى ذلك التسلط من رهبة ورغبة ؟ شىء لا يصدق . بيد ان ناستيونا اوقفت سيل افكارها : افلم يسأل نفسه هو ايضا على هذا النحو عندما رآها لاول مرة بعد الجبهة : الى من هرب يا ترى ؟ ولاجل من اقترف فعلته تلك ؟ وما اهون عبور نهر انغارا بالمقارنة مع ما فعله ! انقبض قلبها بأسى واكتئاب . فلا امل فى مخرج . هذا الانسان لا يعرف شيئا عن نفسه ، انه يخشى نفسه ولا يثق بها .

اما الوقواق فواصل وقوقته دون ان يغير نبرات صوتـــه ، واصل حسابه موزعا الاعمار الطويلة على الاشجار والنهر والحصى . تهادى خرير الماء امام الجزيرة ولمعت بيوت العناكب المبكرة على الاشجار فى اشعة الشمس المائلة الواطئـــة . وسبحت العين فى خضم الخضرة الساطعة وانسحبت عليهـــا غشاوة رقيقة خضراء ، وتبردت الانفاس بعطور ندية فواحة . وهبطت على الفسحة من الاعلى فراشة ظلت ترتطم امدا طويلا بالشجيرات الكثيفة دون ان تتمكن من العودة من حيث جاءت . بيـــد ان منظر النهر ظل مرئيـــا عبر الغصون . ولاحت ضمن هذا المنظر حتى مؤخرة القارب من تحت الشاطئ . تطلعت ناستيونا الى هناك مرارا ليس بسبب خوفها على القارب ، فهى خائفة اصلا ، خائفة من توقع شر مستطير لا مفر منه .

فرغ اندرى من طعامه ، فسألت ناستيونا فى الحال كيلا يتجه الحديث وجهة اخرى :

– انتهت الحرب فما الذى سيحدث لنا يا اندرى ؟

– لا ادرى . – حرك كتفيه فهال ذلك على ناستيونا ، اذ خيل اليها انه قال «لا ادرى» ببالغ الهدوء واللامبالاة وانه لا يريد ان يدرى .

– فمن يدرى سوانا ؟ يجب القيام بشىء يا اندرى .

– ما الذى تريدين منى ان افعل ؟

– لماذا تقول «تريدين» . . . لست انـــا التى اريد . . . ولكن . . . هل سنفعل شيئا ام لا ؟ عليك انت ان تقرر .

استدار نحوها ولزم الصمت لحظة فانتقى الكلمات الاولى وقال بلهجة متشددة :

– ماذا نفعل ؟ عليك ان تلدى ، وهذا بالذات هو ما يجب فعله . يجب ان تلدى مهما كلف الامر . ففى ذلك حياتنا كلها . افعلى ما تشائين ، ولكن اعلمـــى ان عليك ان تلدى . وهيئـــى نفسك لذلك . – بدا بلهجة متشددة ، بل وقاسية ، لكن صوته ضعف وتغير . ولاحظت ناستيونا على العموم ان صوته غالبا ما يتغير ، فهو يقسو ويغلظ دون مناسبة ، ثم يتحول فجاة الى نبرة التشكى الذى يكاد يقرب من البكاء . وقد يكون سبب ذلك هـــو الصمت الطويل والوحدة ، وقد يكون له سبب آخر . سعل اندرى

وواصل كلامه : – بالنسبة لى . ما الذى يجب علي ان افعله ؟ لا بد وانك فكرت اكثر من مرة بانني لو بقيت هناك لما حدث لى مكروه . لا تنكرى ، فانا اعرف ذلك . وهذا ما اعتقده انا بنفسى . فالآن ، بعد انتهاء الحرب ، لا يبدو التفكير على هذا النحو غريبا . اما اثناء الحرب فربما ما كان ليحدث لى مكروه ، ولبقيت على قيد الحياة وعدت سالما . – مال نحو ناستيونا وقرب وجهه منها وضيق جفونه اكثر من المعتاد فخبأ عينيـــه وهمس بصوت فظيع مخنوق ابح : – ولكن ماذا لو حدث لى مكروه ولم اجلس معك هنا كمـــا اجلس الآن ؟ لا احد يعلم . لكننى جالس معك . فلا تسالينى ولا تدفعينى لافعل شيئا ، فانا لا استطيع ان افعل الا شيئا واحدا – عدل قامته واشار بيده الى اسفل – تمهلى ، لا تقاطعينى . انـــا اعرفك جيدا ، وانا اثق بك . ألم اقل آنذاك : حتى الصيف ؟ ها هو الصيف قد حل بسرعة . فهل مر زمان طويل على مجيئك الىّ فى العاصفة الثلجية ؟ اما اليوم فقد جئت على الماء . الهلاك امر سهل ، يا ناستيونا ، ولا مفر منه . خلال هذه الشهور الاربعة عشت هنا حقبة تعادل اربعين عاما بكاملها ، بالاضافة الى الثلاثين عاما السابقة من عمرى . اقول ان الهلاك امر سهل . لكننى اريد ان اعرف بانى لن اهلك عبثا . واريد ان اثق بانى لا ازال نافعـــا لك ، وانك ستاتين الى هنا ليس من اجلى ، بل من اجلك انت ، لكى تهـــون الامور عليك .

فقالت ناستيونا معترفة :

– اننى لا اعرف الآن لاجل من جئت .

– يمكنك ان تبصقى على كل شىء وتنسيه ، ولكن يجب ان تلدى . فالطفل خلاصنا . ولك انت ايضـــا ضلع غير بسيط فى قضيتى هذه . ضميرك يؤنبك وانت قلقة . وعندما تلدين طفلا ستهون عليك الامور . وسينقذك الطفل من الشرور . هل هناك ذنب على وجه البسيطة لا يغطيه طفلنا ؟ ليس هناك مثـــل هذا الذنب يا ناستيونا . اجل . انتظرتك طوال الوقت كى اقول لك : استعدى . حولى قلبك الى حجر وشدى نفسك فى صرة واغلقـى اذنيك ولا تسمعى ما سيقولونه عنك . انا اعلم بانك ستضطرين الى السير على الجمر المستعر . . . فاصبرى ، يا ناستيونا . ولا

تضرى به . اذا نفد صبرك تعالى الي . تعالى . سانتظرك . ساعيش من اجلك ، وليس لدى هنا غرض آخر . واذا آذوك جدا سابيدهم جميعا ، وساحرقهم جميعا ، ولن اتسامح حتى مع امى التى ارضعتنى . . .

غاص راسه بين كتفيه وهو يتطلع منتفضا ، بعينين مهووستين ، الى الجانب الآخر من النهر . فخاطبته ناستيونا مرتعبة :

– اندرى ، يا اندرى !

التفت اليها فانزلقت نظرته عليها دون ان يراها ، وابتعد قليلا ليتخلص من نوبة الهياج الداخلى الخانق ، وصمت امدا طويلا . ولم تكن ناستيونا ، هى الاخرى ، تعرف ما يتعين عليها ان تقول . الا انها تذكرت فجاة ، ويا للسخرية ، انه ليس لديها ما تقطع به اغصان الصفصاف التى جاءت من اجلها . فلم تاخذ معها لا سكينا ولا فاسا . كلا ، فى دخيلة كل منهما يقبع اكثر من شخص واحد بيدين ورجلين وكيان كامل . وكل من اولئك الاشخاص يسحب الواحد منهما الى جهات مختلفة فيقطعونه الى اشلاء متناثرة حتى يودوا به الى التهلكة . اما هو ، المسكين ، فيقول ان نفوس الغير دهاليز مظلمة ، وكانه يعرف ولو قليلا مما فى نفسه !

بردت الارض تحت ناستيونا فنهضت وجلست على جذع الشجرة . تزحزح اندرى فاقترب منها ، ولكنه لم يعانقها كما توقعت بحذر ، بل راح يميل الى الامام والى الوراء كرقاص الساعة . انحسرت الشمس عن الفسحة وزحفت الى النهر . حطت ذعرة على مؤخرة القارب وراحت تقفز محركة ذيلها بعصبية ، ثم حلقت واختفت وظهرت من جديد بعد لحظة واخذت تبص فى الماء بسجدات سريعة متلاحقة . ومن جهة مشرق الشمس ظهرت خطوط خفيفة من سحب بيضاء . وانتاب ناستيونا القلق من احتمال تبدل الطقس .

– قد اذهب الى منطقة لينا – قال اندرى فجاة ، فسالت ناستيونا مستغربة :

– الى لينا ؟ لماذا ؟

– كان عندى صديق من تلك المنطقة . حاربنا معا . اسمه كوليا تيخونوف . – شرق بكلامه وكان شيئا اطبق على حنجرته ، فكرر

قائلا : – كوليا تيخونوف . صحيح اننا كنا فى مفرزتين مختلفتين ، انا فى الاولى وهو فى الثالثة . وكانت المفارز تذهب للاستطلاع حسب الدور . فلم نتقابل كثيرا . وعندما يحالفنا الحظ قليلا نلتقى جميعا . كان اعزب . . . وكان من المحتمل ان يغدو انسانا جيدا . فهو متواضع طيب القلب . وذكى قادر على اداء كل المهمات . وكريم يستغنى عن آخر قميص لديه ، وعن آخر ارزاقه . وعلى خده اثر جرح يناسبه تماما وكانه نقرة صغيرة . فقد غرزوا فى وجهه مذراة اثناء عراك فى الطفولة . وقد اتفقنا ، انا وهو ، على ان يذهب الذى يبقى منا حيا الى اهل القتيل ويحدثهم عنه . هو من اهالى نهر لينا وانا من اهالى نهر انغارا ، فنحن اقارب والمسافة ليست بعيدة جدا . كان غريب الاطوار بعض الشىء . فعندما سالته : واذا قتلنا كلانا ؟ قال : لن نقتل كلانا ، الا اذا التقى ماء لينا بماء انغارا . – تنحنح اندرى على عجل وتنهد طويلا : – فقلت له ، وكانى اعرف الكثير ، انهما يلتقيان فى البحر ، فقال : البحر هو الموت . انهما يعيشان طالما يسير كل منهما فى مجراه . اما البحر فهو الموت . وبعد الموت سنلتقى نحن ايضا . وعندما عدنا من حملة استطلاعية عند الفجر اخبرونى بانهم جاءوا بكوليا قتيلا . الا يتعين على ان اذهب الى اهله واحدثهم عنه ؟ – واصل كلامه دون توقف – فانا اعرف واتذكر اين دفن ، اذ دفنته بنفسى . يجب ان انفذ ما اتفقنا عليه . . .

– كيف تذهب ؟ – سالته ناستيونا بحذر .

– ساتظاهر بانى قادم من بعيد . قريته صغيرة . وسابقى هناك برهة فاحدثهم واعود . عندما دفناه لم ابك ، فليس البكاء من الامور الجائزة هناك . ولكننى تذكرته مؤخرا فسالت دموعى . فانا لست حجرا بلا شعور ، يا ناستيونا . حبذا لو كنت بلا شعور ، فذلك اهون . افكر وافكر حتى الجنون ، والافكار كلها شائكة . . . تخزنى وتلسعنى . . . افكر فى تسليم نفسى لاتلقى العقاب الذى استحقه . وكلما زادت العقوبة سيكون ذلك افضل ، ما دمت استحقها . وبدلا من ان انتحر فليغلق المكلفون بقضيتى ملفها بموتى . سيؤدون واجبهم وسيكون ذلك افضل لى انا ايضا . – تجمدت ناستيونا فى محاولة لعدم تفويت اية كلمة يقولها ، ولكنه رفع

راسه وهزه بحزم دليلا على الرفض القاطع : – كلا ، لن اسلم نفسى . لست خائفا على نفسى ، ربما سيكون من المفيد ان اعدم رميا بالرصاص . فهم سيدفنوننى على الاقل . اما هنا فلا احد يهيل التراب على . كلا ، لن اسلم نفسى ، فانا لا اريد ان اجلب العار عليكم . ثم انهم سيؤذونك اذا علموا انك ولدت لى طفلا . انا استحق العقاب ، تلك قضية واضحة ، وانت ؟ ما ذنبك انت ؟ عندما تلدين يتلقى الطفل هذا العار ويحمله طوال حياته . كلا ، لن اسلم نفسى . تسألين : ما العمل ؟ افلا اعذب انا نفسى بهذا السؤال : ما العمل ؟ فلننتظر قليلا ، ولا بد من ان تنكشف الغمة . قد اذهب الى لينا فعلا . وقد لا اذهب ، يمنعنى الخوف فلن اذهب . فانا ، يا ناستيونا ، اخشى الابتعاد عنك . ولا استطيع العيش الا بقربك . استيقظ فى الصباح وافكر : ماذا ؟ هل نهضت ناستيونا من النوم الآن ام لا ؟ اتجول فى النهار وافكر : اين ناستيونا الآن ؟ هل تذكرنى بكلمة طيبة ؟ واقول : اصبرى ، يا ناستيونا ، اصبرى . واعقدى لسانك . فالله يعلم ماذا يحدث لو اخبرت احدا . انك فى الواقع لست زوجة لى . فالزوجة تعيش مع زوجها فى بيت . انك ، بالنسبة لى ، العالم كله . وكل شىء متوقف عليك وحدك .

– لا تقل ذلك ، يا اندرى ، لماذا تتكلم بهذا الشكل ؟ – التصقت به وامتلأ قلبها بفرحة متعثرة قلقة كشخص ضل السبيل فلا يعلم هل هو الشفق يسود السماء الآن ام الغسق ؟

– طال صمتى واريد ان اتكلم . هل تتذكرين كيف حششنا العشب قرب المستنقعات وراء النهر فى مولد الرسول ايليا ؟ اعتقدنا بان الحشيش فى مرجنا قليل فتوجهنا الى هناك . الجو خانق والذباب يؤذينا ، ولا مجال لتحريك المحش بطلاقة ، والارض متموجة وعرة . والاسوأ من ذلك اننا لم نكن نعرف هل يجب ان نحش ام لا . فاليوم عيد ، ولكن الناس لا يعيّدون ولا يعملون . والرعد يكاد يدوى كما هو المعتاد فى مولد الرسول . هل تتذكرين ذلك ؟

– اتذكره ، كيف لا ؟ كان هذا فى آخر صيف قبيل الحرب .

وفى ذلك الصيف تركت دورة المحاسبين وشغل اينوكينتى ايفانوفيتش مقعدك .

– اجل . كنا غاضبين على بعضنا البعض ، ولا ندرى لماذا . تطلعت اليك وفكرت : ماذا عساى ان اقول لها حتى تنتحب ، ثم اسلط غضبى عليها وارفه عن نفسى . وانت ايضا رمقتينى بطرف العين وشفتاك مزمومتان . لم يتصور احد منا ان بالامكان ترك هذا العمل الى الشيطان والعودة الى القرية . كلا ، بقينا صامتين مهمومين لاهثين . وفجأة تساقط المطر رذاذا رقيقا دافئا من كل الارجاء بدلا من الزوبعة المتوقعة . تساقط المطر ولا ندرى من اين . فلم تكن هناك ولا سحابة واحدة . فى البداية كانت السماء صافية كالبلور . وفيما بعد عتمت واكفهرت . توقفنا وتطلعنا الى بعضنا البعض . هل تتذكرين ؟ وكنا مسرورين جدا لتساقط المطر ولاننا وحيدين ، انا وانت ، ولان الوقت لم يكن كافيا لندخل فى شجار . وخيل الينا ان شخصين آخرين ، غيرنا ، كانا هنا قبل لحظة ، اما نحن فنلتقى لاول مرة . حدث هذا التغير المفاجىء لدينا كلينا ، وليس لدى واحد منا فقط . ولا ادرى ما السبب . فهل من المعقول انه المطر وتوقف العمل ؟

– ثم ذهبنا الى حقل الحمص . . .

– ذهبنا الى حقل الحمص فيما بعد . القى كل منا بالمحش وتعانقنا . والمطر لم يكن بليلا ، حتى لكانه يذوب قبل ان يصل الى الارض . كان كدخان المباخر . ولعله هو الذى سحرنا . ثم دعيتنى انت الى حقل الحمص . كنت مستعدا لاتبعك الى اى مكان . ذلك ما اتذكره جيدا الآن . . .

– اندرى ، هل نحن اللذان نجلس هنا الآن ، ام الآخران اللذان كانا يحشان الاعشاب ؟

اثقلت عليه فكرة بعيدة فمال راسه على كتفه وقال متأملا :

– لا ادرى . ربما شخصان غيرنا وغيرهما . كانت هناك حرب . . . وكان كل شىء . كلا – انتفض فجأة – اننا نحن ، نحن الجالسان الآن ، يا ناستيونا . والا لما تذكرت . نحن . فلم يتلاش ذلك بدون اثر . وما كان بيننا ليس سيئا على الدوام ، فقد كانت هناك اشياء طيبة ايضا ، اليس كذلك ؟

– لماذا نتذكر السيئات ؟

– يجب ان نتذكر كل شيء يا ناستيونا ، كل شيء . ولكن السيئات كالعورة فلا موجب للكشف عنها دون سبب .

– وهل تتذكر ؟ . .

غرقت فى عالم الذكريات الساحرة التى لامست شغاف قلبها برقة وحنان . فلم تعد تلاحظ شيئا : لم تلاحظ ان اندرى مهمل مشعث قذر . فهو حبيبها الذى عرفت معه حياة الفرحة والسرور ، الحياة الوحيدة المفعمة ، على ما يبدو ، بالسعادة والهناء . ولم تنتبه ناستيونا الا بعد ان هبطت الشمس ، قبيل المغيب ، على الغابات فى الجانب الثانى من النهر ، وتكثف الهواء واسودت الخضرة وبردت . اهتز امام عينى ناستيونا غصن شربين لا تعرف مصدره ، وتفتحت براعمه المعوجة القبيحة ، كالثآليل ، عن وريقات ابرية انيقة . جلس اندرى الى جانبها وتعالت انفاسه المتعبة . وانتبهت هى على نفسها وقالت مرتعبة :

– يا الهى ، لا يجوز لى ان اعود الى البيت بدون اغصان الصفصاف . هل معك سكين على الاقل ؟

– نعم .

– فلنذهب بسرعة .

لم تلتفت الى مغزى سؤاله وهو يودعها ، ولم تفهمه الا بعد حين :

– خبرينى ، يا ناستيونا ، ألم يقتل احد من ابناء القرية منذ ان ظهرت انا هنا ؟ ألم تصل اشعارات بالوفاة ؟

– منذ ان ظهرت انت ؟

– نعم .

– لا اعتقد . كلا ، لم تصل . آخر اشعار وصل فى الخريف بخصوص فولوديا سوموف .

– عجيب .

كان يبحث لنفسه عن جريرة اصغر . فراحت ناستيونا تفكر : لماذا ؟ ولاى غرض ؟ ألاجل نفسه فقط ، ام انه يفكر بشيء آخر ؟

بعد بضعة ايام جاءته ناستيونا من جديد ، مستخدمة هذه المرة قاربهم الذى انزله ميخيتش الى الماء فى آخر المطاف . بدا المطر يتساقط منذ الصباح رذاذا باردا شريرا ، فتوقف العمل فى الحقول . ارادت ناستيونا ان تحرث بستانها الذى لم يفعلوا فيه حتى الآن سوى تمهيد التربة للخيار ، ولكن المطر حال دون ذلك ايضا ، فتبللت دون جدوى وتعكر مزاجها . وكيلا يضيع النهار كله جزافا عزمت على الذهاب اليه لتسلمه الكلة التى حصلت عليها بشق الانفس ، ولتحمل اليه قنينة الدهان المستخدم فى طرد البرغش والبعوض ، ولتزيل عن روحها قيدا من قيود الكآبة . فرحت لعدم وجود ميخيتش فى المنزل فلا داعى للايضاحات ، وزعمت لسيميونوفنا بانها ذاهبة لصيد السمك . فسيميونوفنا متذمرة طوال الوقت : «الجميع يشيدون الشمك ، اما نحن فلم نر ذيل شمكة من انغارا فى هذا الموشم» . وقالت ناستيونا انها «ذاهبة» دون ان توضح هل ستستخدم القارب ام لا . فهذه الكلمة تحتمل المعنيين . ولم يتسن الوقت لسيميونوفنا كى تجيب ، لم تتمكن لا من منعها ولا من السماح لها . فقد انصرفت ناستيونا على عجل وتوجهت الى النهر بخطى متسارعة . المجذافان فى مدخل الحمام ، وهناك ايضا عدتان قديمتان لصيد السمك ملفوفتان على عودين خشبيين . اخذتها ناستيونا وهبطت بسرعة الى الماء ودفعت القارب . وبدلا من ان تتجه الى اعلى راحت تجذف بشدة دافعة القارب الى الاسفل مع التيار . وبعد خمس دقائق ، عندما اختفت القرية عن الانظار وراء حجاب المطر الضبابى المترجرج ، استدارت بالقارب فى عرض النهر .

ظل المطر يتساقط بهسيس متخم مكتوم وهو ينغرز فى ماء النهر الذى بدا بلون الفولاذ الرصاصى الكابى . ولاحت الجزيرة مائعة مرتفعة كانها سحابة منخفضة او بقعة وسخة . وكانت السماء مائعة هى الاخرى ، ولعل من الافضل القول بانها لم تكن موجودة اطلاقا . فقد انزلقت الى مكان مجهول ، كما تنزلق الشمس ، وحلت محلها عتمة الغسق . تذكرت ناستيونا انها كانت تسير هنا فوق الجليد وسط العاصفة الثلجية الشديدة الرطبة فى آذار . الزمن يمر ، اما

هى فلا يتغير شيء فى حياتها . انها تبحث فى الشتاء والصيف عن الاحوال الجوية السيئة لكى تصل الى نفس المكان ولنفس الغرض . انها ترتدى مشمعا فوق البلوز ، ولكنه مشمع محكوك من زمان ولا يحميها من المطر . فالماء يسيل على ظهرها بعد ان يتجمع ويتدفأ . وهى تشعر بالتقزز من مسيلاته الدافئة . وعلى لوحى الكتفين التصق البلوز المبلل بالجلد ، فاثار تقززها ايضا . وهى تحرك ظهرها بين الحين والآخر ، وتحكه مقطبة الجبين ، فيضطرب جذفها .

عبرت نهر انغارا وبحثت عن الجدول حتى عثرت عليه وادخلت القارب فيه ودفعته مسافة بعيدة الى اعلاه وتركته تحت شجرة بتولا باسقة حانية على الجدول ، بحيث تستر القارب عن الانظار وتحميه من فائض الامطار . اخذت معها لفة صيد وتركت اللفة الثانية فى القارب . وعندما نزلت الى الشاطئ تنفست الصعداء ، فقد وصلت ، وخيل اليها انها وصلت بلمح البصر . ولكنها اخذت معها اللفة لانها تعرف ان عليها ان تعود فيما بعد . فقد انقلبت الامور لديهما رأسا على عقب . لا يجد الانسان صعوبة فى العودة حسب آثاره ، فالصعوبة فى السير الى الامام . اما هما فبالعكس . هل يتمكن اندرى من العودة الى حيث اتلف حياته ؟ وهل تتمكن هى ، ناستيونا ، ان تعود الى ما كانت عليه قبل ستة شهور ؟ كم ستكون عسيرة عليها العودة فى النهر اليوم . فان انغارا نفسه سيبدو لها اعرض بخمس مرات ، وسيبدو لها المجذافان اثقل من ذى قبل ، كما ستبدو لها نفس المياه اكثر عمقا ورعبا . ماذا لو رفضت العودة وظلت هنا فى المكان اللائق بها ومع الشخص الذى يجب ان تبقى معه كيلا تتظاهر وتمثل وتخادع وتكذب ، وكى تعيش بحرية وطلاقة على سليقتها .

هبطت الى النهر من جديد وفكت اللفة على الشاطئ الصخرى حيث المجرى سريع مستقيم . الآن بالذات موسم الصيد بهذه العدة ، فبعد اسبوع او اسبوعين عندما يغدو ماء النهر شفافا وياخذ مجراه الطبيعى لن تصلح للصيد . فى العام الماضى تمكنت ناستيونا ، بعد ذوبان الجليد ، من صيد السمك مرارا على شاطئهم ، فعادت الى البيت ببنيات وبوريات . ميخيتش ، شانه شان سائر الشيوخ ، لا يعترف الا بالسلال المخروطية وسيلة لصيد السمك ، ولذا

انصرف عن الانواع الاخرى لصيده . اما هى ، ناستيونا ، فتكفيها اليوم سميكة واحدة ، اصغر بنية لذر الرماد فى العيون . فالامر الاهم هو وجود عذر تتحجج به ، وليس مهما اذا كانوا سيصدقون به ام لا . فكل شيء يسير الى نهايته فى جميع الاحوال . نبشت ناستيونا التربة الذائبة وقلبت الجذوع المرمية على الشاطئ الترابى الاسود الذى برزت من تحته جذور الاشجار فعثرت على ديدان شكتها على الصنارات والقت بالعدة الى الماء بثقل الحجر الذى شدتها اليه . يا الهى ، ابعث لى باسماك كبيرة وصغيرة . عندما انصرفت ناستيونا فكرت بانها اذا لم تصطد ولا سمكة واحدة يتعين عليها ان لا تنتزع بقايا الطعم من الصنارات ليكون ذلك شاهدا على انها مارست صيد السمك حقا ، ولم تنشغل بعمل آخر . فان خيال ميخيتش يمكن ان يتصور اى شيء .

ظل المطر يتساقط مملا رتيبا . وخيل لناستيونا انها تسمع هسيس سقوطه على الارض وكانه انين متلاحق . كانت الاعشاب الرقيقة اليافعة تتلقفه بصمت ، وعلى الاشجار ترتعش الاوراق مرتجفة ، وعلى النهر خيم ضباب مطبق بليل كما فى الخريف . تململت السماء وتموجت ، او خيل لها انها تململت وتموجت امام العينين اللتين لا تطيقان الفراغ . لم تكن ناستيونا قد رأت الكوخ العلوى فسارت على غير هدى . سارت فى البداية على حافة الشاطئ فى درب عتيق مهجور دلت عليه رقعات طولية عارية وسط الاعشاب ، ثم استدارت نحو السفح . كانت تتصور بانها ستعثر فى الحال على الاماكن التى عمل الناس فيها سابقا . بيد ان الفسحات كثيرة على السفح ، ولم يكن واضحا هل هى فسحات دائمية ام هى حقول مهجورة ؟ سارت من فسحة الى اخرى ، ومن هذه الى ثالثة ، وهى تصعد الى اعلى ، ومع ذلك لم تر الكوخ . مجال الرؤية فى المطر ليس بعيدا ، فهامت على وجهها امدا طويلا قبل ان تعثر على نبع وتسير فى مجراه هابطة حتى رأت امامها مباشرة ، وراء غابة الحور المخلخلة ، سطح الكوخ الاسود المتهرئ من الامطار والزمن . وكما فى المرة السابقة طرقت ناستيونا على النافذة وصاحت فى الحال كى يعرف اندرى صوتها ولا يرتعب . هرع اليها هذه المرة ايضا وادخلها الكوخ وساعدها فى خلع ملابسها المبللة . بيد ان

الحديث اليوم سار على غير ما سار عليه فى اللقاء الاخير عندما جاءته ناستيونا بعد انقطاع طويل وتلاقيا على الشاطئ .

ناستيونا هى المذنبة فى ذلك . فعندما استمعت الى اندرى انساقت له وصدقت بان كل شىء هو بالفعل كما يقول وانه ليس لديهما الآن اى مخرج آخر غير اختبائه هنا وسكوتها هناك – سكوتها باسنان مصطكة ، حيث تخترق هى الايام ، كما تخترق صخورا مسننة ، نحو مخرج غامض مجهول قد يؤدى الى الخلاص . ولكنها حالما تظل لوحدها ينتابها اليأس والقنوط ويحز فى فؤادها الم فظيع : فماذا يفعلان ؟ ماذا يفعلان وبماذا يأملان ؟ فالحقيقة لا بد وان تظهر ، وليست هناك قوة بقادرة على حجبها . ستنبت عبر الصخور فى اعمق واسرع بقعة وسط نهر انغارا وستظهر من الماء شجرة ناطقة . افليس من الافضل لاندرى ان يغادر مخبأه ويسلم نفسه ؟ المؤمنون يعتقدون بان السماء تفرح لتائب واحد اكثر مما تفرح لعشرة عباد صالحين . والناس لا بد وان يفهموا ان الذى انحدر الى منزلق هذه الخطيئة لا يصلح لاقتراف الخطيئة فيما بعد . عندما رأت من جديد وجه اندرى المتهدل الاشعث لحد القبح وكانه مكسو بالطحالب ، وعينيه الغائرتين الحادتين المعذبتين بالآلام ، وقامته المحدودبة المرتابة ، وملابسه الوسخة ، ووجدت نفسها ، بعد المطر ، فى كوخ معتم رطب يملؤه الهواء الفاسد الخانق برائحته المرة – عندما رأت ذلك وتحسسته اخترق كيانها كله الم جديد . وسألته دون ان تتمكن من اخفاء انفعالها :

– الا تدفئ الكوخ ؟

– لا يوجد فيه فرن للتدفئة – اجاب بحذر بعد ان شعر بتعكر مزاجها .

وقالت ناستيونا بكآبة مريرة جعلت عروق دماغها تدق وتغور واحالت بدنها الى كيان خاو تصفر فيه الريح :

– اندرى ، أليس من الافضل ان ننهى هذه الاوضاع ونخرج الى العالم ؟ انا مستعدة للذهاب معك الى اى مكان حتى الى الاشغال الشاقة . فاينما تذهب اذهب . اننى لا استطيع ان اعيش على هذه الصورة بعد الآن . وانت ايضا لا تستطيع . تطلع الى نفسك ، باى

حال انت ؟ وكيف تبدلت ؟ من قال لك بانهم يعدمونك رميا بالرصاص ؟ الحرب انتهت . . . وفى كل بيت ماتم . . .

تكلمت على عجل ولاحظت كيف يبتعد عنها وجه اندرى ويكتسى بابتسامة شريرة جامدة مستغربة . وقال :

– تريدين ان تتخلصى منى ، آ ؟ هيا ، واصلى مساعيك .

– اندرى ! – خاطبته مرتعبة .

– ستتخلصين ، يا ناستيونا – واصل كلامه وهو يقلب صوته ويحوره ويضفى عليه مسحة من التهدئة والمؤاساة – بالطبع ، تعبت ، فكم يمكنك ان تتحملى ؟ افليس عندى ضمير ؟ علىّ ان افهم ذلك بنفسى . ستتخلصين ، يا ناستيونا ، ولكن ليس بالشكل الذى تعدين له . تقولين انك مستعدة للذهاب معى ؟ – قال بمزيد من السخرية فغدا صوته اقوى : – انت تعرفين بانهم لن يوقفوك بجوارى امام جدار الاعدام . سيعطفون عليك . اما علىّ فلا . سيعطفون عليك بسبب بطنك على الاقل . وستذهبين ، يا عزيزتى ، لوحدك وتريحين ضميرك . فما اروع ذلك .

– كفاك هذرا يا اندرى ، اسكت . كيف لا تشعر بالخجل لمثل هذا الكلام ؟

– ساخلصك ، يا ناستيونا ، منى بنفسى . قريبا ، قريبا جدا ، ولن يطول انتظارك . فانا لا انوى تعذيبك بهذه الصورة طوال حياتك . اننى مستعد للقيام بذلك ولو غدا ، بل وحتى الآن . ها هو النهر . ولن تكون هناك حاجة للدفن . لدى حبل محفوظ . ذهبت الى الطاحونة قبل ذوبان الجليد واخذت حبلا متينا منها يتحمل خمسة اشخاص . سأقفز من قاربك ، وسترين بانى سأفطس ولن اعوم . ستعبرين النهر من كل بد ، وبوسعك ان توصليني ، وسأساعدك فى الجذف الى منتصف الطريق .

ضغطت ناستيونا يديها على صدرها وكانها تحمى نفسها وهزت راسها كيلا تسمع كلامه ولا تفهمه ، وراحت تستعطفه :

– لماذا تعذبنى ؟ لماذا ؟ ما الذى فعلته لك ؟ كنت افكر فى الافضل . . . فانا لا اريد اقناعك ، اننى لست واثقة . قلت ما خطر ببالى لا غير . اما انت ، فماذا تقول ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

– لا داعى لاقناعى ، فانا اعرف بنفسى . قلت لك منذ اليوم

الاول : كلا . ولن تدفعيني الى التراجع عن قراري ، فلا تحاولي . لن تنجحي ! – صاح بها ولم يعد يتمالك اعصابه وانهال عليها بحقد جعلها تنصعق مبهوتة . – ما اطيبك ! تريدين الافضل . انا اعرف ما تريدين . فكرت بكيفية التخلص مني . ربما لم تنامي الليل وانت تفكرين بذلك . فتوصلت الى حل لا افضل منه . واحضرت الكلة كيلا يلسعني البعوض عندما يقيدون يدي ورجلي ، لست بحاجة الى كلتك . ولست بحاجة الى شيء بعد الآن . فقد ارهقك نقل الحاجيات . كفاية . يجب ان ترتاحي . ولا تحضري هنا بعد الآن ، فلن تجديني . حقا ، صرت عالة على هذه المرأة ، عبئا ثقيلا على رقبتها ! ولكن تذكري مرة اخرى : اذا اخبرت احدا باني كنت هنا سأجدك مهما كلف الثمن . سأقوم من القبر واطالبك . تذكري ، يا ناستيونا .

خطت نحوه في محاولة لوقفه وتهدئته ، فلوى عنقه في الحال وانطبع على وجهه قناع متقزز وغاص راسه بين كتفيه . وطلبت منه باصرار ضعيف :

– انظر الىّ يا اندري . انظر . كلا ، انظر ولا تلو وجهك . انظر وقل لي : هل اشبه تلك التي تتحدث عنها ؟ سامحك الله ، يا اندري ، على ما ابتدعته . قل لي : هل اشبهها ؟

– ماذا ؟ هل عليّ ان اعتذر منك ؟ واركع عند قدميك طالبا الصفح والغفران ؟ ام ماذا تريدين مني ان افعل ؟

– لا داعي للاعتذار . وانا نفسي مستعدة للركوع كيلا تتكلم بهذه الصورة . لا تصدق نفسك، لا تصدق ما قلت ، ولا تخدع نفسك . كيف تتصور باني استطيع ان افعل ما لا تريده انت ؟ كيف تتصور يا اندري ؟ لا داعي لذلك ، لا داعي . . . انظر الىّ جيدا ، فهل انا كالتي تحدثت عنها ؟ هل من المعقول انك لا ترى ؟

وعضت على شفتها ، دون ان تحيد ببصرها عنه ، كيلا تنتحب ، وارتعشت من العبرات المنفلتة التي اختنقت بها وهي تحاول حبسها بكل قواها .

ودمدم هو مشيحا بوجهه المتحير ومسلطا على كل ما حواليه حقدا اسود اعمى :

– لا تصدق نفسك ، وصدقها هي . . . عظيم !

ثم لاذا بالصمت امدا طويلا . نهضت ناستيونا كي تنصرف ، اما هو فلم يتزحزح من مكانه . ظل واقفا دون ان يودعها .

صبرت فترة قصيرة : ثلاثة ايام لا غير . وانتهزت اول فرصة سانحة فدفعت القارب الى الماء دون ان تخبر احدا . لم يعد بمقدورها ان تبقى مع المجهول فلا تعلم بما اذا كان حيا ، موجودا هناك ، ام لا وعندما طرقت على النافذة ليلا ، في الظلام ، وخرج من الكوخ ووقعت عليه عيناها هرعت اليه وعانقته وهي تكاد تطير من الفرح لرؤيته هنا ، حيا ، دون ان تحمل عليه غيظا . حنا عليها وكاد يبكي للقاء واعرب عن اسفه الشديد وقال انه احمق ورجاها الا تزعل منه ولا تصدق بما قال ، واكد بانه صمم على ان يسرق قاربا ، لو لم تات هي ، ويتعقبها لكي يطلب العفو منها . ذاب فؤاد ناستيونا لكل هذه الاقوال ورقت عواطفها ولم تعد تسيطر على خلجات نفسها فوعدته :

– اعلم بانك اذا انتحرت ، سانتحر انا ايضا .

٢٠

ثم تلاحقت الاحداث وكانها تتدحرج من سفح جبل ، من سفح شديد الانحدار .

سخنت ناستيونا الحمام يوم السبت وواربت بابه ، ثم ذهبت لتستحم قبل الآخرين لعلمها بان سيميونوفنا لا تحب البخار الشديد في اول التسخين . ولكنها حالما بدات تغسل راسها بالصابون (كانت ليزا فولوغجين قد حصلت عليه فاعطتهم نصف صابونة سوداء) جاء شخص ما وراح يخلع ملابسه في مدخل الحمام . توقفت ناستيونا عن الغسيل لتسترق السمع ، فبلغها لهاث حماتها . اسرعت ناستيونا لتغسل رغو الصابون عن راسها كي تترك الحمام حالما تدخله سيميونوفنا وتدعي بانها اغتسلت ، لكنها عدلت عن رايها . فما دامت حماتها قد جاءت لوحدها فهي لن تسمح لها بالانصراف . كلا ، لا بد مما ليس منه بد . ما اسوأ الحظ الذي جعل العجوز تاتي الآن . فهما لم تستحما معا ولا مرة واحدة . جاءت عمدا وكانها تعلم بان احدا هنا لا ينتظرها ولا يريد رؤيتها . من يدري ؟ ربما

جاءت عمدا بالفعل . لعلها تعرف الحقيقة . ربما راقبتها مسبقا وقررت ان تتثبت من القضية . واذا كان الامر كذلك فستنفجر القنبلة . انزوت ناستيونا فى الركن وتسترت بالطست وحاولت سحب بطنها الى الداخل . ولكن الى اين تسحبه اذا كان متهدلا ، واين تخبئه اذا كان موجودا ؟ كلا ، فهو بارز ، ظاهر للعيان ، ولا جدوى من المحاولة .

الا ان الامور مرت بسلام ، ويا للعجب ، هذه المرة . فلعل سيميونوفنا لم تلاحظ شيئا ، او لعلها لاحظت ولم تصدق فنسبت سمنة كنتها الى سبب آخر . ومع ذلك حطت نظرتها العنيدة البراقة على ناستيونا مرتين او ثلاثا اثناء الاستحمام ، وعند ذاك سحبت ناستيونا بطنها وانكمشت بكل ما تستطيع حتى اصطك فكاها . وفيما بعد ، عندما ارتدت ملابسها وخرجت ، شعرت بالأسف : ما الداعى لاخفاء ذلك ؟ الوقت مناسب تماما لتفعل العكس ، لتعرض ما لديها ، واذا سألتها سيميونوفنا تخبرها بالحقيقة . ولعل من الافضل ان تسمع الحماة بالنبأ منها ، من ناستيونا ، وليس من الغرباء . من يدرى ؟ قد لا تصب الماء المغلى على ناستيونا اذا سمعت بالنبأ . اما اذا اكتفت بالصراخ والهياج فذلك افضل بالطبع . وسوف تتخلص ناستيونا اخيرا من هذا التوقع المتواصل ومن هذا الخوف الذى لا يطاق والذى يشتد ويغدو اكثر فظاعة بمر الزمن .

الا ان قصة الحمام لم تمر دون اثر بالنسبة لناستيونا . فقد صارت سيميونوفنا مذ ذاك ترمقها بنظرة شزراء ، بطرف عين ثاقبة واحدة شبه مغمضة . ناستيونا تعرف ان هذه النظرة لا تبشر باى خير . وهى تعنى بالتاكيد ان العجوز احست بشىء . وبدأت مطاردة حقيقية . فالحماة تنهض فى اليوم الواحد عشرين مرة ولم تعد تختلس النظر ، بل تسلط نظرات مباشرة على الجهة المقصودة ، ولكن ناستيونا تتخفى : تارة تنسل على جنبها ، وتارة تسير مغطية بطنها بيديها او مرتدية سترة اندرى الفضفاضة ، وتارة تنحنى دافعة بصدرها الى الامام . اما بطنها فاخذ يرتفع فى الآونة الاخيرة كالعجين المخمر ، ولا تجدى اية حيلة فى اخفائه .

ذات مساء ، انفردت سيميونوفنا بناستيونا ، وكانت كل منهما مشغولة بشؤونها : ناستيونا بشؤون الحوش وسيميونوفنا بشؤون

داخل المنزل ، تظاهرت الحماة بانها ترى بطن ناستيونا لاول مرة وسألتها صراحة :

– هل انت حبلى يا امراة ؟ لماذا تهدل بطنك ؟

كاد قلب ناستيونا ينفطر : دقت الساعة . تلك هى العتبة امام طريق العذاب ، فاجتازيها ، يا ناستيونا . لم يعد هناك مجال للانكار والتستر . اجابت ناستيونا بنفس الكلمة بعد ان قلبتها على صفحتها الصلبة الاخرى :

– حبلى .

– و . . ا . . ه ! – هتفت سيميونوفنا بدهشة ، بل وبشىء من السرور لان الشكوك لم تراودها عبثا ، ثم نهضت فجاة على قدميها المريضتين وصرخت بهياج مسعور مخنوق ، وظلت طويلا عاجزة عن تلفظ اية كلمة ، وراح راسها يهتز . ثم تمكنت اخيرا من تلفظ كلمة «كلبة» على نحو غامض لم تفهمه ناستيونا فى الحال . فان حماتها لم تستخدم الشتائم فى الماضى مطلقا . واخذت تولول ممسكة براسها :

– اوى ، اوى ! يا عيب الشؤم ، اوى ! يا الهى ! يا مريم العذراء ! عاقبيها ، عاقبيها فى الحال . خانته ! لم تنتظره ! تعيش عندنا هادئة ، الكلبة بنت الكلب ! شياتى اندرى ، وشيجدها ، هذه الكلبة ، حبلى . . . الا تخجلين ؟ اين حشمتك ؟ ماذا فعلت بها ؟ ادعو الله ان تنمو الديدان فى بطنك ! وان يبقيك حبلى الى الابد ! فما احشن ذلك ، ما احشنه ! – ارتعبت سيميونوفنا نفسها من لعناتها ، فتوقفت وغصت بريقها ، ثم سألت بأمل اخير : – الا تكذبين ؟ ربما لا يوجد شىء ؟

– موجود . – قالت ناستيونا بعجز ثقيل وهى تعلم ان الجواب على نحو آخر غير ممكن ، وابرزت بطنها عفويا الى الامام .

– موجود – تلفظت سيميونوفنا بأنين – تقولين موجود وكانما ذلك شىء عادى . ولن تختنقى بالعار . ابدا . الشت قطة ؟ الشت قطة دنيئة فاجرة ؟ – عثرت على كلمة جديدة وصاحت بها كما تصيح على القطة وهى تشير بيدها الى الباب : – كش ! اتركى المنزل يا فاجرة ! اذهبى كيلا تبقى رائحتك العفنة . اخرجى فورا . اذهبى من اين جئت . واذا وشل اندرى ماذا شنقول له ؟ من آوينا ؟ ومن

اطعمنا فجلب علينا العار ؟ يا الهى ! شتعرف القرية كلها ، شتعرف القرية . عرفت معدنك من اول يوم ، عرفت من انت فى الحال . ذهبت وعدت لنا بهذا ! اخرجى والا ضربتك بهذا الملقط . اذهبى كيلا يبقى اثر من رائحتك هنا .

خرجت ناستيونا خالية الوفاض . وعند المدخل التقطت دلوا كانت قد جلبت فيه الماء للعجل ونسيته على درجة المدخل بسبب الاستعجال ثم وضعته فى مكانه على المصطبة . وظلت اللعنات تدوى وتتطاير من المنزل . وقفت ناستيونا وكانها لا تفهم ولا تصدق بان تلك اللعنات موجهة اليها وبانهم طردوها من المنزل فعلا ، ثم فتحت بوابة السياج مترددة ومتباطئة وهى تنتظر شيئا ما . كان الصبية يلعبون فى الفسحة القريبة لعبة الاوتاد وبينهم رودكا . سألته ناستيونا عما اذا كانت امه فى البيت ام لا ، فاجابها بانها فى البيت على ما يعتقد . فتوجهت ناستيونا الى نادكا ، فليس لديها من تذهب اليه غيرها .

لم تشعر بالغيظ على سيميونوفنا . حقا ، فما الداعى للغيظ ؟ ذلك امر متوقع . ولكن ناستيونا كانت حتى اللحظة الاخيرة تعتقد بان الحقيقة يجب ان تظهر بشكل ما وتحميها من هذا الجور ما دامت ليست مذنبة فى شىء . لم تكن تبحث عن الحق – فليس من الممكن الآن التفريق بين الحق والباطل ، ثم انها من زمان تاهت بينهما – ولكنها كانت تنتظر ادنى مشاطرة من حماتها ، وكانت تتوقع منها ان تدرك بصمت وحدس ان الطفل الذى اعلنت الحرب عليه ، ليس غريبا عليها . فهل يعقل ان دم العائلة لم يهمس فى اذنها بشىء ، ولم ينبض فى فؤادها نبضة مدركة حصيفة ؟ فكيف يمكن التعويل على الآخرين اذن ؟ ما هو الدمل الذى اختزن طويلا واستنزف صبرها وقواها ينفجر فى الاخير ، وليس لديها ما تغطى به جرحها . فهل يساعدها فى ذلك اقناعها لنفسها وتعليلها البسيط بضرورة تحمل كل شىء من اجل ما سيتحقق فيما بعد ؟ وماذا يمكن ان يتحقق فيما بعد مما يستحق التحمل ؟ كلا ، لا يمكن توقع اى خير ، مطلقا .

ظل قلب ناستيونا مخطوفا غائرا يبعث نبضات ضعيفة من الاعماق . ولعلها صارت تكتفى بالقلب الذى ينبض فى صدر

جنينها . فهى لم تعد مهتمة بنفسها اطلاقا . وما يعنيها الآن هو انقاذ الطفل وحمايته من الآلام التى انهالت عليها ، وحمله سليما معافى حتى ذلك اليوم الذى يتعين عليه ان يخرج فيه الى العالم . فقد يعطف الناس عليه عندما يرونه ، عندما يتسنى لهم ان يروه بالفعل ، فلا يطردونه كما طردوها الآن من بيتها الذى غدا عزيزا عليها بعد ان عاشت فيه ثمانى سنين . انها ليست متألمة لهذه النتيجة ، كلا ، ابدا . انها تشعر بالخجل لا اكثر ، وبالخجل ليس من اجل نفسها ، فهى تعرف دربها وقد تعودت عليه ، بل لان ذلك حدث ولانه بلغ حدا جعلها تطلب من الناس ايواءها لتبيت ليلها . وليس بوسعها ان ترحل فهى مقيدة بقيد مزدوج من اليدين والرجلين ، وليست هناك جهة يمكن ان ترحل اليها . انها وحيدة ، وحيدة تماما .

جاءت الى نادكا واسندت بدها المرهق الى ضلع الباب دون ان تجرؤ على الدخول ما لم توافق نادكا . من يدرى ؟ ربما ترفض هى الاخرى ايواءها . من اللازم الآن معرفة كل شخص من جديد : فحالما يتزحزح المرء من مكانه الذى تعود الآخرون على رؤيته فيه ، تتغير كل المواقف ازاءه ويغدو الناس مستعدين لاطلاق اسم جديد عليه . سألتها نادكا المنهمكة بتسخين الفرن :

– ماذا بك ؟ تعبانة ؟

– هل تسمحين لى بالعيش عندك فترة ؟ – بدأت ناستيونا فورا وهى عاجزة عن اطالة امد الحديث او الاستعداد له .

– لمن ؟ لك ؟

– لى .

تطلعت اليها نادكا باهتمام بعد ان همت برفض طلبها :

– ماذا حدث ؟

– طردونى .

– طردوك انت ؟

اشارت ناستيونا الى بطنها :

– الا ترين ؟

– ما . . . ذا . . . ا . . . ؟ – قالت نادكا باستغراب شديد : – حقا ؟ من اين لك ؟ تمهلى ، تمهلى – هرعت اليها نادكا

واجلستها على التخت ، وظلت واقفة امامها منحنية عليها – عجيب . ماذا يجرى فى العالم الآن ؟ يبدو انك حبلى حقا . ولا احد يدرى . . . من اين لك ؟ كيف تجرأت ؟ نبأ مثير جدا . سوف يذيع صيتك فى كل الانحاء . من الذى فعل ذلك بك ؟

– الروح القدس . – ناستيونا مستعدة للتضحية باى شىء كيلا يسألوها ولا يعذبوها ولا ينهشوها ، كى يتركوها وشأنها . فقد ملت الى حد الغثيان .

– الروح القدس بالطبع – حاولت نادكا ان تجد مدخلا الى صلب الموضوع – ولكن معرفته تثير الاهتمام . واذا كان سرا فلا داعى لافشائه طبعا . لم يكن هناك ولا رجل واحد على ما اعتقد . فمن اين جاء ؟ كلا ، حدثينى راسا بدون لف ودوران . فلربما اريد انا ايضا ان اجرب هذا الروح القدس .

– لن تلحقى به يا نادكا . – صممت ناستيونا على الافصاح عارفة بانها لن تحتاج بعد الآن الى ان توضح شيئا للآخرين ، اذ يكفى ان توضح لنادكا وحدها . كانت تشعر بالتقزز ، ولكن ليس فى الامر حيلة ، عليها ان تقول شيئا ما . فليست تلك هى المرة الاولى التى تتحمل فيها الخطيئة ، ويبدو انها ليست المرة الاخيرة . – هل تتذكرين المفوض الذى جاءنا وجمع الاكتتاب على السندات ؟

– ثم ماذا ؟

– كيف تسالين : ثم ماذا ؟ – قالت ناستيونا بغيظ – ربطنا الحصان بالزحافة وانطلقنا و. . . عدت به . فهل تلك قضية صعبة على الذين يجيدونها .

– ليست صعبة ، اطلاقا ، انا اعرف ذلك – وافقتها نادكا على عجل – المصاعب تاتى فيما بعد . ما اغربك ، يا ناستيونا ! كنت تتظاهرين دوما بالحياء ، وتتورد خدودك من ذكر هذه الاشياء . ها هى المستحية . ماذا ستفعلين فيما بعد ؟ واذا جاء اندرى ؟ سيقتلك حتما .

– فليكن . لماذا تسالينني : ماذا وماذا ؟ من اين لى ان اعرف ؟ الافضل ان تخبرينى هل استطيع ان ابقى عندك لبعض الوقت ؟ هل تسمحين ام لا ؟

– تستطيعين بالطبع . فالى اين تذهبين ؟ سندافع معا اذا اقتضى الامر . العجوز لن تراف بحالك طبعا . فكل عظامها الآن تطقطق حقدا عليك . قدمت لها حفيدا – لم تصبر نادكا فقهقهت ساخرة – كانت تتعقبك بنظراتها . ولكن هل يمكن تصيد المراة ؟ ان المراة تستطيع ان تخدع حتى نفسها ، فكيف بالآخرين ؟ لم يكن بوسع احد ان يشك بك . ماذا جرى لك يا ناستيونا ؟ تلك مجازفة خطيرة . ستذوقين الامرين . ولكن لا بأس ، سنتجرع المصيبة معا . فانا متعودة . ماذا ؟ هل جئت بلا حاجيات ؟ الم تاخذى شيئا ؟ هل تريدين ان اذهب واحضر حاجياتك ؟

– لا داعى لذلك ، ساذهب بنفسى فيما بعد .

– بنفسك ؟ لقد فعلت بنفسك ما فعلت . لا تحزنى ، فلن يحدث لك شىء . ليس ذلك هو افظع ما فى الوجود . ففى قديم الزمان صادف ان عاشت الكلاب مع الذئاب . سنعيش على اى حال . والا فما قيمة المراة اذا كانت امراة بالاسم فقط ؟ فليولد الطفل ، وسنرى . ولكن ما اسمه ؟

– من ؟

– من . . . من غيره ؟ ذاك الذى اكتتبت عنده على السندات . يبدو انه رجل محنك . هل سالتيه عن اسمه على الاقل ؟

– كلا .

– لم تساليه عن اسمه ؟ حمقاء انت يا ناستيونا . فكيف تلدين طفلا ولا تعرفين اسم ابيه ؟ تلك هى نتيجة قلة التجربة . يجب ان يسجل اسم الاب فى شهادة الميلاد . ولا بد ان يسالوك عنه . ولكن لا بأس ، سنبتدع اسما . وسنختار له افضل اسم لافضل اب ما دام الوقت كافيا .

تاوهت نادكا من جديد وانسلت من الباب . ستعرف القرية بالنبأ على اى حال . فكيف تفوت فرصة الريادة فى اشاعته ؟ ظلت ناستيونا لوحدها ، وانكفأت على التخت واغمضت عينيها واخذ بخناقها الم حارق شديد . كان بودها ان تبكى وتنتحب ما شاء لها ان تنتحب كى تنفث من الداخل هذا الالم الفظيع الذى لا يطاق والذى اجتاح بدنها كله الآن . لكنها خشيت من ان تؤذى الدموع الجنين . فراحت تتقلب على التخت امدا طويلا بانين مستديم على

نفس واحد ، فتنهض قليلا ثم تقع من جديد ، ولم تشعر روحها المعذبة بذرة من الارتياح والهدوء والاستقرار .

فى آخر المساء جاء ميخيتش ودعا ناستيونا ، عن طريق رودكا ، للخروج الى الحوش . جلس ميخيتش على جذع نهشه حد الفاس دون تشذيب ، وظلت ناستيونا واقفة امامه . قدماها لا تقويان على حملها ، ولكنها لا تتمكن من الجلوس ، فهى فى وضعية الوقوف تستطيع ان تتحرك على الاقل ، اما الركود فيثقل عليها . حشا ميخيتش غليونه باصابعه المعوجة المرتجفة واشعله . لم يحصل على النار من القداحة فى الحال . شرق بالدخان وانتابه السعال . فاشاح بوجهه ومال الى الارض واشتد عليه السعال حتى كاد يمزق نياط قلبه . ولم يلتقط انفاسه الا بعد فترة . ظلت ناستيونا تنتظر . فاخذ ميخيتش قسطا من الراحة وسحب عدة انفاس حملت له الهدوء ورفع عينيه المدمعتين نحو ناستيونا وقال مستعطفا مرهقا :

– انه موجود هنا يا ناستيونا . لا تنكرى . فانا اعرف . لا تقولى لاحد ، قولى لى انا وحدى . خبرينى ، يا ناستيونا ، وارحمينى . فانا ابوه .

هزت ناستيونا راسها بالنفى .

– اسمحى لى بان اراه مرة واحدة ، المرة الاخيرة . استعطفك من اجل المسيح ، يا ناستيونا ، اسمحى لى . لن يسامحك الله اذا اخفيت ذلك عنى . . . اريد ان اساله ما الذى يأمل فيه ؟ الم يقل لك ؟ شهدت عائلتنا امورا كثيرة ، ولكنها لم تنحدر الى هذا المستوى . . . انه سافل منحط . الى اى منحدر وصل ؟ . . خذينى اليه ، يا ناستيونا – طالبها بلهجة تقرب من التهديد – استعطفك من اجل المسيح : خذينى اليه . يجب ان اعيده طالما لم يفسد بعد كليا . انت ترين بنفسك : لم يبق مجال للعب والتمثيل . كفاية . ارحمينى ، يا ناستيونا ، ساعدينى . وسيكون الامر اهون عليك ايضا .

هزت راسها من جديد بعد ان فكرت وكادت تنزل عند رجائه :

– عم تتحدث يا ابتى ؟ ما الذى استطيع ان اقوله لك ؟ ليس

عندى ما اقوله . ليس هناك احد . ذلك من خيالك فقط . لا احد هناك .

– لا تكذبى يا ناستيونا – نهض ميخيتش وضرب غليونه على ساقه ضربة خفيفة – على من تكذبين ؟ اردت ان ادبر الامور معك بالتى هى احسن . فمن اين لك هذا البطن ؟ ! منه بالطبع . هل تعتقدين بانى لا اعرفك ؟ ولا اعرف من انت ؟ بوسعك ان تقصى الحكايات والاساطير على العجوز وعلى النسوة الاخريات ، وليس علىّ . والبندقية اعطيتها له ، واشياء اخرى كثيرة . وهذا هو الدليل الاخير – كاد يمس بطن ناستيونا بالغليون ثم سحبه فى الحال – فماذا ستفعلين به ؟ اسالك : ماذا ستفعلين به ؟

كانت تدرك بانه لا ينبغى لها ان تقول ما ستقوله ، ولكنها لم تجد ولا تعرف ما ينبغى ان تقول ، فحاولت ان تنهى الحوار وتقطعه باسرع ما يمكن وتذهب لتهوى على التخت من جديد ، فاخرجت الورقة الرابحة السوداء المخبأة زورا وبلا نزاهة :

– عشت مع ابنكم اندرى اربع سنوات ولم يحدث شىء . اما انت فتتحدث عن الدليل .

تجمد ورمشت جفونه بذعر وهو يتطلع اليها ، ثم استدار وخطا خطوات متثاقلة نحو البوابة . فى تلك اللحظة مر شخص فى الشارع على ما يبدو . فحالما فتح ميخيتش البوابة استدار عائدا ، ولكنه حمل نفسه على الخروج .

٢١

ظلت ناستيونا راقدة امدا طويلا وهى تتظاهر بالنوم منتظرة حتى تغفو نادكا والاطفال . ثم اضافت الى ذلك وقتا آخر تحملته على افتراض ان احدا لم يستطع ان يغفو فى الحال . وبعد ذلك نهضت بهدوء واخذت فستانها وصديريها وحذاءها بيدها وخرجت حافية على اطراف اصابعها . وعند جدار المدخل الاصم ارتدت ملابسها وحذاءها ووقفت مهندمة ، ولكن براس عار ، على الدرجة العليا للمدخل كى تستجمع قواها وعزيمتها وتتثبت من نفسها ومن لزوم او عدم لزوم القيام بما نوت القيام به ، وفكرت : أليس من الافضل عدم

الذهاب الى ايما مكان والعودة الى الفراش والركون ، وان لامد قصير ، الى الهدوء المضيع المنشود ؟

الليل مرعب بعض الشيء – سكون كئيب مطبق وظلمة حالكة لا يشقها بصيص . فى الليلة الماضية تساقط المطر ، وفى الصباح هطل على فترات متقطعة بقطرات كبيرة متناثرة ، وكان الريح قد كنست آخر ما تبقى على الغيوم ، كما على الاشجار ، وكف المطر عن الهطول فيما بعد وظل النهار ملفعا ، دون جدوى ، بحجاب ضبابى كثيف شرير بدا الآن اقوى واشد مما كان عليه فى الضحى . لم تكن المبانى مرئية تقريبا فى الظلام الدامس ، فتعين على ناستيونا ان تحدق فى الظلام وتتعب عينيها لكى ترى اقرب المنازل بشق الانفس ، بل ولعلها لا تراها وانما تتحسسها عن بعد فى مواقعها المعتادة . تدلت السماء الثقيلة على ارتفاع واطىء جدا حتى شعرت ناستيونا برطوبتها الباردة التى تختلف عن رطوبة الارض ، وبتحرك الهواء على نحو دائرى غريب . تلك الليلة افضل ليلة للاختفاء لو لم تكن ناستيونا تخشى الظلام الدامس الشرير الذى لاح هناك ، على نهر انغارا ، بشكل افظع .

كانت قد نوت التوجه الى النهر حالما ظهرت على المدخل . فهى ، فى الليالى وفى الطقس السيىء تتخفى عن اعين الناس ، وتعرف من زمان طريقا واحدا فقط . راحت تنقل قدميها بخطوات حذرة متقاربة كيلا تعثر بشيء ما يعترض طريقها ولا تقع على الارض ، فسارت عبر مربط الماشية الى الحمام الذى كانت ، قبل ثلاثة ايام ، تعتبره حمامها ، واخذت من مدخله مجذافى المقدمة ورمحا . ولم تمس مجذاف المؤخرة ، فهى لا تجيد استخدامه . والآن ، حيث لا تعيش عند آل غوسكوف ، بدا لها استخدام قارب ميخيتش بدون سماح منه بمثابة سرقة ، ولكن ليس لدى ناستيونا مخرج آخر . فهل تاخذ قاربا من الغرباء ؟ انهم ربما يؤلبون الكلاب عليها او يبتدعون ما هو اسوأ من ذلك . يكفيها ما هى فيه من مشاكل . وفى مكان ما ، وسط القرية ، نبح كلب على حين غرة دون سبب واضح وكأنه تشمم خوفها ، واستجاب كلب آخر لنباح الاول . فتوقفت ناستيونا مرتعبة ، وجلست قرب احد الاسيجة منتظرة حتى يهدأ الكلبان وقلبها يدق بشدة . انها اليوم تخاف من كل شيء : من الظلام

الذى كان فى الواقع عونا لها ، ومن السكون الرهيف المطبق اكثر من اى وقت آخر والذى يفضح اضعف صوت فى الحال ، ومن هذا النباح الذى كان فى الاغلب عارضا وناجما عن حماقة الكلاب الناعسة ، ولذا انتهى بسرعة . انها ترى فى كل شيء تعمدا وقصدا سيئا وفالا نحسا . هبطت الى ما تحت الشاطىء العالى بحذر شديد حتى كادت تزحف وتتوقف وتتسمع بعد كل خطوة . وخيل اليها ان صرير حصى الشاطىء تحت القدمين يصم الآذان . وصدر حفيف عال يصم الآذان ايضا عن القارب عندما دفعته واندست فيه . جلست محنية الظهر دون حراك وتركت القارب ينساب مع التيار الى ما وراء القرية .

الظلمة هنا ، على نهر انغارا ، اقل سوادا ، اذ ينبعث لمع رصاصى خفى يضطرب فيه الماء ويضيع ملتويا هابطا الى اعمق . ومن فوق تلك الغشاوة الرصاصية اللماعة تنبسط خطوط كثيفة من انعكاس اضعف واحلك لا يعرف مصدره . ويخيم عليه ظلام دامس يكتنفه فى الحال . راحت عينا ناستيونا تبحثان عن بصيص العوامة البيضاء الثانية التى ساعدت الشيخ ماتفى فى نصبها . شعرت بشيء من الاطمئنان لان البصيص موجود هنا ولم يختف او ينطفىء . بدا خرير الماء عند المضحل فى الليل مكبوتا اقل انفعالا . بيد ان حفيف التيار المرن المتواصل والمشوب بصفير خفيف بات اكثر وضوحا . وكان النسيم فى الهزيع الاخير من الليل يحوم عشوائيا فينتفض ويعلو قليلا ثم يهبط خائرا منهوكا . . .

حان وقت الجذف . فليل الصيف قصير رغم حلوكته . كانت ناستيونا فى بادىء الامر تأمل باعادة القارب قبل انبلاج الفجر ، ولكنها تدرك الآن ان ذلك غير ممكن . فقد صرفت وقتا طويلا وهى راقدة فى الفراش وجالسة على درجة المدخل ، كما تصرم الوقت فى احضار المجذافين خلسة وفى انسياب القارب مع التيار . فالوقت لا ينتظر . حبذا لو تمكنت من العودة مع الفجر ، ولكن قبل ان ينهض الناس من النوم ويتوجهوا الى النهر ، كيلا ترسو بقاربها على مرأى منهم ولا تعطيهم حجة اضافية للاقاويل . ولعلها تستخدم القارب للمرة الاخيرة ، فقد لا تحتاج اليه فى المستقبل . اذ لا يجوز التمادى فى امتحان الاقدار . كفاية . يبدو انها ، هى

ناستيونا ، قد اخطات بشيء فى وقت ما ، فتمادت اكثر من اللازم . ولكن متى وبماذا ؟ ما فائدة التحرى والتنقيب الآن ؟ فلن تكون لذلك جدوى . اهم ما يجب فعله الآن هو تحذير اندرى والاتفاق معه . وبعد ذلك فليكن الطوفان . احست بتعب فظيع لا يطاق فارادت ان تجذف مبتعدة بالقارب ثم تطلق المجذافين وترقد فتغمض عينيها ، وليجرفها التيار حيثما يشاء ، فلن تكون الحال هناك اسوأ مما هى عليه الآن .

مرت ثلاثة ايام منذ ان طردتها سيميونوفنا من المنزل ، ولكن ناستيونا لا تريد التصديق بانها تعيش عند اناس غرباء وبانه لا يجوز لها ، كالسابق ، ان تدخل غرفتها وتستبدل ملابسها وترقد على السرير الخشبى وتداعب بطنها باستحياء قبيل النوم . عندما لم تعد بها حاجة الى اخفاء بطنها ، حيث يستطيع كل راغب ان يسلط عليه عينيه ويرتشف من سره المفضوح ما شاء كما يرتشف العسل ، اخذ يتفتت ويذوب حنانها على الجنين واحساسها المرتعش الرهيف بحياته التى تكتمل وتمتلىء ساعة بعد ساعة . لم يبق غير الخوف مما يمكن ان يحدث له . ولم يكن هينا عليها ان تتحسس طوال الوقت نظرات الآخرين الشائكة المستنكرة ، تلك النظرات المتطفلة المرتابة الحاقدة . فكما كانت ناستيونا نفسها عاجزة عن الاقتناع بان كل ما حدث لها هو حقيقة لا مراء فيها ، كذلك كان الآخرون عاجزين عن التصديق بان هذه المرأة هى نفس ناستيونا التى يعرفونها ، فصاروا يبحثون كل مرة عن تاكيدات للاشاعة : هل البطن موجود او انه انكمش واختفى ؟ وما من احد ، حتى ليزا فولوغجين التى تشاطرها آراءها ، يشجعها ويقول لها : شدى حيلك ، وابصقى على الاقاويل ، فالطفل الذى ستلدينه طفلك انت ، ويجب عليك ان تحفظيه وتصونيه ، اما الآخرون فسيعودون الى رشدهم بمرور الزمن . ولو كانت مدة الحمل تتناسب وعودة مكسيم لناصبتها ليزا ايضا العداء ، فى اغلب الظن ، متوهمة بان ازوجها ضلعا فى القضية . من يدرى ؟ ربما هى الآن ايضا تفكر بهذا الموضوع وتحسب الايام . فان كاترينا ، زوجة نسطور ، مثلا ، تحمل غيظا جديا عليها وتنظر اليها شزرا . فهل بوسع ناستيونا ان تاتى اليها وتوضح الامر وتهدئها قائلة بان زوجك نسطور لا علاقة له بالامر .

لم تنطل حكاية ناستيونا بخصوص المفوض على البعض من اهالى القرية . ولعل ذلك شيء طبيعى . بيد ان حال ناستيونا لم تتحسن بسبب تلك الفرية . انها لا تعبأ برأى النساء ، فهى تعلم بانها غير مذنبة بحقهن ، وهى على الاقل ، لم تقترف ذلك الذنب الذى ينسبنه اليها . ولذا تنظر اليهن بدون خجل . الا ان الطامة الكبرى هى عندما يلمحون الى شيء ما اقرب الى الحقيقة . ففى اول لقاء لها مع اينوكينتى ايفانوفيتش بعد افتضاح خطيئتها تطلع اليها بنظرته الثاقبة الذكية وهز راسه متفهما وقال :

— يجب علينا ، يا امراة ، ان نتحقق : من الذى قلدك هذا الوسام ؟

وسلط عليها عينيه الحادتين مستنطقا متشمما وهو يتوقع ان يرتجف عرق ما فى رقبتها او ترتسم على محياها نامة تكشف عن سرها بغير قصد .

— تحقق ، يا اينوكينتى ايفانوفيتش ، تحقق — قالت بنفس اللهجة العنيدة التى اعتادت على مخاطبته بها فى الآونة الاخيرة دون ان تجعله يتمادى فى كلامه . — اما انا فساهمس فى الآذان بان الطفل سيكون شبيها بك .

— تفو ! ما اقذر لسانك ! — بصق وابتعد مهددا : — لا بأس ، سنرى من الذى سيشبهه .

بدا لها هذا القول افظع . ولم تكن تتصور ما ينبغى فعله بهذا الخصوص . انها على العموم لا تمتلك ادنى تصور عما ينبغى فعله ، وهى عاجزة عن التفكير والتصميم على شيء . فقد ظلت على حالها سادرة شاردة الذهن منذ ان صرخت بها سيميونوفنا فى اليوم الاول . اظلمت الدنيا فى عينيها ، وخيل اليها ان كل ما حواليها غريب عليها ومعاد لها ، يتعقب كل خطوة من خطواتها ويسترق السمع الى كل فكرة من افكارها . كانت تتحرك كيلا تتجمد وتتخشب نهائيا ، وكانت تذهب الى العمل وتجيب بكلمات ما عندما يسالونها ، ولكنها تنسى فى الحال ما قالته وما فعلته والمكان الذى تواجدت فيه . لم تكن تنام الليل تقريبا ، لان الالم المرهق المرير يقض مضجعها فلا تجد وسيلة للخلاص ، وفى ضوء النهار لا تفرق بين الصباح والعصر . فقد تاهت وضاعت واختلطت عليها الامور . صارت

نادكا تناديها وتنبهها وتدفعها دفعا الى المائدة او السرير او الحقل – وتتحرك ناستيونا طائعة وتعمل المطلوب ثم تتحجر من جديد وتتطلع الى نقطة واحدة امامها بارهاق دون ان تبصر شيئا . وهى تنتظر طوال الوقت موسم حش الاعشاب الذى يوشك ان يحل من يوم لآخر ، معتقدة لسبب ما بان هذا الموسم الفرح المحبب اليها فى السابق لا بد وان يشهد انعطافا ولا بد من ان تصل دوامتها العكرة الممضة الى نهاية معينة . فالى متى تستمر الحال على هذا المنوال ؟ !

لم تكن تنوى الذهاب الى اندرى اليوم . الا ان نادكا عادت فى المساء من زيارة احد المنازل وافادت :

– اسمعى ، يا ناستيونا ، ما يقولونه عنك . . . يقولون بانك حملت من زوجك الشرعى وليس من شخص غريب .

احست ناستيونا بموجة حارقة اجتاحتها من الراس ، فارغمت نفسها على الضحك بسخرية :

– اين هو زوجى الآن ؟ ثم اليست الاربع سنين مدة طويلة للحمل منه ؟

– اينوكينتى ايفانوفيتش يؤلف الفرضيات . واعتقد ان هذه الاشاعة بدات منه – قالت نادكا موضحة – هذا الجلف العجوز لا يعرف الاستقرار والهدوء . فهو شخص لا نفع منه للمراة ، ولذا يستثير الناس ويبتدع ما يثير انتباههم .

– من زوجى الشرعى ، فليكن – قالت ناستيونا موافقة لكى تبين بانها لا تهتم لاقوال الآخرين .

اجتاحها الخوف بعد هذا الحديث راسا : فهذا المحتال سيتقفى اثره وسيصل اليه . فى العالم كله لا يوجد شخص آخر مثل اينوكينتى ايفانوفيتش . سوف يظل يبحث وينقب الى ان يصل الى درب مستقيم . وما دام قد استقر على رأى فلن يتراجع . سيذهب الى مركز الناحية ويجد المفوض ويلمح له بان اتامانوفكا تنتظر فى القريب العاجل وريثا له . وسيرفض ذاك بالطبع ويحتج وتصبح القضية اكثر خطورة . كلا ، ينبغى لاندرى ان ينسحب ، الى اية جهة مهما كانت ، ولكن يجب ان ينسحب من كل بد . او ان يخرج ويسلم نفسه . فالامل فى المرحمة اكبر اذا سلم المرء نفسه طوعا . مهما طال حبل العمر فالنهاية محتومة . يا الهى ! ما افظع فعلته . . .

ما افظعها . . . ولماذا ارتكبها ؟ واذا انسحب ، واختفى الى ابد الآبدين ، وكانه لم يكن موجودا على الاطلاق – انها لم تعد تعرف ماذا تريد – فان الطفل سيتحمل بعد ذلك من كل بد تلك السمعة التى حرص هو ، اكثر ما حرص ، على حمايته منها : فقد تنتشر فى وقت ما اشاعة بان اباه هو احد الهاربين من الحرب . ولن تمحى هذه السمعة باية وسيلة . فالانسان . اذا قلت له ان طفلا ولد من الشيطان نفسه ، ربما لا يصدق ، ولكنه لن ينسى الشيطان ، بل وسيجد مائة دليل على ان ذلك الطفل منه بالذات ، من الشيطان الرجيم . وبالتالى فالطفل سيولد بلطخة عار لن يتخلص منها مدى الحياة . ولن تكون النتيجة كما ارادا ، لن تكون . ستقع عليه خطيئة الوالدين ، تلك الخطيئة القاسية الفظيعة ، فما الذى سيفعل بها ؟ ! انه لن يسامحهما ، سيلعنهما ، وسيكون على حق .

الظلام الحالك يكتنف كل الارجاء . والسماء تنهال بكل ثقلها ، والشواطىء بعيدة لا ترى . لا شىء غير الماء الذى يمكن ، فى اية لحظة ، ان يفغر فاه ثم يغلقه . وليس واضحا ما اذا كان بصيص العوامة الخجول لا يزال مضيئا ام لا ، فهو تارة يلمع وتارة يضيع . فى الليل تخيم على الماء رائحة موات ، رائحة المقبرة القديمة المغسولة الاطراف ، ويثقب الحنجرة عفن حامض منبوش ، وتقبع الروح منكمشة خائفة فى ركن من الصدر لتختبىء وتتخلص من النداءات الغامضة ، ويخيل اليها ان صوتا سينبعث من الاعماق فى هذه اللحظة او بعد لحظة وسينبئها بشىء صائب الى حد الفظاعة فلن ترغب فى مواصلة الجذف .

غرزت ناستيونا المجذافين فى الماء برفق وبدون طبطبة وسحبتهما بحذر دافعة القارب الى الامام . سار القارب ، كما خيل اليها ، بدون حفيف ، فراحت تتسمع باذن مرهفة الى كل صوت ينبعث من النهر او اية جهة اخرى ، وهى متحوطة لكل شىء ومستعدة لكل طارئ . عندما طرق صوت قصير جاف على الشاطئ ، وكانما ارتطمت شجرة بشجرة ، تلقفت ناستيونا هذا الصوت فى الحال وتجمدت جوارحها . وسمعت بوضوح على الفور ذلك الصريف المقشوط المنبعث من سحب قارب على الحصى . بقبق الماء الذى

تعكر صفوه ، ثم خيم السكون . ولكن ناستيونا سرعان ما سمعت مجذافا يشق الماء بصوت رتيب يشبه التمطق .

لم تشك ناستيونا بان شخصا يتعقبها . يبدو ان احدهم راقبها وانتظر حتى تبتعد قليلا ثم تحرك فى اثرها . ولكن من هو ؟ هل هو ميخيتش ام شخص غريب ؟ على مقربة من قاربهم كان هناك ، فى نفس البقعة من الشاطئ ، قاربان آخران ، قارب اينوكينتى ايفانوفيتش وقارب اغافيا سوموفا ، ويمكن لاى شخص ان يستخدم ايا منهما ، فكلاهما غير مقيدين . ظلت ناستيونا بلا حراك فاستدار قاربها بفعل التيار وانساب معه ، وراح المجذافان المنشوران يشقان الماء كسكين محراث . لم يكن هناك مجال للتفكير فى مواصلة الجذف ، فما دامت هى تسمعه سيسمعها هو ايضا . ها هى تخفق فى مهمتها ولن تتمكن من تحذير اندرى . لا بد من العودة . حبذا لو كان هذا الشخص ميخيتش ، فليس فيه ما يخيف ، ولكن ماذا لو كان غيره ؟ وعلى اية حال فقد هيأت له امكانية التأكد من صحة شكوكه .

عندما فقد ذلك القارب اثر ناستيونا لاذ بالصمت ايضا ، ثم تحرك مجذاف المؤخرة بهدوء من جديد . وادركت ناستيونا ان عليها ان تجعل صوت مجذافيها يطابق صوت مجذافه ، وتوجهت نحو الشاطئ . لم يكن الشاطئ قريبا ، الا ان راسا صخريا قد انغرز منه الى مسافة بعيدة فى اسفل النهر ، والماء يلطم صخوره . اذا بلغت الراس بوسعها ان تجذف دون خوف بشرط ان لا تثير ضجيجا . بلغت طبطبة المجذاف المتناسقة التى لا تكاد تسمعها الاذن مستوى موازيا لموقع ناستيونا ومرت ازاءها ، ثم ساد السكون ذلك القارب الذى كان ينتظر من ناستيونا ان تفضح نفسها ، ولكنه واصل سيره من جديد دون ان يحقق مبتغاه .

خيل لناستيونا ان الخيط الابيض سينفصل عن الخيط الاسود . فقد ظهرت فى الهواء بقع صدئة كالحة ، واشتد البرد قبيل انبلاج الفجر وتلاحق النسيم لكى يتحول الى ريح جنوبية وبدأت دوامات الماء تتموج . واخيرا بلغت ناستيونا الراس الصخرى خلسة ودفعت قاربها بالرمح نحو الشاطئ . ولعل من اللازم الآن ان تترك الحذر وتعمل على العكس فتثير ضجيجا وصخبا كى يتصور ذاك الذى

يطاردها بانها لم تكن تنوى عبور النهر ، وكل ما فعلته هو القيام بجولة نهرية على شاطئها لتتخلص من الارق ولتبدد احزانها . لقد تعبت ، تعبت من كل شىء . انهكت قواها حتى رغبت فى النهاية العاجلة ، اية نهاية ، فهى افضل من هذه الحياة . كانت تريد ان تنام ، ولكنها تعرف انها لن تغفو بسبب اخفاقها فى الوصول الى اندرييفسكويه . فهى لم تحقق الا الضرر ، حيث افشت سر انغارا .

ارست قاربها عند الضفة ونزلت منه وتسلقت الشاطئ دون سبب واضح . وانفصل الخيط الابيض عن الخيط الاسود بالفعل . فقد لاحت ومضات فى السماء المعتمة من جهة الجبل . انحسر الليل . ويبدو ان الطقس تحرك هو الآخر . فقد يزاح هذا الستار الحديدى المتجهم عن صفحة السماء فى وضح النهار . انها ليلة ثقيلة شريرة يصعب تحملها حتى على الضمائر النقية فكيف بضمير ناستيونا الضال الممزق ؟ لقد ارهقت روحها المتحرقة الما وعذابا ، وهى تتشكى وتبكى دون ذرة من امل .

كبت ناستيونا فجأة فندت عنها صرخة وتشبثت يدها بصليب خشبى مائل . يا الهى ! اين انا ؟ ! اين انا ؟ ! فى مدفن الغرقى . اقشعر بدنها من الرعب وتراخت ساقاها فلم تعودا تطاوعانها . زحفت زحفا لكى تخرج من قبر مخسوف ، وتدحرجت الى اسفل ، نحو القارب . يا الهى ، ارحمنى واعطف علي ! ما هذا ؟ ! يا الهى ، ولماذا ؟ افلا يكفينى ما انا فيه من رعب ؟ انتشلت الرمح وراحت تدفع القارب الى اعلى النهر بكل قواها مبتعدة عن هذا المكان الكريه الفظيع دون ان تعبأ بما اذا كان احد سيسمعها . هذا المدفن انشاه اثناء الصيف الماضى ميشكا الاجير الذى جاء الى اتامانوفكا فى بداية الحرب من دار الايتام وهو صبى ، وكبر منذ ذلك الحين حتى صار شابا راشدا فارع القامة .

فى الآونة الاخيرة حملت المياه عددا من الغرقى اكثر بكثير مما فى السابق . فلماذا ؟ الحرب وضعت اوزارها ، وانتعشت الآمال . فلماذا اذن ؟ ربما لان الحياة مالت باستدارة شديدة جدا فلم يتحمل الضعفاء عند المنعطف ووقعوا فى النهر . من يدرى ؟ . اطلقت على ميشكا كنية الاجير لانه اكتفى فى البداية بممارسة اعمال بسيطة بالاجرة . وهو لا يستنكف من انتشال الغرقى ودفنهم لقاء عشرة

روبلات يستلمها من المجلس الادارى الريفى عن كل قبر . اعجبته هذه الوسيلة لكسب الرزق فراح يقضى النهار كله على النهر يبحث عن الغنيمة بعينين حادتين كعينى باشق . ودفن عند المرج السفلى اربع جثث . دفنها كيفما اتفق دون ان يبذل جهدا يذكر . وكل ما كان يريده ان تصادق التعاونية الزراعية على شهادة الدفن التى يتسلم النقود بموجبها من المجلس الادارى .

ظلت ناستيونا ترتعش طوال الطريق . فهى فى النهار تتذكر جيدا هذا المكان وتتحاشاه عن بعد وتخشى حتى التطلع صوبه ، فكيف دخلته فى الليل ؟ وكيف سقطت فى القبر مباشرة ؟ ! صارت تخاف على نفسها متأوهة مرتجفة من الرعب والاشمئزاز : فقد تلوثت . وراحت فيما بعد تطيل غسل يديها اللتين امسكت بهما تراب القبر الطينى اللزج ، وخيل اليها طوال الوقت ان رائحة تشبه الخميرة تفوح منهما .

ولكنها لم تنس التحقق من ذلك القارب ، فالشخص الذى تعقبها استخدم قارب العمة اغافيا سوموفا .

٢٢

فى الصباح لم تذهب ناستيونا الى العمل ، كما لم تذهب اليه نادكا . ولا ضير فى ذلك . فغدا يتوجهون الى حش الاعشاب ، وقد جرت العادة على ان يخصص مثل هذا اليوم لجمع المتاع لمن هو بحاجة الى ذلك . اخيرا حل موسم الحش الذى انتظرته ناستيونا وعلقت عليه هذه المرة آمالا عريضة فى الخلاص ، مع انها لا تعرف بالضبط باية وسيلة سيساعدها . ولكنه موسم الحش . . . وهى دوما تشعر فيه بالاشراق والفرحة والرغبة فى اداء اى عمل يخص حش الاعشاب . كانت تخرج قبل شروق الشمس وقبل تبخر الندى وتقف عند طرف القطاع المحشوش وتخفض المحش حتى يلامس الارض وتمرره عبر الاعشاب فى نقلة تجريبية اولى ، ثم تحركه كالمكوك وتتحسس بكل جوارحها هسيس الاعشاب الغضة المحشوشة . كانت تهوى الحفيف الذى يخيم على المرج باثنين اثناء الحش بعد الظهر حيث لم يخف الحر وحيث تتراخى الايدى بعد

فرصة الغداء بتكاسل فى البداية ثم تستجمع قواها وتنهمك فى العمل ناسية بانها تعمل ولا تتسلى . وتلتهب الروح بحماسة مرحة لا يقر لها قرار . فيسير المرء ناسيا نفسه وهو ينثر العشب المحشوش باندفاع لعوب ، فيخيل اليه انه ينغرز ويتغلغل بعد كل حشة فى شىء منسى خفى عزيز عليه . كانت تحب حتى جمع الاعشاب فى القيظ الموات حيث ينبعث هسيس متكسر جاف من العشب المحشوش ويفوح عطر مخدر شديد من الاعشاب المختلفة المكدسة . وتحب التكويم الاولى السريع للعشب قبل ان يتندى وهى تتطلع بخشية الى السماء والمساء . وتحب الازدحام والهرج والمرج قرب مجمعات الحشيش ، — تحب كل شىء من البداية حتى النهاية ومن اول يوم للموسم حتى آخر يوم فيه .

ولكن تلك كانت ناستيونا اخرى ، تختلف عن هذه . الا ان هذه ، اكثر من تلك تنتظر موسم الحش بفارغ الصبر وبامنية متحمسة مبهمة وايمان اعمى وكان مصيرها كله متوقف عليه . وبالفعل فقد خيل اليها ان كل شىء سيتضح فى ايام الحش : اين ينبغى لها ان تكون ، ومع من تعيش ، وعلى من تسلط جام غضبها ولاجل من تبتهل ؟ ! واجتاحتها من جديد الرغبة فى الخروج وحيدة قبل شروق الشمس والوقوف بين المروج وسط الاعشاب الطفيلية الكثيفة الطويلة الى حد الخصر وتشغيل محشها ، وتحريكه بعناد وانفة دون تلكؤ حتى تمهد دربا الى الطرف الآخر من المرج . وعند ذاك تلتفت وتتنفس الصعداء . فليس من قبيل الصدفة ان يقال ان العمل يودى بالانسان الى القبر ، ولكن هذا العمل نفسه يطعم الانسان ويحفظه حتى القبر . والاهم انه يحفظه .

كانت تلك الرغبة قد راودت ناستيونا بالامس . واليوم ، بعد تلك الليلة التى حالوا فيها دونها ودون الوصول الى اندرى ، فقدت هى سواء السبيل . وتحول الارهاق الى قنوط انتقامى لذيذ . لم تعد راغبة فى شىء ، ولم تعد تأمل بشىء ، امتلأ الفؤاد بثقل فارغ بغيض . فما كان يلوح لها بالامس ممكنا وضاءا انتصب اليوم امامها كجدار اصم . لم يغمض لها جفن خلال الليل ، وانتابها صداع شديد تحول الى الم متواصل يعصرها عصرا . وكان شىء ما يضغط عليها ويؤلمها من الداخل ، هناك حيث يستقر الجنين . لم تكن تعرف

هل ان ذلك من طبيعة الاشياء ام انها الحقت ضررا بالطفل . فاختلطت عليها الافكار وراحت تلعن نفسها : «هذا ما تستحقينه على ما نويت فعله» .

لم تفعل شيئا ، ولم تشرع باى عمل . كانت تحوم بيديـــن متدليتين من ركن لركن ، وتخرج من المنزل الى الشارع ثم تعود وكأنما تبحث عن شيء لا تجده او تنتظر شيئا لا تستطيـــع ان تنتظره . راحت تتصيد ليدكا وتعانقها وتداعبها حتى ملت تلـــك منها . واخذت الطفلة تختبئ عنها .

وهتفت بها نادكا قائلة :

– ماذا ؟ هل جننت ؟ اين كنت تهيمين البارحة ؟

لم تدهش ناستيونا ولم ترتعب . كانت هائمة حقـا . فلماذا لا تسألها نادكا ؟ واجابت :

– اردت ان اذهب الى رجلى ثم غيرت رأيى .

عندما يقول المرء الحقيقة ربما لا يصدقونه . اما هى فاهون عليها ان تقول الحقيقة . لقد ملت من الخداع ، ملت من كل شيء .

فقالت نادكا واثقة :

– جننت ولا بد . اذهبى الى الشيطان اذا كنت لا تفهمين كلام البشر . الافضل لك ان تلدى بسرعة ولا تعذبى نفسك . فستلدين طفلا وليس جروا .

شكرا لنادكا ، فهى على الاقل لا تطردها . وليس لناستيونا احد تاوى اليه . فهل يحق لها ان تتشكى من الناس ؟ لقد ابتعدت عنهم بنفسها . وحتى نادكا التى فتحت فؤادها لها تكذب عليها وكأنها عدو لدود . نادكا الساذجة تصدق بكلامها . ولكنها ستعلم فى وقت ما انها مخدوعة ولن تكون شاكرة على ذلك . تورطت ناستيونا وما من وجهة تتجه اليها .

قبيل الغداء حضر ميخيتش من الزقاق الخلفى واستدعى ناستيونا من جديد الى الحوش . كان مستعجلا فتكلم على الفور وهو يتطلع الى ناستيونا مباشرة بدون اثر للعطف او الحنان ، وتناثرت كلماتـــه قطعية حادة :

– اسمعى ، يا بنت ، اذا كان موجودا هنا فليذهب باسرع ما يمكن او يفعل شيئا طالما لم يقبضوا عليه بعد . فالرجال ، على

ما يبدو ، يعدون العدة . ويقودهم فى ذلك اينوكينتى ايفانوفيتش . توجه نسطور الى كاردا اليوم . ليس ذلك صدفة . . .

لاذت ناستيونا بالصمت . واستدار ميخيتش لينصرف فاضاف بنفس اللهجة الصارمة الجافة :

– كنت اريد ان العنك ، يا بنت ، لانك لم تسمحى لى بمقابلته ولكن لعنات كثيـــرة اخرى ستسلط عليك . فهذه الخطيئة فى رقبتك ، ولن تتخلصى منها . – ثم لاحت المرارة الحارقة فى صوت ميخيتش وقال معترفا : – هو ايضا جبان : خاف من مصارحة ابيه . فهل يجدى الكلام معكما ؟ . .

لوح بيده يائسا واجتاز السياج الواطىء عائدا من حيث جاء ، فرفع رجله العرجاء بشكل معوج يكاد يثير الضحك .

اما ناستيونا فقد ظلت امدا طويلا واقفـــة وسط الحوش بلا حراك ، وهى تحاول ان تتخذ القرار الهام اللازم ، ولكنها لا تعثر عليه ولا تقوى على صياغته . عبثا تعصر فكرها المشوش المرة تلو المرة . احترق كل شيء ، ولا جدوى من طحن الرمـاد . وهل يمكن التفكير بوسيلة الآن ؟ فات الاوان .

لم تعد تصدق بشيء ، لا بان ميخيتش كان هنا الآن ، ولا بان شخصا تعقبها على النهر فى الليل . خيل اليها انهـا ابتدعت ذلك كله براسها المريض ثم نسيت انها ابتدعته . كانت فى السابق تحب ان تتصور نفسها ، تخلصا من الملل ، وكان احداثا طريفـــة تجرى لها ، وتنساق وراء تصوراتها تلك حتى يصعب عليها التفريق بين الحقيقة والخيال . وربما حدث لها ذلك الآن ايضا . راسهـــا يكاد يتفطر من اثر الصداع . وتكاد هى تنتزع جلدهـــا من شدة الالم . حاولت ان تقلل من التفكير ومن الحركة . فليس هناك ما تفكر فيه ، وليس هناك ما يدعوها الى الحركة . كفاية .

فى المساء جاءت نادكا بنبأ جديد : وصل رجل الميليشيا بورداك . حاولت ناستيونا التشكيك فى النبأ صامتة : فربما وصل وربما لم يصل . لا احد يعرف بالتحديد . ولا داعى لتصديقهم ، فهم يمكن ان يقولوا كل ما يريدون . واذا وصل ، فما قيمة ذلك ؟ الا يجوز ان لديه اشغالا ما فى اتامانوفكا ؟ كان يصطاد السمك ، مثلا ، او يستخدم سلطتـــه ضد الذين لا يدفعون الضرائب المستحقـــة .

اتامانوفكا منطقته ، وله الحق فى ان يعرج عليها يوميا . وصل ، فليصل ، ثم ماذا ؟

اوت الى الفراش مبكرا وغطت حالا فى نوم خفيف كئيب رغم جلبة اطفال نادكا . ولكنها استيقظت فى اللحظة التى ارادتها وكان احدا ايقظها خصيصا . شعرت بالنشاط بعد ان اخذت قسطا من الراحة ، وخف الصداع عليها . انها لا تعرف كم مضى من الليل ، فالساعة المعلقة على الجدار صامتة وثقل زنبركها يتدلى . ولكنها واثقة من انها لم تتأخر ، وان احدا لم يسبقها بعد . ارتدت ملابسها علنا وخرجت علنا ايضا واغلقت الباب كما ينبغى . فاذا لم تحترس ولم تتخف يمكن ان توفق ، وهى هذه المرة بامس الحاجة الى التوفيق .

لاحظت ناستيونا الآن ان الجو صحا بعض الشىء خلال النهار المنصرم فراحت النجوم تومض وهى تشق طريقها فى السماء . الليل هادئ مظلم ، غير ان الرؤية كافية فى الضوء الشاحب المشتت . والرؤية اوضح فى رواق عريض طويل على النهر . رفعت ناستيونا مقدمة القارب عن ارض الشاطئ ودفعته وشرعت تجذف فى الحال . فيجب ان تسرع ، ويجب ان تحذر الرجل . ويجب ان تودعه . الى الابد ام الى حين ؟ الله اعلم .

عيب . . . لماذا تشعر بخجل فظيع من اندرى ومن الناس ومن نفسها ؟ من اين لها الذنب الكافى للشعور بمثل هذا الخجل ؟

ما اهون الحياة فى زمن السعادة وما امرها والعنها فى زمن التعاسة ! لماذا يعجز الانسان عن ادخار بعض من احداهما ليخفف به فيما بعد من عبء الاخرى ؟ لماذا تقف هوة سحيقة دوما بين هذه وتلك ؟ اين كنت يا انسان ، وباية دمى كنت تلعب عندما تقرر مصيرك ؟ لماذا وافقت عليه ؟ لماذا سمحت ، دون تفكير ، بان يقطعوا جناحيك فى اللحظة التى انت احوج ما تكون اليهما فيها ، حيث يتطلب الفرار من المصيبة طيرانا سريعا وليس زحفا بطيئا ؟

جذفت ناستيونا ورضخت لما يجرى بشعور من الطاعة والانصياع : فلا بد مما ليس منه بد ، وهى تستحق ذلك على ما يبدو . . . لن يتعلم المغفل العيش كما ينبغى حتى وان منح حياة

ثانية بعد حياته الاولى . ما اشد هدوء السماء وسكونها ! اما ليلة البارحة فلا افظع منها . الخوف يشتد عندما لا ترى العين شيئا فى الظلام ، ويخيل للمرء ان حادثا ما سيقع فى اية لحظة . هل صحيح ما يقال من ان النجوم فى اجواز السماء ترى ما فى الارض قبل ان يحدث بامد طويل ؟ فاين تراها النجوم ، هى ناستيونا ، هذه الليلة ؟ النجوم الآن ضعيفة فهل تتمكن من الرؤية المسبقة يا ترى؟

جذفت مرتبكة لافكارها المتبطرة المعقدة غير المعتادة ، ودهشت لان فؤادها يحاول عبثا الاستجابة اليها .

كان فؤادها منتشيا حزينا وكانه ينصت الى اغنية هادئة قديمة ويتحير فى معرفة اصواتها – هل هى اصوات الذين يعيشون الآن ام هى اصوات الذين عاشوا قبل مائة او مائتى عام ؟ تصمت جوقة ، وتحل محلها جوقة اخرى . . . وتاتى من بعدها جوقة ثالثة . . .

كلا ، الحياة لذيذة ، الحياة فظيعة ، الحياة مخجلة .

وعلى حين غرة داهمتها ، وهى فى خضم هذه الافكار ، اصوات اخرى ، ليست هى اصوات الاغنية القديمة باى حال . التفتت مندهشة فرات اشباح اناس على الشاطئ .

– تلك هى ! – صاح نسطور . الاصوات مسموعة جيدا على النهر ، وتسهل معرفة القول والقائل . واضاف نسطور الى تينك الكلمتين شتيمة لاذعة مخجلة ، فادركت ناستيونا ان الشتيمة موجهة اليها – اسرعت تريدين ان تسبقينا . كلا ، يا عزيزتى ، لن تتمكنى . سنلحق بك .

– ادفع القارب الثانى – دوى صوت اينوكينتى ايفانوفيتش – اسرع ، اسرع ، ما ابطاك !

– سنلحق بها حتما !

ارادت ناستيونا ان تجذف بكل قواها بسبب الرعب ، ولكنها اطلقت المجذافين فى الحال . فالى اين ؟ ولماذا ؟ لقد سارت ، اصلا ، بما فيه الكفاية ، ولا داعى للمزيد .

انها متعبة . ما افظع تعبها ، وما اشد رغبتها فى الراحة بدون خوف ولا خجل ولا انتظار مرعب لما يخبئه الغد . ما اشد رغبتها فى الانعتاق الابدى دون ان تتذكر نفسها ولا الآخرين ، ودون ان

تتذكر ذرة مما عانته . ها هى ، اخيرا ، السعادة المنشودة المعمدة بالآلام . فلماذا لم تصدق بها سابقا ؟ وعم كانت تبحث ؟ وماذا كانت تريد ؟ عبثا . كل ذلك عبث فى عبث .

عيب . . . هـل يدرك الانسان ان من العيب ان يعيش بهذه الصورة اذا كان شخص آخر يتمكن من العيش ، بدلا عنه ، بصورة افضل ؟ كيف يستطيع ، بعد ذلك ، ان يواجه نظرات الآخرين ؟ . . الا ان الخجل ايضا سيتلاشى وسينسى وسيتركها وشانها . . .

وقفت منتصبة بكامل قامتها وتطلعت صوب اندرييفسكويه . بيد ان اندرييفسكويه كانت ملفعة بالظلام . . .

القاربان يقتربان . هيا . الآن . والا سيفوت الاوان .

خطت الى مؤخرة قاربها وتطلعت الى الماء . كان بريق لماع ينبعث من الاعماق ، كما من حكاية جميلة مثيرة ، ويحوم فيه ظل السماء ويختلج . فكـم عدد الذين التقوا بـه وكم عدد الذين سيلتقون ؟ !

سبح وسط النهر ظل عريض : فالليل يتحرك . لامست اذنيها رشات الماء الرقيق الصافى الجذاب ، ورنت فيها عشرات ومئات وآلاف النواقيس الصغيرة . . . وهى تنادى وتدعو الى العيد . وخيل لناستيونا ان النعاس استولى عليها . فثبتت ركبتيها على متن القارب ومالت به اوطا فاوطا . وهى تحدق فى الاعماق بمنتهى الانتباه وبكل ما اوتيت من بصر لسنين طويلة فى عمر مديد ، فرأت فى القاع عود ثقاب يشتعل .

وسمعت صرخة يائسة من مكسيم فولوغجين :

— ناستيونا ، لا تفعلى ، يا نا . . ستيو . . نا !

وكانت تلك الصرخة هى آخر ما سمعته . وهوت الى المـاء ببطء .

طبطب النهر واهتز القارب وتمايل ، وانداحت دوائر متموجة فى ضوء الليل الكابى ، ولكن التيار اسرع فاكتسحها ، ولم يبق فى ذلك المكان ولا ثغرة يمكن ان يتعثر فيها التيار .

سمع غوسكوف جلبة وضوضاء على النهر فتصور بان ذلك يمكن ان يمت بصلة لـه . قفز وجمع متاعه بلمح البصر ورتب الكوخ ، كالعادة ، بحيث يبدو مهجورا لا اثر للحياة فيه واسرع

نحو غابات التايغا . كان قد اعد خط رجعة لمثل هذه الحالات غير المتوقعة ، وهو الجزيرة الصخرية . فهناك ، فى المغارة ، لن يعثر عليه احد . ركض وهو يفكر فيما هو الافضل : هل يصنع كلكا من جذوع الاشجار ام يسرق قاربا للعبور الى الجزيرة ؟

فى اليوم الرابع طفت ناستيونا عند الشاطئ على مقربة من كاردا . وصل اشعار بالنبأ الى اتامانوفكا ، وكان ميخيتش طريح الفراش ، فبعثوا ميشكا الاجير الى كاردا . عاد بناستيونا فى قارب واستعد ، كعادته ، لدفنهـا فى مدفن الغرقى . الا ان النسوة اعترضن على ذلك . فواروا ناستيونا التراب بين اهليهم ، ولكن فى طرف المقبرة ، قرب السياج المائل .

بعد الدفن اجتمعت النسوة فى مأتم بسيط بمنزل نادكا . وذرفن الدموع أسفا على ناستيونا .

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ، ـ الاتحاد السوفييتي

تصدر دار التقدم
قسطنطين سيمونوف . الاحياء والاموات .

قسطنطين سيمونوف (١٩١٥-١٩٧٩) - شاعر ، وكاتب مسرحي ، وكاتب اجتماعي وسياسي . في السنوات الاخيرة من حياته ، اشتهر على الاخص كروائي . نالت مؤلفاته جائزة الدولة سبع مرات . كوفي على روايته الثلاثية «الاحياء والاموات» بأسمى الجوائز في الاتحاد السوفييتي ، جائزة لينين . امضى سيمونوف ١٥ سنة في كتابة هذه الثلاثية عن مأثرة الشعب السوفييتي ابان الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥) . وقد قال : «اردت ان ابيّن في كتابي بدون زخرفة من اي جحيم خرجنا ، وكيف ، وفي اي سبل ، وبثمن اية تضحيات استطعنا ان ندحر الغازي عن ابواب موسكو ونظرده حتى برلين . روايتي عبارة عن نشيد عن ارادة المواطنين السوفييتيين وقوتهم الروحية» .